

JOURNALISM TODAY

تأليف : جان ل. شابمان - نيك نوتال

ترجمة : د. أحمد المغربى



دار الفجـر للنشـر و التوزيـع

الصحافة اليوم

الصحــافة اليــــوم

Journalism Today

تأليف

جين تشابمان ونِك نوتول

ترجمة

د. أحمد المغربي

دار الفجر للنشر والتوزيع

2012

الصحـــافة اليــــوم

ترجمة	تأليف
د. أحمد المغربى	جين تشابمان ونِك نوتول

Journalism Today

The First English Edition Published 2011 by Wiley-Blackwell

رقم الإيداع	حقوق النشر
22205	الطبعة العربية الأولى 2012
ISBN	جميع الحقوق محفوظة للناشر
978-977-358-271-8	

دار الفجر للنشر والتوزيع

4 شارع هاشم الأشقر ـ النزهة الجديدة

القاهرة ـ مصر

تليفون : 26242520 – 26246252(00202)

فاكس : 26246265 (00202)

Email: daralfajr@yahoo.com

فهرس المحتويات

تقديـــم

كيف نستخدم الكتاب وموجز الفصول

المدخل

نشأت فكرة هذا الكتاب في المقام الأول جراء محاولتنا تحديد الموضوعات الرئيـسية التـي تواجـه صحافة اليوم، ثم بهدف تتبع جذورها التاريخية. لقد أردنـا إلى أن يركـز المـدخل التـاريخي عـلى تلك الموضوعات، ولكي يكون بذلك مدخلاً انتقائيًا على وجه التحديد. ولذلك كانت نقطـة بـدايتنا هي تحديد القضايا الراهنة – وطويلة المدى – وهي القضايا الخاصة بكل من الصحافة والمجتمع. بعد ذلك توسعنا وأسهبنا في عرض الحجج وفي تقديم الأدلة التاريخية والتجريبية التي تدعم تلك الحجج. على سبيل المثال، تظهر إحدى الحجج أن كل ملفات الحقائق والسير الذاتية تـسبق فـترة القرن الحادي والعشرين. ولقد قمنا باختيار أربعة موضـوعات، وكرسـنا لكـل منهـا بابًـا مـستقلاً؛ هذه الموضوعات هي:

1- الصحافة والديمقراطية
2- التكنولوجيا والعمل والتجارة
3- أخلاق المهنة ethics
4- الجمهور وأثره على الصحافة

خـلال عمليـة البحـث التـاريخي اكتـشفنا أننـا قـد قمنـا فعـلاً بحـصر أربعـة موضـوعات إضـافية تبـين أن الـصحافة الحديثـة تختلـف تمامًـا عـن الـصحافة القديمة, كما توصلنا إلى أن بينها وبـين تلـك الـصحافة القديمـة أواصر موروثـة؛

تلك الموضوعات الإضافية هي:

1- الشخصنة (إضفاء طابع الشخصي) **personalization**

2- العولمة **globalization**

3- التموضع (التمركز) **localization**

4- الفقر المدقع **pauperization**

استخدام الكتاب

يعتبر هذا الكتاب رحلة استكشافية بهدف ربط الماضي بالحاضر في علاقتهما بالصحافة. ونأمل أن يشارك القراء في هذه الرحلة من خلال قراءة هذا الكتاب من بدايته إلى نهايته. فنحن نعد قراءنا بأن يمثل الكتاب رحلة رائعة! وإذا لم يكن الأمر كذلك، فيمكن للقارئ أن يتعامل مع الكتاب بابًا بابًا، أو فصلاً فصلاً، أو حتى جزءًا من فصل ثم جزءًا آخر، وهكذا. يمكنك أيضًا أن تغوص في أعماق الكتاب، أو أن تلقي عليه نظرة سريعة من حين لآخر لتطلع على بعض الأسماء أو الأحداث التي قد تبدو بارزة على إحدى الصفحات، أو لأن تستخدم الكتاب لأي غرض شئت.

استخدام الكتاب داخل الفصل

يعتبر استخدام الفصل للكتاب أكثر منهجية من استخدام الفرد له، ولذا فإليك بعض المقترحات:

1- يمكن استخدام هذا الكتاب لأغراض الحوار أو المناقشة. على سبيل المثال، يمكن أن يكلف الطلاب بقراءة أحد الأبواب أو الفصول في موضوع معين قبل حضور الحصة الدراسية، أو يمكنهم حتى قراءة موضوع يتعلق بمادة هذا الفصل أو ذاك الباب.

2- يمكن أيضًا استخدام فصول الكتاب لأعمال المتابعة؛ فالكتاب مقسم

بأسلوب واضح حتى يمكن أن يوفر أساسًا لكتابة المقـالات وعمـل المـشروعات. فالـسير الذاتية ودراسات الحالة مثلاً أُريدَ بها أن تمثل "تذكِرة" أو دافعًا للمزيد من البحـث في حياة الفرد الذي تتضمنه السيرة الذاتية أو دراسة الحالة، أو القضايا التي تنطوي عليها تلك السيرة أو الدراسة. خلال كتاب موجز نسبيًا – مثل هذا الكتاب الذي بين يـديك – من الصعوبة طرح التاريخ الكامل كمراحـل انتقاليـة زمنيًـا مـن الألـف إلى اليـاء. لقـد اخترنا بالأحرى دراسات الحالة التي تجسد تلـك القـضايا المتعلقـة بمـا يحـدث في هـذه الأيام، بالإضافة إلى القضايا التي تحمل في طياتهـا إمكانيـة وجـود المزيـد مـن الأبحـاث المنفصلة بحيث تبدو تلك كقضايا مستهدفة في حد ذاتها، وذلك باستخدام هذا الكتاب كنقطة انطلاق. أما الذين تم اختيارهم من أصحاب دراسـات الحالـة أو الـسير الذاتيـة فلا يتميزون عن غيرهم كثيراً. إن خيارنا لم يك حصرياً؛ بل إنه خيـار عمـلي "بـراجماتي" إلى درجة استرشاده بوجـود مجموعـة مـن الأعـمال (كالأحاديـث والقوميـات والكتـب والأقلام والأنشطة الإبداعية الأخرى) أو من خـلال معرفـة الأعـمال الـشهيرة للأشـخاص وحيـاتهم، ولـيس بالـضرورة معرفـة الأشـخاص أنفـسهم، وأيـضاً مـن خـلال معرفـة مساهماتهم البارزة في المجالات العامة، وتلك المعرفة تساعد القراء في البحث عـن كـل ما يرغبون فيه بأسلوب أعمق.

3- لا نزعم أن محتويات هذا الكتاب محتويات أو مـواد نهائيـة. بـل إننـا نـدرك جيـداً أن الكثير من الموضوعات، بل والشخصيات المختلفة، يمكنها أن تطرح أفكاراً مماثلة بـشأن الأحداث المختلفة في عالم الصحافة، بل وفي كل مناحي الحياة.

مقدمة للموضوعات

إن الموضوعات الرئيسية التي يعمل الكتاب على تغطيتها - وهي توسيع المشاركة في المجال العام - والمراسلون وتقاريرهم عبر المهنية، وعولمة الأخبـار والمؤسـسات الإخباريـة، وتركـز (أو احتكـار) الملكية، والتغيرات التقنية والفنية، واستجابات الجمهور وردود أفعاله، وصـعوبة وتعقيـد التنـوع المتعدد - هي جميعها ظواهر تاريخية يعود تاريخها على الأقل إلى القرنيين الثامن عشر والتاسـع عشر، وغالباً في الدول التي تقع خارج إطـار الولايـات المتحـدة وبريطانيـا العظمـى. يتتبـع هـذا الكتاب بعض تلك التاريخ والآثار ليس كعملية تأريخ زمني شامل (فهذا موجود بالفعل في أماكن أخرى)، ولكن ربما كمقتطفات أدبية تسلط الضوء- بوجه خـاص- عـلى الوظـائف الـصحفية التـي تتعلق بالمجتمع الأكبر وتتفاعل معه. بذلك، نلقي نظرة شاملة نركز من خلالها عـلى الاسـتمرارية، فضلاً عن التغير.

تستخدم الفصول الرئيسية الأربعة مدخلاً موضوعياً يتعلق بالعمل الصحفي والـصحافة المطبوعـة أكبر من الإذاعة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التاريخ العريق للكلمة المطبوعـة. كـما أن الأمثلة المستخدمة خلال تلك المحاولة تمثل القضايا المطروحة للنقاش، وترمز إليها، ولم تكـن ثمـة محاولة لعملية تأريخ شامل، لا للصحافة، ولا لأية أيديولوجية.

المقدمة: استخدامات التاريخ وحالات انتهاكه

تشرح المقدمة الأساس المنطقي لمدخلنا، وتعمل بوصفها نقطة انطلاق استطرادية لبقية الكتاب.

الباب الأول: الصحافة والديمقراطية

هنا نسعى إلى استكشاف العلاقة التاريخية بين الصحافة والديمقراطية، أولاً من حيث الإنجازات الفلسفية مثل "الميثاق العظيم" Magna Carta أو "الماجناكارنا"و"إيريوباجاتيكا" لجون ميلتون Areopagatica،وكتابات توم بايين وجورجين هابيرماس، من حيث الصراعات القانونية والسياسية من أجل حرية التعبير مثل جون بيتر زنجر، وحالة هاسويل Haswell، وقصة إدوارد سميث هول وهو رائد الحديث الحر في استراليا. وسيتم مناقشة دور الصحافة في الثورة الأمريكية، والتعديل الأول للدستور the First Amend ment to the Constitution والجوانب الأخرى من الصحافة والديمقراطية (أو عدم وجود بعض تلك الجوانب مثل الرقابة والقوانين القمعية) بالإضافة إلى التحديات التي أدت إليها التحقيقات الصحفية والمنشقون عن الملاك. والأمثلة التي سقناها عن الثقافات السياسية النشطة، والمناقشات العامة، وآثار المذهب التجاري، وتزايد تأثيرات العلاقات العامة، كل ذلك يتيح شروحاً وتفسيرات تاريخية للآثار الميمونة للصحف الديمقراطية صغت تلك التأثيرات أو تضاعفت. أما المقالات النقدية التي وجهت للصحافة مثل تقرير هوتشنز Hutchins فنسلط الضوء على نقاط ضعف الغطاء السياسي،كما تؤدي إلى المزيد من الخلافات حول ما إذا كان يمكن للصحافة أن توفر شعوراً بالانتماء للمجتمع في المستقبل.

الباب الثاني: التكنولوجيا والعمل والتجارة

من خلال تتبع الموضوعات والأمثلة التاريخية التي تتعلق بنشأة العلاقة بين التكنولوجيا والتجارة،وأثرهما على التجارة الصحفية، يكشف هذا الباب الحجاب عن بعض أسباب أو مبررات طرق تشغيل الأعمال التجارية في الوقت الحاضر. والاتجاه الرئيسي الذي تم تعيينه هنا يتمثل في المسيرة المتواصلة لثقافة

الأعمال التجارية، والطريقة التي أثرت بها تلك المسيرة في الصحافة بمرور الزمن. ثمة مؤشر أساسي ظهــر في أواخــر القــرن التاســع عــشر وخــلال القــرن العــشرين، ألا وهــو "الخصخــصة " CorporatiZation التدريجية للصحافة وهو أمر يعتبره الكثيرون خطراً محدقاً يهدد مفهوم "الصحافة الحرة".

الباب الثالث: الأخلاق

ثمة صدام تاريخي بين كل من الصحفيين والسلطة. ذلك لأن الصحفيين ربما يعمـدون إلى الكـشف عن أسرار الأغنياء والأقوياء، وربما يستعدون الحكومات وأصحاب المصالح الخاصـة، أو يقعـون في بعض الأخطاء لسبب أو لآخر لينتهي بهم الأمر إلى المثول أمام القضاء في المحاكم. إن القانون هو أحد أشكال القيود التي يواجهـها الصحفيون،ولكن في أواخـر القـرن العـشريـن أبتكـر الـصحفيون بأنفسهم عدداً من مبادئ أخلاق المهنة ويطالبون كل من يعـمل في المجال الصحفي الالتـزام بهـا، وبذلك فإنهـم يضفون الشرعية على مهنة الصحافة، كما يحوزون على ثقة الجماهير. يبحـث هـذا الباب في العديد من الأفكار والقواعد الأخلاقية النابعة من تلك الأفكـار التـي اختلقتهـا اتحـادات العمال والمؤسـسات الـصحفية وهـي الـضوابط والقواعـد الأخلاقيـة التـي صـدرت عـن أصـحاب المؤسسات الصحفية والمحررين والصحفيين أنفسهم.

نوجه أيضاً عناية القارئ إلى السبل التي يعمل الصحفي من خلالها على التوفيـق بـين مجموعـة متنوعة من المعايير الأخلاقية أثناء عمله اليومي. وينبغي أن نتذكر أن إحـدى الوظـائف الهامـة للصحافة تتمثل في أنها تعمل على سـد الفجـوة بـين الأحـداث والجماهـير، وبـذلك تعمـل عـلى عــرض كــل الخــبرات إعلاميــاً. فمــن خــلال الطــرح الإعلامــي تــصبح المعــايير الأخلاقيــة في غاية الأهمية، كما تحدد طريقة "طرحها" كيف يمكن فهم الصحافيين بدرجة كبـيرة. فهـل يمكـن أن نثق فـيهم؟ وهـل هـم يـستحقون الاحـترام؟ يمكـن الوصـول إلى إجابـات لهـذين التـساؤلين

من خلال السياق التاريخي الذي يتتبع تطور الرموز الأخلاقية خاصة في كل من بريطانيا العظمى وأمريكا. تشتمل القضايا الرئيسية التي تمت دراستها على السريـة **privacy** والشـهرة **celebrity**، والصحافة العائلة المالكة، وكيف شكلت عملية التلفيق وتزييف الحقائق في أوقات معينـة خطـراً يهدد بتقويض ثقة الجماهير في الصحافة المطبوعة والإعلام الإذاعـي وذلـك في كـل مجـال الإعـلام والمصادر الخارجية الأخرى.

الباب الرابع: الجماهير

لقد تغيرت الاتجاهات نحو الجماهير بدرجة كبيرة على مر السنين؛ كانت الجماهير في وقت مبكـر جماهير انتقائية ذاتياً من الناحية الجوهرية، كما كانت الصحف المبكرة تركز عـلى فئـة محـدودة مـن الجمهـور والقـراء:" فلـم يـك في القـرن الثـامن عشر مـا يعـرف بـالجماهير العامـة **mass audience** بالمعنى الحديث؛ بل نشأ هذا المصطلح في مطلع القرن الذي تلاه. لكن القـرن الثـامن عشر كان حديثاً بمعنى أنه في تلك الفترة والفترات التي يليها، كان الكاتب يدعم ذاتـه ماديـاً مـن خلال مبيعات أعماله للعامة". لقد كان القرن الثامن عشر هو فاتحة التطـوير الـرئيس والهـام في عملية بناء الجمهور؛ وكـان ذلـك يتمثـل في التحـول مـن الملكيـات الخاصـة التـي كانـت ترعاهـا الطبقات الارستقراطية مع وجود جمهور محدود إلى الملكية العامة مع وجود جمهـور أكـبر وغـير محدود.

وهذا التزايد الجماهيري اللامحدود هو الذي أدى إلى تطور الصحافة منذ ذلك الحين.

يمكـن تقـديم الخدمـة للجمهـور، كـما يمكـن تقديمـه بصـورة معقولـة أو وتقديمـه بأسلوب خاطئ، أو عدم تقديمه على الإطـلاق؛ كـما يمكـن إشراك الجمهـور في عمليـة إنتـاج الأخبـار، أو إبقـاؤه منعـزلاً وغـير مشـارك. ولكـن نـادراً مـا يكـون هنـاك

-أو ربما لا يكون هناك - تـوازن بـين منتجـي الأخبـار ومسـتهلكي تلـك الأخبـار، إذ أن وسـائل الإعلام تميل إلى إما أن تتحكم فيها سـلطة مهيمنـة أو أن تصـبح لسـاناً يعـبر عـن قـوى معارضـة للهيمنة يدافع عنها جمهورها دفاعاً قوياً. لذلك، يفصل هنا البابا في القضية الجدليـة التـي تـزعم أن الصحافة أصبحت أكثر ديمقراطيـة بصـورة تدريجيـة، كـما أن عملـت عـلى تشـجيع الجمهـور المتجاوب معها والمحب للإطلاع. ولكنها في نفس الوقت تنقض فكرة أنه كان ثمة مسـيرة مسـتمرة للتقدم خلال الماضي نحو حاضر متميز وعظيم ممثل في ديمقراطية شبكة الإنترنت.

من خلال تسـليط الضـوء عـلى بعـض الأمثلـة التاريخيـة لأنـواع مختلفـة مـن الـوعي والمشـاركة الجماهيرية منذ البدايات الأولى لإصرار الصحف وحتى وقتنـا هـذا، يمكـن أن يظهـر لنـا أن عـدم وضوح الحدود الفاصلة بين المستهلكين والمنتجين عبارة عن فكـرة متكـررة قـد تـؤدي إلى التطـور الصحفي. وسيتم في هذا الباب أيضاً تقييم مشاركة كل من الصحافة الشعبية، والـلـهجة المخففـة واختفاء الطابع الشخصي على الأجندات الإخبارية.

الباب الخامس: الخاتمة

كرسنا للخاتمة باباً منفصلاً بذاته. ذلك لأن الفصل الواحد يمكـن قراءتـه كتمـرين منفصـل في حـد ذاته، وذلك كجلسة لكتابة موجز في نهاية كل موديول أو برنامج أو سلسلة مـن الحصـص. وهـذا الفصل يحتوي على أفكار لاستشراف المستقبل؛ بالطبع لا يمكـن أن نتنبـأ بمـا هـو صـحيح، ولكـن نستطيع أن نوفر المزيد من " غذاء " الفكـر. وبـذلك, نأمـل أن نكـون قـد وفرنـا تجربـة مرُضـية ومتميزة.

مقدمـــــة

استغلال التاريخ وإساءة استغلاله

لماذا يزعجنا ذلك ؟

لن يكون لدراسة الصحف الحديثة أي معنى- بكل ما في هذه الكلمة من معنى- إذا لم تكن على دراية بإطارها التاريخي...

{ ليولونيثال: وجهات نظر تاريخية حول الثقافة الشعبية}

عندما يحل الصمت محل الحقيقية، يصبح الصمت كذباً.

{ إيفجيني إيفتوعينكو : منسق سوفيتي }

تخضع الصحافة المهنية إلى عملية إعادة تشكيل فيما يتعلـق بأدوارهـا الوظيفيـة وبـشرعيتها. وهذا ما يسبب الألم للعديد من النـاس. في واقـع الأمـر، يعتقـد بعـض المعلمـين بـأن وجـود الصحافة واصبح عرضـة للخطـر بـسبب ظهـور التقنيـات المرتبطـة بـشبكة الإنترنـت، والقـوة الكامنة بها؛ وتلك إنما هي إمكانية دمقرطة المشاركة في المجال العام، بالإضافة إلى إتاحة منـبر للمحتوى الإعلامي الذي يشارك به المـستخدم. في مقابـل هـذه الخلفيـة مـن إعـادة الهيكلـة المستمرة لصناعة الأخبار العالمية والتركيز المتزايد عـلى الملكيـة بـين الـشركات العالميـة، يبـدو

الوقت مناسباً لفحص المشكلات التي تواجهها الصحافة، وكيف يمكـن إن نـستفيد في فهمنـا لتلـك المشكلات من خلال اختبار البعد التاريخي بدقة.

إذا كان لنا أن نفهم النماذج الصحفية والقضايا المهنيـة المـستقبلة، إذاً فإننـا نحتـاج إلى أن نقـدر ونتفهم كيف برزت أدوارها المختلفة، وكيـف بـرز دورهـا الاجتماعـي وتطـور بمـرور الـزمن. كـما نحتاج أيضاً إلى أن يكون لدينا فكرة واضحة عن العلاقة بين أجهزة الإعلام في المجتمع الديمقراطي وذلك المجتمع الديمقراطي نفسه. يوضح كـل مـن "روبـرت ماكتشـسني" Robert McChesney و"جون نيكولز" JohnNichols تلك الفكرة كما يلي:" تخيل نوع الإعلام الذي يـستحقه المجتمـع الديمقراطي؛ إنه إعلام يوفر ثروة من الآراء المتنوعة وخيارات مختلفة من المتعة والتسلية؛ إعـلام يصبح مسئولاً عن إتاحة المعلومات التي تحتاج إلى التعامل معها كمـواطنين؛ إعـلام تتـدفق عـبره الأفكار في كلي الاتجاهين، وحيث تسنح للعامة من الناس الفرصة للتعبير عـن اهتمامـاتهم". تلـك القيم تواجدت – كفاتحة لمراجعة للتطلعات والطموحات – بصورة أو بأخرى عـبر تـاريخ وسـائل الإعلام، لكن إذا ما أردنا إلى إعادة تصور أو إعادة اختبار مثل تلك القيم، إذاً فعلينا مرة أخرى أن نفهم الماضي.

لابد أن يكون المنظور التاريخي قادراً على الكشف عن الاتجاهات والأسباب والظـروف الأساسـية التي ربما تكون قد أهملت فعلاً. لقد أظهرت عمليات التاريخ الاجتماعي للصحافة كيف العوامل المؤسسية والتكنولوجية الأخبار على مـدى مـائتي عـام،وهو مـا عـزز فكـرة أن الخـبر عبـارة عـن "صنف" بني على أسس ثقافية، أكثر منه أي شيء آخر.

الكثير من المعلومات !

يعـاني مجتمـع اليـوم مـن وفـرة كبـيرة مـن المعلومـات، ولكـن لا يعنـي ذلـك بالـضرورة

أن العامة من الناس يمكن أن تفهم تلك المعلومات. فالمعلومات الوافرة غالباً ما تطمس الحقيقـة أكثر من أن تعمل على بيانها أو الكشف عنها:" فهناك أوقات يشعر فيها مـن يـؤرخ للإعـلام بـأن أفضل تشبيه يمكن استخدامه عن الماضي هو كلمة (الأجمة) the thicket"، إن التكنولوجيا تتغير بصورة حثيثة، وتصبح شيئاً دخيلاً لدرجة أن التاريخ بكامله يدخل في طي النسيان، وإذا ما حدث ذلك، فإن كل شيء يصير عرضة للتغيير.

لذلك فإن التكنولوجيا المتقدمة ووسائل الإعـلام الإخباريـة التـي لا تخـضع للنـواحي القانونيـة لا تؤدي بالضرورة إلى تكوين جمهور من المواطنين الذين يتميزون بالإطلاع. وبدون وجود نوع مـن الفهم أو المنظور التاريخي، ربما يساء فهم القضايا الراهنة، أو ربما يتم استئصالها فتصبح أصـولها أمراً مبهماً وغالباً وغامضاً. هذا العجز في القدرة عـلى التواصـل communicative competence يساعد أصحاب المصالح الشخصية والقوية عـلى إرسـاء مـؤشرات القـضايا الجدليـة العامـة. ففـي الولايات المتحدة مثلاً تعتمد طريقة تشكيل الرأي العام على عاملين أساسيين :

العامل الأول، كيف تقوم الحكومات وسلطات ورؤساء الشركات باختيار وتحديد موضوع النقاش أو الجدال.

والعامل الثاني: هو طريقة تأثير تلك الحكومات والشركات في هذا الجدال من خلال تحديد الأطـر المرجعية له.

يزعم كل من المؤيدين والمقسمين لشبكة الإنترنت مع أولئك الذين ينزعـون نحـو التفــاؤل ويؤمنــون إيمانــاً تامــاً بدمقرطــة الفــرص التــي توفرهــا المــدونات والبودكاست[1] أن تلك القوة السلطوية يـتم تقويـضها الآن. ومـن المؤكـد أن ثمـة

---

[1] البودكاست podcast: عبارة عن إذاعات أو حلقات مـن بـرامج نـشترك فيهـا عـن طريقـة الآيتـونز، والحـديث خلالها على شكل حلقات من خلال الصوت فقط (المترجم).

أدلة قاطعة على ذلك. فبعض الصور القوية للهجات الإرهابيـة في الـسابع مـن يوليـه عـام 2005 أرسـلها بعـض المـسافرين الـذين قـاموا بالتقاطهـا بـأجهزتهم الخلويـة الخاصـة. كـما أن تفاصـيل الانتفاضـة التـي قامـت في يورمـا في عـام 2007 أرسـلها أصـحاب المـدونات الـذين اسـتطاعوا أن يتجاوزوا حـدود كتابـة التقـارير، بيـنما التقطـت صـور الـصراعات والمظـاهرات بـأجهزة الهـاتف المحمول. كان الخطأ الذي فرضه القادة العسكريون يتمثل في فرضهم تعتيماً على شـبكة الإنترنـت بهدف منع تدفق المعلومات التي تظهر حملات العنف. رغم ذلك فإن القدرة الهائلة التي يتمتع بها النظام الحـاكم في بورمـا عـلى "سـحب البـساط" تعـد علاجـاً قويـاً وناجعـاً للنظـرة التفاؤليـة الجامحة التي يتمتع بها عشاق شبكة الإنترنت.

في نهايات عام 2009 أتاحت أجهزة الإعلام الحديثـة للعـالم الاتـصال بـالمتمردين في طهـران الـذين كـانوا يـدعمون " مـير حـسين موسـوي" في الانتخابـات الرئاسـية المتنـازع عليهـا في إيران،وهو ما أعاد الرئيس محمود احمدي نجاد إلى السلطة. وأصـبحت إحـدى الخريجـات الجامعيات الإيرانيات – وهي ندا أغا سلطان- "بطلة"، بل وشهيدة؛ لقد التقطـت كـاميرات أجهزة المحمول والفيديو مشاهد إطلاق النار عليهـا وجرحها،ونـشرتها في كـل أنحـاء العـالم. وهذا الحدث كان أحد الصراعات الأولي التي جعلت " تويتر" (الموقـع الـشبكي الاجتماعـي الذي يتيح ما يربو على 140 شخصاً للتحدث أو التفاعل مـن خـلال رسـالة واحـدة) موقعـاً في غاية الأهمية. تقول إحدى رسـائل "تـويتر" Twitter: "الـشخص الواحـد يعـادل محطـة إذاعية كاملة". كان رد النظام الإيراني إبطاء سرعة الإنترنت إلى درجة "الزحـف" حيـث كـان لا بد من الكتابة باختزال وبساطة شديدة. في هذا الصدد، يذكر الـصحفي أنـدرو سـوليفان في رسالة مسجلة له :" حتى يمكنهم التواصل كان عليهم إرسال الـصوت مـن خـلال تـويتر". في غضون ساعات من الانتخابات الهزلية، استطعت متابعـة مجموعـة كبـيرة مـن المـشاركة الحية على توتير، وشرعت في تحريرها وإعادة إذاعتها كتيار من الوعي الإنـساني عـلى حافـة

الثورة.

هذا البث غير المرخص إنما هو عرض من أعراض طي التكنولوجيا الرقمية الحديثة لعضلاتها. لقـد رأينا فعلاً بدايات صراع السلطة بين أولئك الذين يشنون حرباً من أجل الحريـة الـشاملة وأولئـك الذين يسعون إلى الـسيطرة، إن كـان ذلـك مـن قبـل الحكومـات أو إن كـان مـن قبـل التكـتلات الإعلامية. على سبيل المثال، يعتبر محرك البحث "جوجل" عملاً تجارياً أدى إلى إخلال التوازن بـين كل تلك القوى. في مقال للكاتـب الـصحفي هـنري بـورتر في مجلـة الأوبزيرفـر observer يـصف الكاتب هذا المحرك بأنه احتكـار عـالمي Worldwide monopoly، وكتـب في أبريـل عـام 2009 أن:"جوجل يمثل خطراً كبـيراً جـداً (أكـبر مـن أنـه شركـة احتكاريـة أخـرى في العـالم) عـلى الحيـاة المعيشية لكل فرد، بل وخطراً على مـستقبل المؤسـسات التجاريـة التـي تعـد ذات أهميـة كـبرى للمجتمع". وقد ذهب في قضيته تلك إلى أن الـصحف هـي الوسـيلة الوحيـدة لمحاسـبة المـدارس المحلية، والمستشفيات، والمجالس والشرطة، وعلى الصعيد الـوطني، فهـي تعتـبر ضروريـة للغايـة لحسن سير الديمقراطية.

ويبدو أن "بورتر" يشارك"روبرت موردوخ" Robert Morduch نفس وجهة النظر تلـك، رغم اختلاف الأسباب نوعاً ما. فمنذ مايو 2009 أوضح"موردوخ" أنـه توقـع بدايـة فـرض رسوم على الدخول إلى مواقع صحف الشركات الإخبارية على الشبكة. وفي شـهر أغـسطس ذكرت صحيفة "الجارديان" البريطانيـة أنـه "قـد أضـاف شريانـاً محـتملاً للحيـاة لـصناعه الصحف المكافحة من خلال تصريحاته بأن مؤلفاته سوف تفرض عليهـا رسـوم مـن خـلال شبكة الإنترنت". وفي بداية شهر نوفمبر من عام 2009 كان "موردوخ" قد كرر نفس عمليـة الهجوم، ولكن هذه المرة ذكـر شركـة جوجـل تحديـداً حيـث قـال :"أكـد روبـيرت مـوردوخ عزمه على أن تـدفع شـبكة الإنترنـت رسـوماً، ووعـد بإزالـة الروايـات الـصحفية مـن شركـة

جوجل". وبحلول شهر مارس من عام 2010، ثبت فعلاً أن قامت كل من مجلة التايم والـصنداي تايمز في بريطانيا بفرض الرسوم على المحتوى الشبكي بدءاً من يونيو عام 2009؛ فقـد أعلنتـا أن :" المستخدمين سـيدفعون جنيهـاً إسـترلينياً واحـداً عـن الاشـتراك اليـومي، وجنيهـين اثنـين للاشـتراك الأسبوعي حتى يمكنهم الدخول على موقع الصحيفتين". في بيان للرئيس التنفيذي لشبكة الأخبـار الدولية "ريبيكا بروكس" ذكرت أن صحيفتيها "الصن" **The Sun** و " نيوز أوف ورلد " **News of The World** ستتبعان نفس المسار".

في نفس الوقت، لا ينبغي أن نقلل من شأن رغبة الحكومات على أي صعيد كان - إن كان يخـص الولايات المتحدة بعد أحداث هجوم القاعدة في الحادي عشر مـن سـبتمبر، أو حالـة روسـيا بعـد حربها مع الشيشان، أو المملكة المتحدة أثنـاء حمـلات التفجـيرات مـن قبـل الجـيش الجمهـوري الأيرلندي - في ممارسة الرقابة على وسائل الإعلام والسيطرة عليها. فالسلطات الصينية مثلاً ظلت لفترة زمنية طويلة في نزاع مع شركة جوجل حول حرية ومجانية الدخول على شبكة الإنترنت مـن خلال محرك البحث "جوجل". فردت شركة جوجل بأنها لم تعد على استعداد للامتثال للمطالبـات بتـصفية محتـوى الـشبكة، مثـل المواقـع المؤيـدة للديمقراطيـة والتـي تقبـع خلـف مـا يطلـق عليه"برنامج الحماية العظيم للصين" **great firewall of China**. وقد هبطت أسهم جوجل إثـر ورود خبر عن سماح الشركة بانتهاء تـرخيص مـزود الخدمـة عـلى الـشبكة. مـن الـصعوبة بمكـان تحديد ما إذا كانت محاولات الصين لتنظـيم التكنولوجيـا الرقميـة سـتنجو مـن رغبـة الـسكان في مراوغة مثل تلك الضوابط.

رغـم ذلـك ففـي خـضم كـل التغطيـات الإعلاميـة للمعركـة بـين أشـكال الإعـلام الجديـدة والمـصالح الشخـصية الـوافرة، أشـار القليـل مـن الملاحظـين إلى التـاريخ الطويـل"لـصحافة المـواطن" **citizen Journalism** التـي يرجـع تاريخهـا إلى

القرن الثامن عشر عندما كانت الصحافة تعول في الغالب على الأفراد من العامة كجـامعي أخبـار news gatherers. هؤلاء "الصحفيون المواطنون" كانوا في طليعة من أثروا التطورات الجديدة في الإعلام سواءً في الصحافة ببريطانيا العظمى في الربع الأول من القرن التاسع عشر أو على المستوى الدولي من خلال العمل كمراسلين أجانب بالإبلاغ عن الأحداث الهامة في غيبة المراسلين المحترفين الذين يحصلون على مبالغ مالية مقابل العمل. مثل هؤلاء الرواد كـانوا يعـون ويقـدرون المهـارة والشجاعة اللتين يتحلى بهما التابعون لهم في نقل ويلات النظم الاستبدادية في جميع أنحاء العالم في القرن الحادي والعشرون.

لا يعول مذهب المساواة egalitarianism على الأحداث المزلزلة فقط لكي يعبر عن نفسه، ومع ذلك فمؤسسة "أوهمينيوز" OhmyNews على سـبيل المثـال تعتـبر وكالـة إخباريـة عـلى شـبكة الإنترنت – تتبع كوريا الجنوبية – دائماً ما تحقـق أعـمالاً إعلاميـة ضـخمه، ولـذلك فهـي تـستعين بعدد يتراوح ما بين 25 ألف إلى 40 ألف صحفي من المواطنين أنحاء العالم (وهذا العـدد يتبـاين دائماً) وتدفع أجوراً لهم ربما قدره خمسة عشر دولاراً للرواية الواحدة. وبالرغم من سـماحها لأي فرد بأن يساهم في العمل إلا أنها تسعى إلى الحد من إنتاجهـا مـن خـلال تطبيـق بعـض المعـايير الصحفية "التقليدية " على كل نسخة يـتم إرسـالها للمؤسـسة. إذاً فمـن الواضـح أن ثمـة معـايير صحفية متفقاً عليها يتم تطبيقها في هذا الشأن، لكن حجم وأماكن توصيل وبث المـواد الإخباريـة هي التي تغيرت، وليس المفهوم في حـد ذاتـه. أحـد الموضـوعات التـي سـنقوم بدراسـتها في هـذا الكتاب هو: كيف حدث مثل هذا التغيير، ولماذا؟

ظلت تلك المخاوف – التي لا تزال جلية في حالات الجـدل التـي تـتم عـبر الإنترنـت وعبر المنابر الإخبارية الحديثة مثل البودكاست والمدونات و تويتر وغيرهـا في واقـع الأمر الموضوع الأساسي لجدال موسـع خـلال موضـوعات تاريخيـة متقلبـة وتنـازع

عليها في مجال مثل جميع الأخبـار والعلاقـات مـع المـصادر والقـراء، والاقتـصاد الـسياسي لإنتـاج الأخبار ومؤسساتها، وتعريف الصحافة، وقيمها وأخلاقياتها والهويـة المهنيـة. بمعنـى آخـر، هنـاك ثوابت معيـنة وموضوعات مستمرة إن مفاد كل تلك المقارنات التاريخية ليس عـدم الإقـلال مـن أهمية القضايا المعاصرة في الصحافة. بل تذكيرنا باستمرارية تـراث وسـائل الإعـلام في وقـت ينمـو فيه المحللون نحو التهويل من أهمية وانفراد الأحداث الجارية. يمكن أن نتعلم من المـاضي حتـى نستطيع أن نستشرف المستقبل.

ولكن لكي نستطيع أن نقوم بذلك فعلاً، فلابد من فهم السياق الحالي. إن الحياة المهنيـة دائمـاً مـا تكون باللحظة الحالية مع وجود فترة زمنيـة قليلـة لتأمـل واختبـار الـسياقات التاريخيـة أو غـير التاريخية والصحفيون يعون تماماً أنهم معرضون لاتهـامهم بالتـدخل والمـشاركة عنـد اتخـاذ قـرار مثير للجدل أثناء القيام بعمليـة وضـع الروايـة في سـياقها الـصحيح. لـذلك فـإن محاولـة العـرض بطريقة آمنة من خلال نقل ترسانة هائلة من الحقائق (غالباً يتم تلك المحاولة يجعل الرواية أقل تشويقاً، وبالحد من قوتها السياسية، وخلط الأمور على الجماهير المحتملـة) أمـر منتـشر للغايـة. من ناحية أخرى قد يضع الكتاب الحزبيون رواياتهـم في سـياق يـسعـون مـن خلالـه إلى "إيجـاد قاسم مـشترك بـين تلـك الروايـات"، وخـلال تلـك العمليـة، يعمـدون إلى عـزل "المحايـدين" مـن الجمهور.

رغم ذلك فإن "القاسم المشترك" الذي أتاحه التـاريخ لـيس ترياقـاً بمعنـى الكلمـة. تـذكر "ناتـالي فينتون" Natalie Fenton الأخصائية الإعلامية أنـه:" لا يعـد أمـراً ملائمـاً أن نـتعلم دروسـاً مـن الماضي إذا ما تم ذلك بأسلوب عـشوائي دون أن نـضع في اعتبارنـا المكونـات الأساسـية الـصحيحة للوضع الـراهن." هـذا بالـضبط هـو الـسبب الـذي يجعـل تلـك الدراسـة انتقائيـة، وترتكـز عـلى الموضوعات وليس مجرد تأريخ متكامل وشـامل للـصحافة. فخـلال تلـك الموضـوعات، نهـدف إلى

تقديم وعرض- بصورة محايدة بقدر الإمكان – مجموعة من التفسيرات. ومن ذلك، فثمـة بعـض الفجوات. يستهدف تاريخنا بصورة حصرية تقريباً المشكلات الملموسة المعاصرة في العالم الغربي.

إحدى تلك المشكلات تـتجسد في الاعتقاد بأن التطـورات الأخـيرة في أجهزة الإعلام تعزز القـدرات العقلية لجماعة معينة- وليس تطوير أفكار المجتمـع ذاتـه – سـواءً كـان ذلـك تمـثيلاً في مطـاردة المصورين للمشاهير أو التكرار المستمر لنفس الروايات الإخبارية عبر القنوات الإخبارية بالإذاعـة والتليفزيون. إن فكرة الصحفي الأوحد المقدام والباحث الذي أصبح بطلاً متفرداً لم تعد موجـودة الآن. وهذا ما أقره قطب العلاقات العامة البريطانية "ماكس كليفورد" الذي يزعم أنه عندما بـدأ ممارسة مهنته، كانت العلاقات العامة ترتكز على عمليات الترقية، أما الآن فإن معظـم ممارسـاته العلمية تدور حول حماية المـشاهير مـن ملاحقـة الوسـط الإعلامـي، أو مـن " الـوحش الـشرس" حسب المفهوم الذي صاغه "توني بلير" عندما كان رئيساً للوزراء. يعتبر "كليفورد" الناس في هـذه الأيام يتميزون " بالبطء الشديد في المدح والتشوق الشديد للتخريب"، في حين يزعم "توني بلـير" أنه عبر التغطية الإعلامية للسياسة – أصبح الهجـوم عـلى دوافـع رجـال الـسياسة أكـثر قـوة مـن الهجوم على أحكامهم وقراراتهم.

أن خطورة الآراء المتصلبة – مـن أي منظـور كانـت – هـو توجهها نحـو حجـب القـضايا التاريخيـة الكبرى والتعتيم عليها. في واقع الأمـر، هنـاك طريقتـان متعارضـتان لتفـسير أو تأويل تاريخ الصحافة لا بد من العمل على تحاشـيها؛ سـيناريوهات " الكآبـة والتـشاؤم" gloom and doom من ناحية، و"مسيرة التقدم" الحتمية التي تمثلها حريـات الـصحافة المتواصلة وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة من ناحية أخـرى. يـشير المؤرخـون البريطـانيون إلى تكنولوجيا الاتصالات الحديثة بأنها "التفسير اليميني لتـاريخ الـصحافة " The Whig

interpretation of press history . ومع ذلك يبدو كل من حتمية مسيرة التقدم وتكنولوجيـا الاتصالات الجديـدة وجهين لعملـة واحـدة. يعتقـد بعـض الملاحظـين في هـذا المجـال أن البــنية الصحفية الحديثة عملت على تعزيز نوع من مقاومة التغيير – أو التوجه المحافظ – وهي توجـه خطير (كما في حالة التعديل الأول للدستور، وهو تعديل وقائي في الولايات المتحدة) وهو أمـر لم يك مقصوداً. يذكر الصحفي الأمريكي الـشهير "وان جيلمـور" أنـه:" لا يـؤمن بـأن التعـديل الأول الذي يعطي الصحافيين مساحة ثمينة للبحث والنشر قد تم صياغته مع وضـع مكاسـب الـشركات في الاعتبار. إن الوضع تعلق إلى درجة كبيرة". في بريطانياً، أظهرت وسائل الإعلام التجارية غـضبها لفترة طويلة مما كانت تعتبره مبدأ"خدمة البث الإذاعي العام" المحافظ والذي يتميز بكونه مبدأ قوياً ظلت الإذاعة البريطانية تمثله لفترة طويلة.

رغم ذلك، ليس ثمة شك في أن التغيرات التكنولوجية الحثيثة في هذه الأيام يمكـن أن ينظـر إليهـا على أنها حلقة متواصلة بين التوجهات الاجتماعية الاقتصادية التي يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر رغم الاختلافات القائمة بشأن الحجم والشخصية وبؤرة الاهتمام. لقـد لاحـظ العلـماء كيـف استطاعت وسائل الاتصال التكنولوجيا القديمـة – مثـل الـسكك الحديديـة والتلغـراف والتليفـون والإذاعة والتلفزيـون – أن تغـير تـصور الحـدود العالميـة والمـسافة والـزمن والقـضاء. أمـا شـبكة الإنترنت وشبكة المعلومات الدولية- كتقنيات أكثر حداثة وسط وسائل الاتصال الحالي- ربما تثبـت أنها أكثر أهمية وفاعلية. وهذا قد يثير تـساؤلين مـن الأهميـة؛ التـساؤل الأول هـو: كيـف تغـير شبكة الإنترنت تصور الناس كمستهلكين للإعلام، والتساؤل الثاني هو: ما هي الآثار التي تعود على الصحفيين كمستخدمين ومستهلكين؟

في اعتقادنـــا أن الإجابـــات عـــن هـــذين التـــساؤلـين يمكـــن الوصـــول إليهـــا،على الأقـــل

بصورة جزئية خـلال عمليـة تقـدير واعيـة للوظـائف والمهـام الثقافيـة والاقتـصادية والـسياسية للصحافة، والتي برزت خلال العصور التكنولوجية الماضية، وحتى إن ظهرت الآن كعرضه للتهديـد والخطر. فينقـدها لـدور أجهـزة الإعـلام الأمريكيـة في تخريـب الديمقراطيـة، وفي الالتفـاف عـلى الانتخابات وبيع الحروب (وهي العبارة التي اسـتخدماها في نقـدهما) يوضـح كـل "ماكـشيني" Me Chinseg و"نيكـولز" Nichols أن بعـض المـشكلات المزمنـة التـي تنتـشر عـبر الـصحافة السياسية تعود إلى السيطرة التجارية والرمـوز المهنيـة التـي نـشأت منـذ مائـة عـام. لـذلك فـإن الدراسة الوافية للتاريخ لا بد أن توفر لنا أفكاراً وآراءً حول وضعنا الراهن، كما تتيح لنا مخرجـاً". على ما يبدو أن التاريخ يمكن أن يعيننا نوعاً ما على أن نضع بؤرة اهتمامنا الحلـول، بالإضـافة إلى المشكلات.

إحدى تلك المشكلات (أو القضايا) في المناخ الإعلامي الحالي هـي الـمحنة التـي تتعـرض لهـا الصحف التقليدية على الـصعيدين المحـلي والعلمـي. فتلـك الـصحف تواجـه تحـديات مـن الإذاعات المحلية والعالمية المنتشرة، ومن القنوات التليفزيون التـي تبـث إرسـالها عـلى مـدى أربع وعشرين ساعة يومياً، والصحف المجانية (التي تـوحي للقـارئ بأنهـا صـحف لا تخـضع لأية تكلفـة)،والأخبـار التـي يـتم بثهـا عـن طريـق الإنــترنت، واللوحـات الإعلانيـة، وأجهـزة المحمول. وفي نفس الوقت، تتغير مصادر الدخل جراء هجرة أصـحاب الإعلانـات نحـو شـبكة الإنترنت والشركات التنافسية مثـل" إيبـاي" eBay و"كربحزليـست" craigslist.لهـذا قـررت صناعة الطباعة" الأخذ بالثأر" وذلك بجذب القراء من خلال عرض الهـدايا المجانيـة وأقـراص الفيـديو المـضغوطة.تـذكر إحـدى الـصحف البريطانيـة اليوميـة أن :" عـصر البودكاسـتبس والمدونات الخاصة بمناطق الحروب بالإضافة إلى مصادر المعلومات الشبكية التي لا حصر لهـا يظهر الصحف. في تحدياتها الكبرى.

هـــل يعـــد ذلـــك مثـــالاً آخـــر عـــلى الباعـــث التقليـــدي للاكتئـــاب الـــذي دائمـــاً مـــا

يـصطحب كـل تغيـير جـوهري في مجـال الإعـلام؟ أم أن الاضـطراب الحـالي- وهـو مـستنقع الاضطرابات الرقمية – يختلف تماماً عـن أيـة ثـورة تكنولوجيـة سـابقة؟ يـوحي التـاريخ بـأن المنابر الإعلامية قد أعادت – بانتظام – رسم أهدافها وأسس التعامـل مـع مـستخدميها كلـما برزت أشكال جديدة من التكنولوجيا. لكن، ما الذي يجعل بروز المنابر الشبكية تحـدياً قويـاً ؟ هل هو عملهـا كوسـيلة إعلاميـة منافـسة ووسـيلة للاسـتمرار في العمـل الـصحفي بـصورة جديدة في آن واحد؟

تعمل الصحف دائماً على تحديث نفسها حتى تتمتع بقبول قدر أكبر مـن الجمهـور الـذي "تـربي" على الوصول إلى المعلومـات بأسـلوب إلكـتروني. ومـع ذلـك فـلا نبغـي علينـا أن تغـالي في أزمـة الصحف. ففي عام 2006 – حسب تقريـر "جـافق أوريـلي" Gaven O`Reilly رئـيس الجمعيـة العالمية للصحف – لا يزال حوالي 439 مليون فرد يشترون الصحف يومياً، بمعد زيادة حـوالي 6% عن فترة السنوات الخمس الماضية. لا تزال الصحف ففي الوسيلة الإعلانيـة الثانيـة عـلى مـستوى العالم، وهي تشارك في السوق بمعدل 30.2% من قيمة المشاركة. وفي العام التالي استطاعت نفـس المؤسسة – وهي إحدى المؤسسات التي تتمتع بمصلحة خاصة في بيع الصور والتربح من الأسـواق الواعدة في كل من الصين والهند – أن تلحظ أن الصحف مدفوعة الأجر قد تجاوزت إحدى عـشرة ألف نسخة لأول مرة في التاريخ، وأن توزيع الصحف اليومية المجانية تضاعف بـصورة أكـبر عـلى مدى خمس سنوات حتى بلغ 4.8 مليون نسخة يومياً.

رغم ذلك فإن مثل تلك الإحـصاءات المحفـزة لا يمكـن أن تخفـي مـرارة عمليـات التغيير والتحول إذ أن تكنولوجيـا المعلومـات الجديـدة غالبـاً مـا تـساعد عـلى لا مركزية السلطة، أو على الأقل تـساعد في تغيـير مركـز "الجـذب"، وتلـك الحقيقـة لا يمكن أن يعترف بها الذين تأثروا بها تأثيراً سـلبياً بـسهولة. عـلى سـبيل المثـال،

أثناء أواخر العشرينيات وبدايات الثلاثينيات من القرن الماضي ارتأى محررو الصحافة المطبوعة أن أحد أدوارهم يتمثل في إتاحة الأخبار للإذاعة كوسيلة إعلامية جديدة. ففي الولايات المتحدة الأمريكية، قام الإعلاميون بشراء مواد محطات الإذاعة، كما أقاموا أيضاً محطاتهم الخاصة وبثوا أخبارهم، ومع ذلك فقد قام أولئك الذين لم يتخيروا هذا المسلك بتصوير ابتكار كتابة التقارير الإذاعية الجديدة كعمل يشكل خطورة على الديمقراطية وعلى أسلوب الأمريكيين في الحياة والمعيشة. وفي بريطانيا، عقدت اتفاقيات مع هيئة الإذاعة البريطانية" الوليدة" تقر بألا يتم بث الأخبار قبل الساعة السادسة مساءً، وبذلك تحتفظ الصحافة بهيمنتها على أجندة الأخبار اليومية. وقد أتاح ذلك للصحفيين في كلتي الدولتين الفرصة ليظهروا أنفسهم كمؤيدين ومدافعين حقيقيين وموثوق بهم عن الصالح العام.

التاريخ كخبر ... والخبر كتاريخ

غالباً ما توفر التغطية الصحفية الجيدة" المسودة" الأولى من التاريخ من خلال مساعدة العامة على فهم معاني الأحداث كما تكشف عنها:" فالصحافة لا تزال تمثل المرآة الذكية للأحداث حتى لو مر على الحدث عشر سنوات أو عشرون أو خمسون ". يذكر الصحفي "جون بيلجر" الحائز على العديد من الجوائز ما قاله " ت. د. أليمان" في هذا الصدد لكي يذكرنا بأنه إذا ما نبذت الصحافة دورها كأول مسودة للتاريخ، فإنها بذلك: " تروج بصورة مباشرة وبالأساس لنوع من الإمبريالية التي يصعب التعبير عنت نواياها. فطلاً عن ذلك، تفرغ الاصطلاحات النبيلة مثل (الديمقراطية) و(الحرية) و(التحرير)من معانيها الحقيقية، وتضغط تلك المعاني لا شيء إلا لكي تعمل على خدمة الاستعمار". لذلك- كما يذكر " بيلجر" - في السبعينيات من القرن الماضي، أتاحت أجهزة الإعلام من خلال لجوئها للصمت - للولايات المتحدة تسليح

الدكتاتورية الإندونيسية لتنفيذ مذابح لحركة تيمور الـشرقية، ثـم تـشرع في دعـم المجاهـدين في أفغانستان سراً، وهو ما تمخض عن ظهور طالبان والقاعدة.

تلك هي إحدى الطرق التي تجعل الصحافة تـسير في إطـار عمليـة التحـول عـن صـفتها الـسابقة كجهاز إعلامي جماهـيري مـرتبط بـالقرن العـشرين. إن النمـوذج أحـادي الاتـصال - أي الأخبـار كطرح يشارك فيه الجمهور ويتحدد في إطار صفحات الرسـائل والخطابـات في الجرائـد وهـو أمـر يتجاهله كل من التليفزيون والإذاعـة - يتحـول إلى خطـاب أكـثر شـمولية، وهـذا الخطـاب كـان يعترف في بادي الأمر بوجود الجمهور، أما الآن فإنه يسعى وراء هذا الجمهور وغالباً ما يستجيب له بصورة فاعلة. وحتى العامة من الناس الذين بم يك لهم صوت يسمع،أصبحوا الآن يرون أذاناً صاغية. ومرة أخرى، يتم إجبار اللاعبين الكبـار عـلى التـأقلم، وتلـك العمليـة - التـي بهـا يحتكـر أصحاب المدونات الإخبارية الكـبرى مثـل مرونـة " إنـستابويت" **Instapundit** لـصاحبها "جلـين رينولدز" ومواقع تجمع الأخبار مثل "أخبار برودج" كماً كبيراً من النفوذ - لابد أن تفهم.

عندما انضمت كتائب جنود المشاة إلى صفوف الصحافيين، أصبحت مثل تلك القضايا أكثر إلحاحاً. فطبقاً لما ذكر" برايان ماكنير" أن :" الصفات التي ظلت مرتبطة بالصحافة الجيدة لعـدة قـرون - وهـي الموضـوعية والمهـارة التحليليـة والقـدرة عـلى الـشرح والتفـسير والتكامـل في التحقيقـات الصحفية والبحث والشجاعة في مواجهة ضـغوط النخبـة - كلهـا سـوف تـزداد قيمـة إذ أن عـدد الكتاب يزداد ليصل إلى عدة ملايين". ومع ذلك فهناك العديد من المواقف الساخرة من مثل تلك النظرات التنبؤية، وهو ما قد نجده لدى " بيلجر"، خاصة عندما ذكر - بنبرة حزن واضـحة - أنـه :" مع تقدم تكنولوجيا وسائل الإعـلام تقـدماً يفـوق الخيـال فلـن تكـون الـصحافة هـي الوسـيلة الإعلامية التقليدية الوحيدة التي عفا عليها الزمن، بل ستكون تقليدها الموقرة كذلك".

الطرق والوسائل

في أحد الكتب المختصرة نوعاً ما – مثل هذا الكتاب – أعلنا رفضا لأسلوب "العام الواحـد" الـذي ذكر في دراسة أمريكية أجراها "جوزيف كاميل " بعنوان " العام الذي أوضح الصحافة الأمريكيـة : 1897 وصراع النماذج". في هذه الدراسة يفحص " كامبك" 12 شهراً استثنائياً في تاريخ الصحافة، ويزعم أنه كان ثمة صراع "نماذج" Paradigms بين نظرية "ويليام راندولف هارست" المـسماة " صحافة الفعل" Journalism of action، وهي صحافة تقوم عـلى الحقـائق وقـد مارسـها فعلياً "أوولف أوكس"، والتجارب التي أجراها "لتكولن سـيفنس" في الـصحافة الأدبيـة. في حـين يتمتـع مثل هذا الأسلوب بالكثير من الصفات التي تستحق الثناء، إلا أننا قد اخترنا رؤية أوسع بحيث لا تقيدها التواريخ ولا الدول، وفي حـين أيـضاً أننـا نـصنع في حـسباننا كـلاً مـن التوقيـت والـسياق. بالإضافة إلى ذلك، بالنسبة لتاريخ الصحافة الأمريكية.

هناك أيضاً بعض السنوات الأخرى التي يمكـن البـت فيهـا، وهــي عـام 1798 (قـوانين التغريـب والتحـريض عـلى الفنيـة، وعـام 1833 (ظهـور صـحافة القـرش الواحـد)، وعـام 1972 (عـرض الواشنطن بوست لفضيحة ووتر جيت) ستظهر كل تلك الأحداث في الصفحات التالية ولكن مـن وجهة نظر خاصة بأهميتها في مجـال الـصحافة والمجتمـع في الوقـت الحـالي، ولـيس مـن منظـور أهميتهـا في سـياق حـدوثها في أعـوام معينـة. ولقـد كـان تركيزنـا أساسـاً عـلى التـاريخ الأمـريكي والبريطاني، وعلى التـاريخ الفرنـسي أيـضاً في بعـض الحـالات، وعقـدنا مقارنـات بـين سلـسلة مـن الأحداث والخبرات والتجارب كوسيلة لتعزيز بعض الرؤى التاريخية.

هذا التوليف الذي نشأ عن جمع المصادر الأولية والثانوية قد أدى إلى نـشوء مـدخل تكنولـوجي مبتكر. كما أن طريقة المقارنة جعلت هذا المدخل مدخلاً انتقائياً. وربما سـيجد القـارئ أن هنـاك بعض عمليات الحذف، ولكن إذا كان لمثل هذا الكتاب أن يتيح فهماً أفضل وتقديراً أكـبر للعلاقـة التاريخية الراهنة بين الصحافة والمجتمع، إذاً فإنه بذلك يكون قد حقق الهدف المنشود.

الباب الأول

الصحافة والديموقراطية :

تنافس الأشقاء

"لكن ... تلك هي طبيعة الحقيقة التي تتسم بالمقاومة ... إذ أقصى ما تنشده وتبغيه ... إنما هو
أن تتجلى في حرية تامة ..."

(توماس باين : حقوق الإنسان)

الفصل الأول

حق المعرفة

يرتبط تطور ثقافة الأخبار ارتباطاً وثيقاً بتطور المجتمعات الديمقراطية. فلو كانت الديمقراطية، حسب قول "أبراهام لنكولن" هي :" حكم الشعب بالشعب وللشعب"، إذاً فإن الصحافة في أفضل الأحوال إنما تظهر نفس النزعة التعددية. في واقع الأمر، ثمة مزاوجة طويلة المدى بين كل من الصحافة والديمقراطية، وهي مزاوجة أطول بكثير من تلك التي توجد بين الصحافة وبين التوجه التجاري لأجهزة الإعلام من أجل الحصول على الربح. ومع ذلك فإن الأولوية التجارية للإعلام تتبوأ المكانة العليا في القرن الحادي والعشرين. في الماضي، كان تقديم "مجموعات متنوعة" من الروايات والمعلومات أمراً محفزاً لفعاليات الديمقراطية، لكن في نهاية القرن الماضي كان الصحفيون والمحررون يعمدون إلى تحديد الأخبار في إطار سياق تجاري إما للحفاظ على مستوى الدخل أو لزيادته وذلك إما عمداً أو حسب ما تفرضه الظروف. إذاً فقد أصبحت الأخبار عبارة عن عملية تجارية. سنقوم بعرض العملية التي تم من خلالها تحويل الخبر إلى عملية تجارية بالتفصيل في الباب الثاني، أما في الباب الأول - الذي نحن بصدده الآن - فسندرس آثار ذلك على الديمقراطية.

من على حق، ومن الذي يعرف ؟

"سوف اقدم استقالتي من منصب الرئاسة بالفعل ظهر الغد. وسوف يؤدي فورد - نائب الرئيس - اليمين القانونية كرئيس في نفس الوقت وفي هذا المكتب". هذه الكلمات قيلت في الثامن من أغسطس عام 1974 ووضعت نهاية لسلسلة من

الأحداث الأكثر غرابة في تاريخ أمريكا إذ أن الرئيس "نيكسون" كان الرئيس الوحيد الذي يستقيل من منصبه. كانت فضيحة ووترجيت - كما عرفت بهذا الاسم - مثالاً على الصحافة الراقية التي تنبع من الدوافع الأكثر نقاء التي يتمتع بها أناس لا ريب في نزاهتهم. بالطبع لم يوافق "ريتشارد نيكسون" على هذه المقولة.

لكن ما مدى أهمية الصحفيين التابعين لصحيفة الواشنطن بوست - "بوب وودورد" و "كارل بيرنشتاين" - في كل أحداث القصة الكاملة لقضية ووترجيت ؟ وما مدى أهمية الصحافة في هذه القصة ؟ إن التاريخ عبارة عن مائدة أو مأدبة منتقلة تنتقل من مكان لآخر، ولكن بعد 35 عاماً يمكن أن يكون قد أصدر حكمه الأخير. ولنأخذ على ذلك العديد من الأمثلة. فعلى إحدى صفحات موسوعة "ويكيبيديا" على شبكة الإنترنت موضوع عن فضيحة ووترجيت يضم حوالي 7500 كلمة. وقد تمت الإشارة إلى كل من "وودورد" و"بيرنشتاين" بكلمات موجزة داخل النص الأصلي رغم الشهرة الكبيرة التي نالاها في أعقاب الكشف عن الفضيحة. إذاً، هل نحن على حق في أن نزعم أن ذلك مثال بين اتخاذ الصحافة القيم الأخلاقية كقيمة عليا فعملت على إنقاذ الديمقراطية التي تعامل بها الرئيس باحتقار شديد، وإنقاذ شعب تعاملت معه النخبة الحاكمة بازدراء ؟ هل أمر حتمي أن إيماننا بفرد دائماً ما يكون على حساب إيماننا بآخر؟

بعد ذلك بحوالي عشرين عاماً، في 20 أكتوبر عام 1994، نشرت صحيفة الجارديان البريطانية مقالاً في الصفحة الأولى كتبه مراسل الصحيفة في "ويستمنستر" زعم فيه أن إحدى الشركات ذات النفوذ - وهي شركة "شركاء إيان جرير" - قد دفعت لاثنين من النواب المحافظين مبلغ 2000 جنيه إسترليني دفعة واحدة لعرض استجوابات برلمانية نيابة عن "محمد الفايد" صاحب سلسلة

محلات "هارودز" في "كينجتسبريدج" بالعاصمة لندن. هذه كانت المرة الأولى التي تدخل فيها أسماء النائبين "تيم سميث" و "نيل هاميلتون" مجال الرأي العام. وعلى الفور، قدم "سميث" كوزير لأيرلندا الشمالية استقالته، وهذا ما أثار شكوكاً أدت إلى تكهنات بأن مثل تلك الادعاءات حقيقية. لكن "هاميلتون" و "جرير" خدما صحيفة الجارديان من خلال وجود بعض الوثائق التي أدت إلى التشهير بهما. فالأحداث التي تلت ذلك أدت إلى خسارة "نيل هاميلتون" – وكان وزيراً مفوضاً بوزارة التجارة والصناعة – لمقعده "بتاتون" في "شيشاير" لصالح الصحفي "مارتن بيل". واعتقد العديد من المعلقين السياسيين أن "الأموال التي دفعت من أجل الاستجوابات"، والتي ذاع صيتها على مدى واسع، كانت سبباً أساسياً ليس لسقوط "نيل هاميلتون" وحده، بل أيضاً كانت سبباً لسقوط حكومة "جون ميجور" المحافظة، وهو ما أدى إلى انتخاب "توني بلير" وسيطرة حزب العمال الجدد في عام 1997.

كانت التغطية الإعلامية في بريطانيا تتجه نحو اتباع خط صحيفة الجاريان. لكن "نيل هاميلتون" كان دائماً ما ينكر كل الادعاءات التي ذكرها المقال المنشور في صحيفة الجارديان بالإضافة إلى جميع الروايات الأخرى. لقد أجرى "السير جوردون داوني" المفوض البرلماني للمعايير تحقيقاً رسمياً أظهر أن نشر صحيفة الجارديان لتلك الأحداث كان مبرراً. فقد ووجد "داوني" أن هناك أدلة دافعة على أن "نيل هاميلتون" تلقى مبالغ مالية كبيرة "داخل مظروف". عند هذا الحد كان يمكن للأحداث أن تتوقف لولا البحث الدءوب والاستفسارات التي قام بها اثنان من الصحفيين المستقلين، وهما "جوناتان بويد هنت" و "مالكولم كيثهيل". كان "هنت" مراسلاً سابقاً للبرنامج الإخباري "غرناطة اليوم" بالتليفزيون الإقليمي، وكان "كيث – هيل" صحفياً مخضرماً يعمل بقسم التحقيقات. وكان كلاهما قد انضما إلى جماعة تعد لإنتاج برنامج تليفزيوني وتألقي – لم تتم إذاعة – عن "المال المدفوع للاستجوابات"، وكان عنوان

البرنامج "من فندق ريتز إلى الوثائق الرسمية" From Ritz to Writs.

أدت النتائج التي توصل إليها تقرير "داوني"- وهي تختلف تماماً عن نتائج بحث "هنت" و"كيث رهيل" الوثائقي – إلى مواصلة هذين الصحفيين لبحث المسألة بالمزيد من النشاط. لقد كان لديهما قناعة تامة بأن هذه القصة بكاملها إنما هي مجرد قصة ملفقة، وأنه لم يكن هناك أي "نقد أو مال" مدفوع، وأن كلاً من "تيم سميث" و"نيل هاميلتون" و" إيان جرير" أبرياء من كل تلك الاتهامات. بل ذهب الصحفيان الى ما هو أبعد من ذلك فزعما أن صحفية الجارديان وضعت كلاً من "نيل هاميلتون" في إطار التعاون مع الفايد بقصد التلفيق وأنه:" عندما رفعت إحدى جماعات الضغط القوية مع أحد النواب دعوى قضائية ضد صحيفة الجارديان يتهمانها بالقذف، وهي قضية لم يكن مؤمناً عليها، شرع المحررون الصحفيون والمحامون العاملون في الصحيفة بنشر العديد من التغطيات الصحفية التهكمية والساخرة.

رغم ذلك فإن "هنت" و" كيث- هيل" لم يتمكنا من نشر روايتهما لا في الصحافة ولا في أي مكان آخر. وليتحديا هذا الموقف، ألف" هنت" كتاباً حول هذه المسألة بعنوان التآمر على محاكمةTrial by Conspiracy،ثم أسس الموقع الشبكي www.guardianlies.com كوسيلة لنشر تحقيقاته هو و" كيث-هيل". بذلك أصبحت شبكة المعلومات الدولية منفذاً معبراً بصدق عن نوع من الصحافة الاستقصائية التي لم تكن قط لترى النور لولا هذا الموقع. لقد ذكر هذان الصحفيان أن :" هذا الموقع هو أول موقع من نوعه في العالم دون أدنى شك. ولقد تأسس خصيصاً لإزاحة التعتيم الإعلامي المفروض على الأخبار من قبل أجهزة الإعلام البريطانية التي كانت تضطلع بالتحقيق في القضية.

هل من هذه الرواية نستطيع أن نزعم أن شبكة الإنترنت تعتبر الآن منفذاً إعلامياً يسحق الاحترام والثقة في حد ذاتها وليس لأنها الملاذ الأخير لعشاق

"السايبر" (الشبكة)، أو لمحبي النميمة أو للمجاني ؟ هل ينبغي علينا أن نتقبلها كمنتدى شرعي للصحافة الاستقصائيةinvestigative journalism وكأحد المنتديات التي تتيح لنا مساراً تصحيحياً محملاً للسلطة الواسعة التي تتمتع بها التكتلات الإعلامية الحديثة ؟ لا شك أن شبكة الإنترنت أصبحت ذات أهمية قصوى ومتزايدة بالنسبة للمؤسسات الإعلامية. فهيئة الإذاعة البريطانية BBC على سبيل المثال تستخدم عدداً من العاملين بموقعها الشبكي يفوق عدد العاملين في إعداد البرامج الإخبارية بها. ومع ذلك فإذا ما كان لنا أن نمنح الثقة لشبكة الإنترنت، فلابد من التمييز بين الموقع الشرعي والموقع المخادع. لا يتمثل هذا الأمر مشكلة بالنسبة للمواقع التابعة للمؤسسات الصحفية المعروفة، ولكنه يعتبر كذلك بالنسبة للمواقع المستقلة والمدونات المستحدثة، وفي هذه الحالة الأخيرة تبدو الثقة والحقيقة أمراً بالغ الأهمية. وبالنسبة للصحفي الذي يمتلك رواية ويسعى إلى نشرها ولا يجد أي مكان للنشر، فإن شبكة الإنترنت تعتبر هدية كبرى، ومع ذلك فعليه أن يتغلب على السخرية التي جبل عليها البشر، خاصة عندما تعرض مثل تلك السخرية بصورة مفاجئة أو بصورة لا يمكن عرضها خلال الصحافة العادية.

إذاً ما هو المبرر الذي جعل إحدى تلك الروايات اثنين من الصحفيين معنيين بتأليف كتاب "كل رجال الرئيس" All The President's Men وينتجان فيلماً من حسابها الخاص،في حين لم يستطع صحفيان آخران من سرد رواية أخرى ونشرها إلى عن طريق شبكة الإنترنت؟ علام ينم هذا بشأن حالة ديمقراطيا، أو بالأخرى حالة صحافتنا خاصة في هذه المسألة؟ سوف نسعى في هذا الفصل إلى أن نضع تلك القضايا في إطار منظور يهتم بكل من الواقعية التاريخية historical Factuality وحتميات التغيير الصحفي changing Journalistic imperatives.

إن الدافع وراء مثل هذه الروايات هو نفسه؛ دائماً " يشعر الصحفيون بأن الجماهير لها "حق المعرفة"، وأن الرواية هي في مصلحة الجمهور ولا تهمه فقط. ولكن ما يعد أكثر أهمية بكثير هو المبدأ الأساس الذي يظهر أن الصحفيين عليهم واجبات تجاه الجمهور. فطبقاً لميثاق الواجب الصحفي الإيطالي مثلاً :" يسمو مسئوليه الصحفي تجاه الجمهور فوق أي شيء آخر". تشتمل هذه المسئولية على جذب انتباه الجمهور نحو القضايا الأحداث والمواقف والأشخاص وكل ما يستحق الاهتمام بالإضافة إلى توفير المعلومات اللازمة لهم لإصدار أحكام صادقة حول حقوقهم وواجباتهم كمواطنين. فالصحفيون يوفرون المعلومات للرأي العام من خلال التقارير والتفسير وإتاحة خلفية معلوماتية، بل وإتاحة السياق أيضاً. كما أن الصحفيين يقومون على خدمة الديمقراطية بتوضيح وبيان" ما الذي يحدث، وما هي الخيارات المتوفرة، وما هي النتائج المتاحة الناجمة عن أحداث أو أفعال معينة، وما هي الخيارات التي قد يلجأ إليها قادة هذا الجمهور؟"

بالطبع لم يكن مقدرا للصحفيين أن يفترض أن يكونا هم الجهة التي توفر مثل تلك الأخبار السياسية والتعليقات الصحفية. فالصحف التي كانت تصدر في العهود الأولي- والتي كانت تعرف (بالكتب الجديدة)أو corantos أو courants- كانت تشتمل على القليل جداً من الأخبار. ومع ذلك فقد رافق تطور الكتب الإخبارية news books وصفحات الأخبار في بريطانيا في القرن السابع عشر زيادة ملحوظة في " الاستخبارات " intelligence السياسية أو الأخبار ... هذا ما حققه أناس كان يدفع لهم ثمن عملهم وهو ما أصبح يعرف باسم الصحافة، وذلك بعد أن قامت الجريدة أو الصحيفة اليومية ينشر كتاباتهم. ودخلت كلمة" صحفي" في اللغة لأول مرة في نهاية القرن السابع عشر. وبذلك فإن الدور التاريخي للصحافة كدور داعم للديمقراطية يرتكز على الاستمرارية التي ظلت تلك المهنة تسعى إلى الحفاظ عليها على مدى ثلاثمائة عام.

ثمة ثلاث مسئوليات ترتبط بالناحية التقليدية:

1- عرض أنواع عديدة من الآراء المستفيدة حول المسائل والأمور اليومية بما تشتمل عليه من قضايا سياسية وتفسيراتها،

2- الاهتمام بالمصلحة العامة ومراقبتها كوقاية ضد السياسيين والمسئولين الذين يمكن أن يعملوا لمصلحتهم الخاصة أو يمكن أن يمثلوا تهديداً وخطورة على الديمقراطية ولا يعملون للصالح العام- وهذا ما تمثله فكرة" السلطة الرابعة".

3- القدرة على الكشف عن الزيف ودعم الحقائق متى مورست السلطة بصورة تعسفية، وذلك لأن الصحفيين مستقلون عن الآخرين، على الأقل من ناحية المبدأ.

من الواضح أن وسائل الاتصال الجماهيري دائماً ما تنقل رسائل أكثر بكثير مما تحتاجه الجماهير. بالإضافة إلى ذلك، دائماً ما يكون هناك صحفيون ومتخصصون إعلاميون يبادرون بالمشاركة في مختلف المحافل التي يتم فيها فحص الحياة العامة بدقة، وفي هذا الصدد يذكر" والتر ليبمان" Walter Lippmann :" لن يتمتع أي مجتمع بالحرية طالما يفتقر إلى المعلومات التي تكشف الأكاذيب". لكن بما أن التحرر من القيود التنظيمية يتقدم ويتطور، ربما أن التوجه التجاري أصبح منتشراً على نطاق واسع، فثمة زيادة جلية استمرت منذ نهاية القرن التاسع عشر في مجال صحافة لشئون الشخصية التي أوجدتها وجسدتها "رواية" المصلحة الإنسانية. فسواءً كانت مثل تلك الروايات في مجال الرياضة أو التجارة أو التسلية ، فإنها تتيح معلومات للناس لفهم " عالمهم" الشخص وأسلوب حياتهم في مقابل مسئولياتهم ككيانات عامة.

أحياناً ما يفسر هذا الاتجاه بأنه " تسليع" للثقافة – حيث يصبح المستهلك هو "

الملك"- وبذلك فقداً أصبح يرمز إلى ما يصفه نقاد الثقافة بأنه هوس امتلاك السلع الشخصية، والعاطفة نحو المتعة التي توفرها أجهزة الإعلام. وعلى ما يبدو أن القليل من الناس لديهم الاستعداد لتكريس بعض الوقف والجهد لتحقيق الصالح العام والجماعي. إن صحافة الشئون العامة **public affairs Journalism** التي تختص بالشئون القومية أو الإقليمية أو المحلية – سواءً كان الهدف منها رفاهية المجتمعات بكاملها، أو الصالح العام أو الخاص، أو المجتمع العام – قد عانت الكثير جراء ما يحدث أيضاً. فهذا العجز في الديمقراطية جعل العديد من المعلقين يتساءلون عن المستقبل، وخاصة عن: كيف يمكن حماية مهمة الصحفيين الفريدة، وما هي توقعات درجة العلاقة المتبقية بين الصحافة والديمقراطية؟

تلك العلاقة تنعكس بصورة تقليدية في نوع الديمقراطية التي تتمتع بها الدولة فقارة أمريكا الشمالية – عندما استعمرت في القرن السابع عشر – كانت في حد ذاتها تتعهد الديمقراطية.

ومع ذلك فإن تطور الصحافة – بسبب الحجم الهائل القارة أساساً – ظل دائماً شأناً إقليمياً بصورة كبيرة بنفس الطريقة التي يمكن أن تكون السياسة بها على المستوى الرسمي قوة أكثر فعالية في حياة المواطن من السياسة الفيدرالية. وبنفس الطريقة، انعكس هيئة تشريعية للدولة في صحافة إقليمية قوية تركزت حول دول أو مدى بذاتها. إن الأسماء " الأيقونية" للصحف – مثل الواشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز وغيرها – قد أطلقت بناءً على اسم المدينة التي تأسست فيها الصحيفة.

سيرة ذاتية

والتر ليبمان

كـان "والـتر ليـبمان" Walker Lippmann أحـد الـصحفيين الأكـثر نفـوذاً، وأحـد المعلقـين الثقافيين الأكثر شهرة في القرن العشرين. في اعتقـاده أن الـصحفيين يمثلـون حلقـة وصـل بـين الحكام والحكوميين، وبذلك فعليهم واجب مقدس نحو الحقيقة والموضـوعية، رغـم أنـه كـان يفهم أن الحقائق جميعها تعتبر ذاتية، وليس موضـوعية. كـان "ليـبمان" فخويـاً elitist وقـد روج لفكرة أن "الطبقة الحاكمة" governing class من الخبراء والمتخصـصين والبيروقـراطيين ضرورية لحماية الديمقراطية إذ أن مفهوم قدرة العامة على تعريف الشئون العامة إنما هي " مثالية كاذبة".

ولد "ليبمان "في نيويورك عـام 1889. درس الفلـسفة واللغـات في "هارفـارد" وتخـرج في عـام 1910 كتب إلى "الكنولن سيتفنز"- المحقق الصحفي " الباحث عن الفضائح"- يطلـب منـه أن يجد له وظيفة في صحيفة " إفري بودي" لأنه لم يجد وظيفة من نوع الوظائف التي تروق له وظيفة "سيتفنز ". وأصبح "ليبمان" على الفـور أحـد المحـررين العـاملين بالـصحيفة، ووصـفه "ثيودور روزفلت" بأنه أذكى رجل في عصره داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

أسس "ليبمان" الصحيفة الأسبوعية "الجمهورية الجديـدة" the New Republic في عـام 1914، وعـين عـضواً في الوفـد الأمـريكي بمـؤتمر الـسلام في بـاريس 1919. كـما سـاهم في تأسيس ميثاق "عصبة الأمـم" الجديـدة. ومنـذ ذلـك الحـين، أصبح شخـصية شـهيرة، كما أصبح مستشاراً غير رسـمي للعديـد مـن الرؤسـاء، وقـام بتـأليف عـدد مـن الكتـب الهامـة حـول الـصحافة والـسياسة. وفي عـام 1931، انـضم إلى فريـق العـاملين بـصحيفة

"الهيرالد تريبيون" بنيويورك، وفاز بجائزة "بوليتسر" Politzer عام 1958، وفي عام 1962 فاز بنفس الجائزة عن عموده الشهير "اليوم وغداً". وهو الذي أشاع مصطلح "الحرب الباردة" عندما أصدر كتاباً يحمل نفس العنوان غي عام 1947، كما أن عبارته ذات الشهرة الكبيرة الآن "صناعة الموافقة" manufacturing consent كان قد اقتبسها من "إدوراد هيرمان" و "ناعوم تشومسكي"، حيث كان الأخيران قد أصدر كتاباً رائداً عن الاقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الجماهيري في عام 1988 يحمل نفس العنوان. وتوفي "ليبمان" في عام 1974 بنيويورك.

تلك المشكلات العالمية أقر بها الأبوان المؤسسان "جيمس ماديسون" و "أليكساندر هاميلتون" في "الأوراق الفيدرالية Federalist papers (عام 787) حيث ذكر أن كلاً من هندسة النقل والمواصلات والصحف يمكن أن تعمل على توحيد الأمة. لقد توسع – في هذا الشأن – المؤرخ الثقافي "جيمس كاري" ي استخدام هذا القول المأثور : "كانت الولايات المتحدة... نتاجاً للثقافة، والورق زهيد الثمن، ووسائل المواصلات السريعة والرخيصة، بالإضافة إلى التوسع التلقائي في إنتاج الكلمات والمفردات، باختصار، هي ناتج القدرة على نقل كل من البشر والثقافة والحضارة من مكان لآخر، وبين كل الأماكن التي تختلف جذرياً في تضاريسها وظروفها الاجتماعية واقتصادها ومناخها بالفعل". إن إقرار "كاري" بالاختلاف الجذري في الولايات المتحدة لم يشتمل على عدم وجود طباعة مؤثرة وفعالة رغم أن هندسة النقل والمواصلات لم تفد كثيراً في رواج الصحافة القومية.

من ناحية أخرى، كانت المجلات على وشك الازدهار لأنها كانت تتميز بالمرونة في مواعيد وأوقات انتهائها، وكانت تصدر إما أسبوعياً أو شهرياً، وتعمل ببرامج وأجندات أكثر اتساعاً وشمولاً وهو ما أدى إلى تغيرات حثيثة في نظم

المواصلات. وخير مثال على ذلك يبدو في مجلة "الأمة" The Nation، وهي مجلة أسبوعية تعرف باسم "بارجة اليسار" The Flagship of the left وقد صدرت في عان 1865 ولا تزال معروفة حتى يومنا هذا. كان اختصاصها الوحيد هو ضمان الحقوق الكاملة للعبيد المحررين، ولا تزال تقوم بحملات صحفية حول المبررات التقليدية "لجناح اليسار". في نهاية المطاف، مكنت نظم النشر والتوزيع الحديثة العديد من الملاك – مثل "هنري لوس" – من إصدار مجلات نالت إعجاب الكم الأكبر من القراء. فقد بدأت مجلته الشهيرة "التايم" أول إصداراتها في عام 1923، وهي الآن تفخر بإصدار نسخة "التايم الأوروبية" التي تصدر في لندن و "تايم آسيا" في هونج كونج. أما منافستها الشهيرة"النيوزويك" فقد صدرت لأول مرة في عام 1933، ولكنها كانت دائماً أقل من "التايم" في الانتشار والدخل من الإعلانات. وهي اليوم تصدر بأربع لغات، كما يصدر حوالي 12 طبعة عالمية بلغات الأقاليم التي تصدر فيها.

في بريطانيا، ظهرت أولى الصحف الحديثة في القرن الثامن عشر، تلاها ظهور مصطلح "الرأي العام" بالإضافة إلى بروز أفكار جديدة عن الكلمة الحرة والصحافة الحرة. أما القرن التاسع عشر على وجه الخصوص فقد شهد ظهور الصحافة القومية الفعالة، وهو نتيجة للتطور المبكر في الصحافة المطبوعة آلياً، والسكك الحديدية، وخدمات البريد القومي. لهذه الأسباب أيضاً كانت الصحافة القومية سبيلاً للربح. لقد انتشرت المجلات بصورة كبيرة منذ السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وقد أفادت كثيراً من المميزات التي كان يتمتع بها البريد والتوزيع السريع. وفي هذه الأيام يحق للولايات المتحدة أن تفخر بامتلاكها أعظم مكانة في صناعة النشر والتوزيع في أوروبا بأكملها حيث تمتلك ما يزيد على ألمانيا بحوالي 3000 شركة، وهو ما يعتبر ثاني أكبر سوق في أوروبا. حسب "التحليل المقارن للصناعات الخلاقة بالمملكة المتحدة" الصادر عن "فرونتيور إيكونوميكس" Frontier Economics وهو تقرير تم رفعه

لـوزارة الثقافـة والإعـلام والرياضـة في عـام 2006، يقـدر سـوق الـصحف العالميـة - بنـاءً عـلى المعلومات الصادرة عن رابطة الناشرين - بما يعادل 5 إلى 7 مليارات جنيه اسـترليني، مـع حـوالي 17500 ناشر و35000 صحيفة. في تقـدير "فرونتيـور إيكونـوميكس" أيـضاً أن المملكـة المتحـدة تتمتع بمـا قـدره 25 إلى 30 % مـن الـسوق العـالمي بـإجمالي مبيعـات 1.5 إلى 2 مليـارات جنيـه استرليني. وأما الصادرات فتحقق من 60 إلى 75 % من إجمالي المبيعات بالنسبة لبعض الـصحف, والنسبة للبعض الآخر قد تصل إلى حوالي 85 %. وهناك حوالي 1300 صحيفة إقليميـة في المملكـة المتحدة. حسب مـا ذكرتـه "جمعيـة الـصحافة" Newspaper Society يقـرأ 84 % مـن الـسكان البالغين هذه الصحافة مقارنة 70 % ممن يقرءون الصحف القومية.

لقد أثار ظهور الإعلام الإذاعـي اهتمامـات جديـدة بالـصحافة والحكومـات عـلى جـانبي المحـيط الأطلنطـي. ففـي الولايـات المتحـدة، نـشأت مفاوضـات الاتـصالات الفيدراليـة بنـاءً عـلى قـانون الاتصالات الصادر عن 1934، والذي يؤكد عـلى أن يعمـل الإذاعيـون مـن أجـل "الـصالح العـام" Public interest في مقابل الحصول على عقود إيجاد لموجات الأثير. وعنـدما مارسـت الحكومـة نوعاً من الرقابة على المحتوى الإذاعي، ثم بث كم كبير جـداً مـن الأخبـار. ولكـن قبـل أن يـصبح "رونالد ريجان" رئيساً للولايات المتحدة في الثمانينـات مـن القـرن المـاضي، شرعـت التغطيـة الإخبارية في التضاؤل، وكما عرف بعد ذلك، بدأت توجيهات "ريجان" نحو عـصر التحـرر مـن القيود؛ وهذا قد أدى بـصورة حتميـة إلى سرعـة تـدهور العمليـة برمتهـا؛ كـماً وكيفـاً. أمـا في أوروبا فقد ضمن بقاء خدمة البـث العامـة التواجـد "الـواهم" للبرمجـة الواقعيـة في خدمـة الصالح العام، وهو ما يعتبر شبكة أمان من نوع ما للصحافة الجادة. وفي بريطانيا تـم إنـشاء هيئة الإذاعة البريطانية BBC - من الناحية الاستثنائية - لمواجهـة وإحبـاط الميـول التجـاري التي بدأت تـسود الإذاعـة الأمريكيـة. وكـان اعتبـار معظـم النـاس لهـا كنظـام "احتكـار" في

جزء كبير منه نتيجة للشخصية القومية التي تتمتع بها الهيئة. فعلى سبيل المثال، لم يبدأ عام 1967 حتى شرعت أولى محطات الإذاعة المحلية وراديو "ليسيتر" بثهما. ومع ذلك، فعند بحثنا عن طريق التقدم إلى الأمام، علينا أن نعود للوراء عبر التاريخ لما هو أبعد من القرن العشرين حتى يمكن أن نجد نوعاً من الاستبصار.

الماجنا كارتا وصحافة اليوم

الماجنا كارتا **Magna Carta** – أو الميثاق العظيم – يعتبر شهادة ميلاد للحرية. هذا الميثاق العظيم ينص على قدسية حقوق الأفراد إزاء الدولة. عندما أجبر البارونات الساخطون في إنجلترا الملك على توقيعه في الميدان بعد انتهاء معركة "رانيميد" **Runnymede** عام **1215**، لم يدركوا أن هذا الميثاق كان يمثل وثيقة سوف تتضمن مبادئ ثابتة ودائمة؛ فحوالي ثلث سكان العالم يحكمون بتلك المبادئ التي تضمنها الماجنا كارتا : وهي أنه لا يوجد أحد فوق القانون؛ لا يمكن اتهام أي فرد من قبل السلطة ولا يمكن وضعه في السجون دون محاكمة عادلة. وهذا الحق الأخير – حق المثول أمام محكمة الاستئناف للطعن في الحكم غير القانوني بالسجن – تم تضمينه في الدستور الأمريكي. فالتعديل الخامس في الدستور أعاد ببساطة شديدة صياغة المادة 39 من الماجنا كارتا، وهي المادة التي تنص على أنه : "لا يجب أن يحرم أي فرد من حياته أو حريته أو ملكيته دون مراعاة الأصول القانونية". لقد اعتبر "أليكساندر هاميلتون" – الأب المؤثث للماجنا كارتا- إن الإشعار القضائي (حق المثول أمام القضاء) **habeas corpus** "الحصن" الذي يحمي حرية الفرد، كما استنكر الأحكام السرية بالسجن واعتبرها "باعثاً خطيراً على الحكم العشوائي". واليوم، تجتمع نقابة المحامين الأمريكية بصفة دورية في "رانيميد" بالمملكة المتحدة لتكرس عملها لتحقيق المبادئ التي وردت لأول مرة في مثل هذا المكان.

ما هي علاقة الماجنا كارتا بالصحافة؟ الإجابة في غاية البساطة؛ كان على الصحفيين عبر العصور المختلفة أن يذكروا الحكومات بالحرية الأساسية المنصوص عليها في النص اللاتيني للماجنا كارتا. على سبيل المثال، ينص الميثاق العظيم في المادة 29 على أنه : "لا يجب إنكار أو تعطيل الحق أو العدل الخاص بأي فرد". عندما قام المليونير "روس بيروت" **Ross Perot** – المرشح السابق للرئاسة – بعرض نسخة الميثاق الخاصة به للبيع في عام 2007، كان الصحفي البيرطاني "بين ماسينتاير" **Ben Macyntire** – الذي كان يعمل في جريدة التايمز اللندنية – هو الذي دعا إلى الرجوع إلى الميثاق العظيم وإعادة قراءته مرة أخرى. وزعم أن ذلك يجب أن يتم في ضوء ما أشير إليه رسمياً على أنه "الاستجواب المؤمن" **enhanced interrogation** للسجناء في مخيم خليج جوانتانامو، وه معسكر للاعتقال في كوبا أنشأته الولايات المتحدة بعد أحداث تدمير برج التجارة العالمي في عام 2001، وأيضاً على ضوء التشريع البريطاني الذي نص على تمديد فترة اعتقال الإرهابيين دون محاكمة. من الواضح أن صحافة اليوم يمكن أن تستخلص دروساً وعبراً من التاريخ حول تعزيز الديمقراطية والحفاظ عليها. في الواقع، لقد أفادت صحف المعارضة كثيراً من الشرعية التي حصلت عليها من خلال المبادئ التي نص عليها الماجنا كارتا.

سيرة ذاتية

الآباء المؤسسون

يتفق الجميع بوجه على أن الآباء المؤسسين للولايات المتحدة هم القادة السياسيون الذين وقعوا على إعلان الاستقلال **Deceleration of Independence** في عام 1776 أو أولئك الذين شاركوا في الثورة الأمريكية (حزب الاستقلال). لقد حدد المؤرخ الأمريكي "ريتشرد

موريس" أسماء سبعة رجال ووصفهم بأنهم الآباء المؤسسون الرئيسيون، وهم : "جون آدمز" و "بينيامين فرانكلين" و "أليكساندر هاميلتون" و "جون جاي" و "توماس جيفرسون" و "جيمس ماديسون" و "جورج واشنطن". والمؤسسون الثلاثة الآتية سيرتهم الذاتية هم الذين يتحدث هذا الفصل عنهم.

بنيامين فرانكلين

ولد "بنيامين فرانكلين" **Benjamin Franklin** في بوسطن بولاية ماساشو سيتي في عام 1706. انتهت علاقته بالتعليم الرسمي وهو في سن العاشرة، وتعلم صناعة الطباعة على يد أخيه "جيمس". ولأنه كان عصامياً متعدد الثقافات، اعتبر من رجال عصر النهضة المشاهير حيث أصبح من كبار الكتاب، كما أصبح عالماً وسياسياً ورجل دولة، وأديباً ساخراً. كما كان له الفضل في اختراع "مانع الصواعق"، والنظارة ثنائية البؤرة، والمكتبات العامة، وأنشأ أول إدارة لإطفاء الحرائق في الولايات المتحدة.

وكأحد الآباء المؤسسين، وكدبلوماسي عمل على تأييد فكرة الدولة الأمريكية، فلعب دوراً مؤثراً في إتمام اتفاقية مع كل من فرنسا وبريطانيا مهدت الطريق لقيام دولة أمريكية مستقلة. عمل مديراً عاماً للبريد في فترة من 1775 وحتى 1776 ثم وزيراً للمالية في فترة من 1778 وحتى 1785. وتوفي "فرانكلين" في عام 1790 وقد حضر جنازته التي شهدت شهرة عالمية واسعة النطاق حوالي 20 ألف شخص.

ألكساندر هاميلتون

ولد "أليكساندر هاميلتون" **Alexander Hamilton** في جزيرة "قفيس" في جزر الهند الغربية البريطانية في عام 1755. وأثناء الثورة

الأمريكية انضم إلى ميليشيا نيويورك وعين مساعداً للجنرال " جورج واشنطن" لشئون المخيمات. تم انتخابه في عام 1782 كعضو في الكونجرس، ولكنه قدم استقالته من المجلس بعد ذلك ليؤسس بنك نيويورك. ولأنه كان محامياً دستورياً فقد أصبح أول وزير دولة للخزانة بالولايات المتحدة، وقام بكتابة "الأوراق الفيدرالية" بالتعاون مع "جيمس ماديسون". في عام 1802 انتهت منافسته لنائب الرئيس "بور" **Burr** إلى مبارزة، جرح خلالها "هاميلتون" جرحاً قاتلاً مات على أثره في اليوم التالي.

جيمس ماديسون

ولد "جيمس ماديسون" **James Madison** في "بورت كونواي" بولاية فرجينيا عام **1751**. وقد درس بجامعة "برينستون" (التي أصبحت بعد ذلك جامعة نيوجرسي) وتخرج خلال عامين. عمل رئيساً رابعاً للولايات المتحدة في الفترة من **1809** وحتى **1817** وكان مسئولاً عن كتابة معظم "الأوراق الفيدرالية"، بالإضافة إلى سلسلة من **85** مقالاً كان يعلق فيها على الدستور ويفسره. وهو الآن يعتبر "أبا الدستور"، وهو أيضاً مبتكر ومؤلف لائحة قانون حقوق الإنسان الأمريكية. ورغم أنه كان دائماً معتل الصحة، إلا أنه آخر من توفي – من ضمن الآباء المؤسسين – في عام **1836**.

التحرر من القيود "إيريوباجيتيكا" عند جون ميلتون

"أتركوا المجال للصراع بين الحق والباطل" هذا ما قاله "جون ميلتون" **John Milton** في ورقته المعروفة باسم "التحرر من القيود" **Areopagitica** التي هاجم فيها الرقابة بشدة في القرن السابع عشر. "التحرر من القيود" في عام **1644**في خضم أحداث الحرب الأهلية الإنجليزية، وهي تعتبر دفاعاً قوياً عن حرية التعبير والطباعة بدون ترخيص وحرية الصحافة. لقد اضطر "ميلتون" إلى

كتابة هذا المقال الرائد بعد ردود الأفعال المعادية والانتهاكية التي تعرض لها من قبل المتطهـرين والمتطرفين الذين طـالبوا - بـصفتهم البروكوسـتانت الأصـوليين في ذلـك الوقـت - بـدعم البرلمـان لقوانين الرقابة وحرق ورقة "ميلتون" التي صدرت حديثاً عن الطلاق. ورغم تورط الدولة في ذلك الوقت في الحرب الأهلية إلا أن "ميلتون" استنكر ما فعلـه البرلمـان وطالـب بإلغـاء جميـع أنـواع الرقابة. وقد أطلق على مقاله الموجه للبرلمان عنوان : "حديث السيد ميلتون حول حرية الطباعـة من الترخيص إلى برلمان إنجلترا" مـشيراً بـذلك إلى مـا يـسمى "إيريوبـاجوس" **Areopagus** وهـو المكان الذي كان يجتمع فبه المواطنون الأثينيون لمناقشة القضايا اليومية.

في رأي مليتون إن التحكم الفعال في الذات يتطلب تلقي المعلومات من مصادر مختلفة وعديـدة حتى يمكن أن تظهر الحقيقة. أما القانون العام في إنجلترا في ذلك الوقت ما كان يعتبر أن الحقيقة من الممكن أن تكون مجرد افتراء - وهي بذلك تعد سلعة خطيرة - وظل ذلـك حتـى عـام 1720 حيث ذكر اثنان من الصحفيين اللندنيين (جون ترينشارد وويليـام جـوردون الـذين كانـا يكتبـان تحت اسم "كـاتو"، وهـو اسـم مـستعار) إن هـذا المفهـوم ينبغـي أن ينقلـب إلى نقيـده؛ أي أن الحقيقة يجب أن تكون دفاعاً ذد الاتهام بالافتراء. وهكذا، لقي أثر هذا الخطاب صدى واسـعاً في جميع المستعمرات الأمريكية حيث أعاد أصـحاب الطباعـة - بمـا فـيهم بنيمـين فـرانكلين - نـشر أعمال "كاتو". وفي بريطانيا عام 1792 قدم "تشارلز جيمس فوكس" أحد رجال السياسة اليمينيين قانوناً تشريعياً ينص على استعادة هيئة المحلفين لحق تحديد ما هـو افـتراء (أي تـشهير) ومـا إذا كان المدعى عليه مذنباً فضلاً عن ترك الموضوع برمته للقضاء. ولا يزال هذا القـانون سـارياً حتـى يومنا هذا.

مـــن وجهـــة نظـــر "ميلتـــون" إن المـــؤرخ "ثيـــو هوبـــسون" **Theo Hobson** يـــصف

"ميلتون" بأنه "كبير منظري" التطهرية التحررية Liberal Puritanism، ومع ذلك فإن تراث "ميلتون" يتفق مع كل من التطهريين الأصوليين والمعتدلين الذين يرون أنه لابد ألا يكون هناك دين رسمي للبلاد؛ كما أنهم ابتكروا فكرة فصل الكنيسة عن الدولة، وهي الفكرة التي عمل الأمريكيون على تطبيقها عملياً في القرن التالي. بذلك فإن أول تعديل أدخل على دستور الولايات المتحدة كان يحظر على الكونجرس بوجه خاص من صياغة قوانين "تسعى إلى تثبيت الدين" و "تقييد حرية الكلمة أو الصحافة". لقد بلغت الصياغة درجة القول والتشديد على أنه لا يمكن تمرير أي قانون يلزم الدولة بمراعاة الدين؛ وهذا بخلاف تراث "هنري" الثامن الذي يعين كبار أساقفة الكنيسة في إنجلترا أعضاءً في مجلس اللوردات. وبالمثل، لا يمكن في أمريكا تمرير أي قانون يكبح حرية الصحافة ويعوق حقوق أجهزة الإعلام في تحديد المحتوى الإعلامي الذي لا يمكن أن تكون له حدود ولا يمكن أن تفرض عليه أية قيود لنشرة. كما ذكر "كورفايدل" Gore Vidal في تعليقة:" كان يمكن لميلتون أن يعبر عن ذلك بأسلوب أكثر فصاحة، وفي هذه الحالة كان يمكن أن يحقق نفس الأهداف".

أصبحت الأفكار التي نص عليها كل من الماجنا كلترتاو "إيريوباجينا" ميلتون بعد ذلك قاعدة للمواقف الدفاعية التي تدعم الصحافة ووسائل الإعلام بوجه عام ضد الرقابة والمحاولات الشبيهة التي تسعى إلى الحد من حقوق الجمهور. ولقد كان تطور الصحافة كسلطة رابعة علىمدى القرن التاسع عشر في بريطانيا محاولة لجعل تلك الأفكار الخاصة بالحرية والحياد تظهر بطريقة تساعد في إنشاء دولة ديمقراطية، وليس معارضها. وفق ما قالة المؤرخ" توماس كارلايل" Thomas Corlyle(1795-1881)، إن رجال السياسية الأمريكي"لإدموند بورك" هو الذي قال إن ثمة ثلاث سلطات داخل البرلمان وهي: اللوردات الكنسيون (رجال الدين) the clergy واللوردات الدنيويون(النبلاء)

ومجلس العموم (العامة)، ولكن تم إضافة سلطة رابعة يعتبرها "بورك" أكثر أهمية من السلطات الثلاث الأخرى. سندرس في الفصل التالي كيف أصبحت حرية الصحافة كسلطة رابعة إرهاصاً قوياً للصراع من أجل المزيد من الحريات العامة، ومن ناحية أخرى ذريعة لعديمي الضمير لمواصلة الأخذ بالثأر والانتقام الشخصي والسياسي.

ملف حقائق

تطور الحقوق والحريات

مناظرات "بوتني 1647

انتهت الحرب الأهلية الإنجليزية بهزيمة الملك" تشارلز الأول" على أيدي " أوليفر كرومويل" وجيشه النموذجي الجديد. وفي أعقاب ذلك مباشرة نشب خلاف بين " كرومويل" والضباطه والجنود وضباط الصف في الجيش، ودار الخلاف حول كيف يمكن التعامل مع الملك وكيف ينبغي العمل بالدستور في المستقبل. أعدت العناصر الراديكالية في الجيش وثيقة (اتفاقية الشعب) Agreement of the people تنادي بصوت واحد لكل فرد، وبالحرية الدينية، والمساواة أمام القانون، وتفويض مجلس العموم بالسلطة الكاملة وليس مجلس اللوردات.

دعا" كرومويل" جماعة " الوكلاء الجدد" الذين كانوا يتملكهم السخط لمناقشة مقترحاتهم في مناطرات المجلس العام للجيش. تمت المناظرات في نوفمبر 1647 في كنيسة سانت ماريا "ببوقتي" التي كانت في ذلك الوقت قرية صغيرة تقع على نهر التاريمز بالقرب من لندن. كان الجزء الأكبر من المناظرات يدور حول حق التصويت. في

نهاية الأمر، اتفق الطرفان على حل تم تضمينه في وثيقة جديدة أطلق عليها وثيقة " سادة المقترحات" **Heads of proposals** ونصت هذه الوثيقة على حق التصويت للجنود الذين حاربوا من أجل البرلمان، ولكنها أقتصت الخدم والفقراء. لقد أتاحت" مناظرات بوتني" منبراً " للعامة من الناس" للتعبير عن أنفسهم، كما كانت مفيدة ومؤثرة في توسيع دائرة الانتخابات التي مهدت السبيل للعديد من الحريات المدنية التي تهتم بها المجتمعات الديمقراطية في هذه الأيام.

مشروع قانون الحقوق 1689

مشروع قانون الحقوق **Bill of Rights** هو قانون أصدره البرلمان يعتمد الحقوق التي يتمتع بها المواطنون والمقيمون الدائمون تحت حماية الدستور. وقد أعدت تلك الحقوق لكل العصور، ولا تزال يعمل بها حتى الآن. بعض مشتملات القانون تتضمن الآتي:

*- لا يمكن للنتاج الملكي التعدي على سلطة البرلمان بفرض قوانين دون موافقة الأخير.

*- حرية الكلام والتعبير داخل البرلمان.

*- التحرر من الغرامة والمصادرة بدون محاكمة.

*- التحرر من العنف والعقاب غير المعتاد.

لا يزال مشروع قانون الحقوق يعمل به حتى الآن في الأمور اليومية في كل أنحاء دول الكومونويلث البريطانية بالإضافة إلى أنه يشكل أساساً لمشروع قانون الحقوق الأمريكية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان. على سبيل المثال، نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على مبدأ التحرر من العنف والعقاب غير العادي في المادة الخامسة، وفي المادة

الثالثة من الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان.

الإعلان العامي لحقوق الإنسان 1947

اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي عام 1948. وهو يعتبر أول وثيقة تنص على حقوق الإنسان كوثيقة عالمية تطبق على جميع الناس في كل أنحاء العالم. والمادتان 18 و19 هما اللتان تنطبقان على موضوع الفصل وهي :

مادة 18 : كل فرد له الحق في حرية الفكر والعقيدة والدين...

مادة 19 : كل فرد له الحق في حرية الرأي والتعبير...

الاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان 1950

اعتمدت دول أوروبا الاتفاقية الأوربية في عام 1950 لحماية حقوق وحريات الإنسان.

وتم تأسيس المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان بناءً على الاتفاقية وبناءً على تميزها في ترجمة الحقوق المنصوص عليها في المعاهدة إلى درجة عالية من حماية الفرد.

وتتعلق المادتان الثامنة والعاشرة بخصوصية وحرية التعبير:

مادة 8: يتمتع كل فرد بحق الاحترام لأسرته وحياته الخاصة، ولمقره ومراسلاته...

مادة 9 : يتمتع كل فرد بحق حرية التعبير. وهذا الحق يشمل حرية إبداء الرأي وتلقي المعلومات والأفكار والدفاع عنها دون تدخل من السلطات العامة وبعض النظر عن الحدود...

الفصل الثاني

الطريق الذي لم يسلك

ذكر " والتر ليبمان " أن تطور الصحافة الأمريكية قد مر بثلاث مراحل؛ المرحلة الأولى: كانت الحكومة تحتكر عملية النشر في ظل الاستعمار. المرحلة الثانية: ساهمت سلطة الأحزاب السياسية في دعم مجال واسع للطباعة. والمرحلة الثالثة: كانت الإعلانات والنشر الجماهيري مصدراً لتمويل استقلال الصحافة. رغم أن تحليل" ليبمان" وتسم بالعديد من المميزات، إلا أن هناك خطورة تكمن في تبسيطه الشديد للتغيرات الاجتماعية والثقافية المعقدة- التي كان غالباً ما يساء تفسيرها – وهي تغيرات ساهمت فيها الصحافة ذاتها، بل وانعكست على صفحاتها. إلا أن هناك أحداثاً ووقائع في غاية الأهمية إذا ما رجعنا بها إلى الماضي فسنري أنها تجسد لحظات الحد الفاصل في تاريخ الصحافة، فضلاً عن إحداثها تداعيات كبري بالنسبة للمجتمع ككل. أحد الأمثلة على ذلك حالة "جون بيتر زنجر". فهي تتميز بأنها إحدى نقاط التحول من مرحلة " ليبمان" الأولى إلى المرحلة الثانية، بل إن الأمر الأكثر أهمية هو أنها ساعدت على تحديد معنى" حرية الصحافة". وعلى الفور عملت الأحداث السياسية على ترسيخ تلك الحرية ودعم واقع السياسة الحزبية التي مورست على مرأى ومسمع من العالم وعلى صفحات كل جرائد وصحف الدولة.

جون بيتر زنجر... مثال التحول

في عام 1733 شرع "جون بيتر زنجر" John Peter Zenger في إصدار صحيفة "جورنال نيويورك الأسبوعية. كانت هذه الصحيفة أول صحيفة حزبية

تصدر في الولايات المتحدة، ولكن لسوء طالع "زنجر"، كانت سياسات صحيفته تعارض سياسات " وليام كوسبي" حاكم ولاية نيويورك الجديد. بعد قيام الأخير بشن حملات طويلة الأمر بهدف إغلاق الصحيفة، استطاع في النهاية أن يقنع قضاة نيويورك بإصدار مذكرة اعتقال" لزنجر"، فقبض عليه وقضى ثمانية أشهر خلف القضبان. أصبحت الأفكار المنصوص عليها في كل من الماجنا كارتا "وإريوباجينيكا" ميلتون أساساً للدفاع الذي دفع به محامو "زنجر" الذي تلقى ثمن دفاعه من الأب المؤسس "بنيامين فرانكلين" وبعض أصحاب المطابع الآخرين.

كان "زنجر" ألماني المولد وقد هاجر مع أسرته إلى أمريكا في عام **1710**. وتتلمذ على يد صاحب المطبعة الملكية بمستعمرة نيويورك من عام **1711**. حتى عام **1719**. وأسس أعماله لصاحبة الخاصة في عام **1726**. ثم قام بنشر مؤلفات دينية تكفل له قوت يومه، لكن في عام **1733**. تقرب إلى"جمس أليكساند" الذي كان يعمل محامياً وسأله إذا ما كان له أن يصدر صحيفة أسبوعية مستقلة يطلق عليها اسم "جورنال نيويورك الأسبوعية" كان "أليكساندر" أحد مؤسسي "الحزب الشعبي" **Popular Party** الذي كان يعارض سياسات حاكم الولاية "كوسبي" كانت مهمة الصحيفة الجديدة - كما أوضح "أليكساندر" - هي فضح أعمال "ويليام كوسبي" وفضح المظالم التي يرتكبها كحاكم. كان سلوك "كوسبي" المتعجرف قد جعل له الكثير من الأعداء من أعضاء المستعمرات من ذوي السلطة والأهمية، لكن سبب رغبة "أليكساندر" في فضح"كوسبي" يرجع وجود خلاف شديد مسبق بين كل من "كوسبي" وأكبر أعضاء مجلس مدنية نيويورك سناً "ريب فان دام" البالغ من العمر71 عاماً.

عمل "فان دام" قائماً بأعمال الحاكم في العام الذي ضم فترة ما بين تعيين "كوسبي" ووصوله الفعلي إلى نيويورك. بناءً على ذلك، اعتقد "كوسبي" أن من

حقه مشاركة راتب "فان دام" مناصفة عن تلك الفترة. بالطبع كـان "فـان دام" يختلـف معـه حـول هذه الفكرة، وعلى الفور قام "كوسبي" برفـع دعـوى للحـصول عـلى نـصف الراتـب. وعنـدما وجـد "كوبسي" أن هيئة المحلفين لن تصدر حكماً لصالحه، قام بعقـد المحكمـة العليـا للمقاطعـة بـصفتها محكمة الخزانة العامة بدون وجود هيئة محلفين لتستمع إلى قضيته. قرر المحامون الموكلون للدفاع عن "فان دام" تحدى قرار "كوسبي"، لكن الأعضاء الثلاثة في المحكمة العليا أدلـوا بأصـواتهم بنـسبة 1:2 لصالح "كوسبي". وقد طرح سؤال على القاضي الثلث- وهو رئيس المحكمة – "لويس مـوريس" لتوضيح سبب إدلائه بصوت معارض، ولكن بدلاً من أن يكتب خطاباً، طبع" موريس" كتيبـاً نـشرة" جون بيتر زنجـر" في صـفحته. ثـارت ثـائرة" كوسـبي" فقـام بتعيـين "جمـس ديلانـس" ليحـل محـل "موريس"، وكان"ديرنس" من الأوفياء للملكية، كما كان من أنصار "كوسبي".

شنت الطباعات اللاحقة من "الجورنال" هجوماً عنيفاً عـلى "كوسـبي" بـسبب ممارسـاته المريبـة، ورد الحاكم على هذا الهجوم بالسعي إلى إسـكات صـوت الـصحفية باسـتخدام قـانون التحـريض بالتشهير، ولكن كل محاولاته باءت بالفـشل، وفي النهايـة أمـر "كـوسي" النائـب العـام" ريتـشارد برادلي" بعمل موقع "معلومات" أمام القضاة ما أدى إلى إصدار أمر قضائي باعتقال "زنجر". أثنـاء قضاء "زنجر" لعقوبة السجن الاحتياطي قام بنشر" اعتذار" واسـتطاع بـذلك أن يحـتفظ بإصـدار الصحيفة بمساعدة زوجته" آنا". أثارت ضخامة الكفالـة المطلوبـة(800 جنيـه إسـترليني) والـسيل العارم من الرسائل التي نشرها" زنجر" من داخل السجن تعاطف الجماهير معه. وأثناء محاكمتـه قام بالدفاع عنه "أندروهامليتون" المحامي من فيلادلفيـا، وهـو المحـامي الـذي يعـد أكـثر رجـال القانون مهارة وحنكة.

اعـترف "هـاميلتون" بـأن "زنجـر" قـد قـام فعـلاُ بنـشر الأقـوال التـي شـكا منهـا " لـويس

موريس" في كتيبه الأصلي. ومع ذلك،فقد ذكر أنه إذا كانت تلك الأقوال تمثل الحقيقة في الواقع، إذاً فإن هذا يعتبر في حد ذاته دفعاً ضد الاتهام. (ففي القانون البريطاني والأمريكي اليوم، تعد الحقيقة دفعاً كاملاً ومطلقاً ضد إدعاء التشهير. ورغم ذلك لم تكن الحقيقة دفعاً في عام 1734) لم يكن الأمر غريباً أن يحكم رئيس المحكمة "ديلانسي" بأن "هاميلتون" لم يستطع أن يقيم دليلاً على واقعية أقوال" زنجر" التي وردت في صحيفة. فقد قال القاضي:" اتضح من القانون أنك لم تستطيع أن تجد مبرراً للتشهير". وقال أيضاً:"ربما تجد هيئة المحلفين أن (زنجر) قام بطبع وتوزيع تلك الأوراق، ثم تترك للمحكمة حق الحكم بما إذا كانت تلك الأوراق تشهيرية". بعد ذلك علق" هاميلتون" على قول المحكمة بقوله إن ترك الأمر للمحكمة لتحكم ما إذا كانت تلك الأوراق يقصد بها التشهير "يجعل هيئة المحلفين عديمة الفائدة"، كما أشار إلى ذلك" تشارلز جيمس فوكس". بعد هذا الحدث بستة عقود في عام 1792 عندما أعاد القانون الذي أصدره لهيئات المحلفين بريطانيا الحق في تقرير ما هو قذف وتشهير، وما إذا كان المدعي عليه مذنباً، ولا يترك الأمر للقاضي. أدى إيجاز "هاميلتون" للقضية في تلك الكلمات إلى توسيع دائرة القضية إلى أن أصبحت إحدى القضايا التي كان لها شديد الأثر على حرية كل من يخضع للحكم البريطاني" في جميع أنحاء أمريكا"، كما كان لها تأثير شديد على القدرة على التعبير والكتابة عن الحقيقة. وهكذا، أصدرت هيئة المحلفين حكمها بالبراءة. كما يذكر "دوجلاس ليندر" في تعليقه على هذا الحدث:" إن محاكة (زنجر) قصة تاريخية تتحدث عن مستمرة منقسمة، وعن بداية الصحافة الحرة، وعن الاستقلال العتيد للمحلفين الأمريكيين".

رغم أن "التحول النموذجي" **paradigm shift** الذي يمثله الحكم ببراءة "زنجر" ذو مغزى كبير، إلا أنه أيضاً يوضح ويظهر المشكلات التي ينطوي عليها فليل التحول النموذجي؛ فعملية التصنيف **categorization** يمكن أن

تصبح في غاية البساطة والوضوح عندما يكون التحليل التاريخي- في واقع الأمر- مشوشاً ومعقداً. لذلك. فقد دامت مرحلة" ليبمان" الثانية – على سبيل المثال – حوالي مائة عام في الولايات المتحدة؛ كما أنها استمرت لأكثر من ذلك بالنسبة للكثيرين في معظم أنحاء أوروبا حيث استطاعت الصحافة السياسية البقاء بالتوازي مع انتشار الصحافة التجاري. ففي بريطانيا مثلاً، يعتبر عمل "جون وايكس" **John Wilkes** مؤثراً جداً في تحرير الصحافة من القيود الحكومية. مكان "وايكس"يجمع ما بين عمله كصحفي وبين كونه سياسياً راديكالياً، ولذلك فقد اكتشف – مثل "جون بيتر زنجر"- أن عمل شخص ما يمكن أن يكون معادياً لشخص آخر. دخل "وايكس" البرلمان في عام 1757 فمثلاً "آليسبوري". وفي عام 1762 أنشأ صحفية " نورث براتيون" الأسبوعية، وهي صحيفة كانت تشن هجوماً على رئيس الوزراء في ذلك الوقت" إيرل[1] بلدة بوتيه" **Earl of Bute** الذي كان صديقاً مقرباً للملك "جورج الثالث" بصفة مستمرة.

في الثالث والعشرين من أبريل عام 1763، نشر" وايكس" مقالاً في صحيفة "نورث برايتون" انتقد فيه خطاب الملك "جورج الثالث" في افتتاح البرلمان حيث دفع بالموافقة على معاهدة باريس للسلام مع فرنسا وأسبانيا، وهي اتفاقية انتهت سبع سنوات من الحرب شعر الملك بالإهانة فقرر – بالاتفاق مع وزرائه – مقاضاة"وايكس لإعلانه القذف والتشهير. في جلسة المحكمة حكم رئيس هيئة المستشارين بأن عضو البرلمان يتمتع بالحصانة، ولهذا فإن "وايكس" لا يمكن القبض علية بتهمتي القذف استقبل حكم البراءة بترحيب شعبي واسع، فغادر "وايكس " المحكمة "كبطل الحرية". كان " لوايكس" عمل في نفس أهمية ذلك العمل وهو دورة الرئيس في إجبار الحكومة على الاعتراف بحق أصحاب المطابع في نشر محاضر جلسات المناقشات البرلمانية. على سبيل المثال،

[1] الإيرل : لقب انجليزي (المترجم).

اكتسبت صحيفة "التايمز" اللندنية شهرة واسعة ظلة القرن التاسع عشر بأنها "الصحيفة الوثائقية" لدأبها على نشر التقارير الحرفية لفترة طويلة بعد أن توقفت الصحف الأخرى عن نشر مثل تلك التقارير.

لذا فقد كان هناك فوائد عديدة لوجود صحافة حرة وحزبية تضم آراء عديدة ومتنوعة. فقد استطاعت هذه الصحافة جذب الناس نحو المشاركة في العلمية السياسية. كما أنها بلا ريب قد حفزه نحو الجدال السياسي، كما أثرت تأثيراً إيجابياً على أداء الناخبين في عملية الانتخابات. في أمريكا (في فترة ما قبل الحرب الأهلية) ارتفع عدد أصوات الناخبين مثلاً من ما يقرب من 25% إلى ما يقرب من 80% في عام 1860. وأثناء هذه الفترة التي شهدت تطور الصحافة، حيث كان الصحفيون أنفسهم يعملون بالسياسة بشكل أو بآخر إما من خلال دعمهم المادي للصحف أو من خلال تحريرها، لم يكن ثمة تفرقة بين الدورين. وفي نفس الوقت، نادراً ما كانت تتم محاولة الجذب انتباه القراء لمثل تلك التفرقة. كان هناك ثلة قليلة على دراية بالنزاعات المتحملة التي تعتمد على المصالح بين أصحاب الصحف وبين العاملين بالسياسة كما يحدث في يومنا هذا.

الصحافة والاستقلال

جسدت مسيرة كل من "زنجر" و"وايكس" التغيرات التي طرأت على العلاقة بين الحكام والمحكومين التي برهنت على أهميتها في الانتقال إلى مرحلة "ليبمان" الثالثة لتطور الصحافة؛ نهاية التأثير السلس المباشر للحكومة والأحزاب على الصحافة. ففي أمريكا شهرت سنوات قبل وأثناء الثورة (1775-1783) عمليات قمع وإغلاق وتهديد الصحف. فصحيفة "عين على ماساشوسيتس" التي كان يصدرها" إشعياء توماس" كانت دائماً ما تتعرض للتهديد منذ إنشائها في عام 1770 حتى اشتعال الثورة؛ كان اتهامها المستمر هو اتهامها لأجندة

الراديكاليين التي كانت تثير غضب السلطات الاستعمارية البريطانية. وأثناء تلك الفترة التي كانت تتميز بالاضطرابات، أصبح هناك نقص شديد في طباعة الأخبار، ولم يكن هناك بديل كاف ليحل محل الطباعة، بالإضافة إلى الصعوبة البالغة في الحصول على الصحافة الأجنبية التي كانت تعد مصدراً هاماً للمعلومات.

كانت الصحافة عاملاً مؤثراً في تجربة القراءة العامة المشتركة، وهذه التجربة – سواءً كانت خاصة أو عامة – كانت عملاً سياسياً إلى درجة كبيرة لدرجة أنها كانت تمثل خيارات ثقافية أو أفكاراً اجتماعية. لذلك، كان لابد أن تتحول الأمور الشخصية إلى أمور سياسية نتج عنها وجود ما يسمى الرأي العام. وقد اجتمع الرأي العام في أمريكا على وجود شعور عصير تتهدمه عملية الاستقلال. لقد أصدر الكونجرس فعلاً إعلان الاستقلال في السادس من يوليو عام 1776 ونشر في صحفية" فيلادلفيا المائية". ثم طبع في عدة نسخ في الصحف الأخرى، كما تمت طباعته في كتيبات صغيرة؛ وهو ما عرف باسم انتقادات "دانلاب".

كان هدف الصحف التي نجت من الثورة تكوين دولة تجمع الولايات التي لا تزال حينئذٍ مفككة فيدرالياً، لكن اتضح أن العديد من القضايا التي سبقت عهد الثورة لم تحل بعد. فالصحف لم تكن محتمل عبر البريد بصورة رسمية، بل كانت تخضع لتعرف سعاة البريد. كما أن عملة ولاية ما لم تكن تقبل بالضرورة في الولايات الأخرى، وكانت الصحف ذاتها تتعرض لفرض الولاية ضرائب خاصة عليها وعلى إعلاناتها. ومع ذلك فالأمر الذي لم يكن هناك ومفر منه هو أن الرأي العام كان ينمو بسرعة هائلة وبقوة ضد القيود القانونية، وأصبحت حرية الكلمة في جميع الصحف أمراً بديهياً. وهكذا أصبحت الصحافة في غاية الأهمية، ليس في نقل الأحداث بالتحول من الحكم الاستعماري إلى الحكم الجمهوري فقط، بل أيضاً لأنها كانت تضم جميع

الناس لتتحدث إليهم ونيابة عنهم:" كان الصحفيون كدعاة راديكاليين يستطيعون التعبير عن لحظة معينة يتطلع فيها الناس إلى المشاركة في الحياة السياسية".

في بريطانيا، شكلت أولى محاولات بناء وفهم الرأي العام جزءاً من فيلسوف علم الأخلاق "جيريمي بنثام" الذي تضمنه كتاب" مبادئ الأخلاق والتشريع" الصادر في عام 1781. لقد سعى "بنثام" إلى تقييم المحتوى الأخلاقي للفعل البشري بالتركيز على نتائج أو آثار هذا الفعل. وللوصول إلى هذا الهدف، اقترح مبدأ المنفعة Utility الذي يهدف أساساً إلى تحقيق السعادة الكاملة لعدد أكبر من الناس, وقد وصف الرأي العام بأنه عقوبة معنوية أخلاقية ضد تعسف الحكومة في استخدام السلطة على المحكومين. كان التعسف الموجود حينئذ واضحاً لدى الجماعات الراديكالية في بدايات القرن التاسع عشر. على سبيل المثال، لم يرتب" ويليام هازليت" William Hazlitt -الناقد الأدبي والفيلسوف –في أن:" مصالح الحكومة (عندما تصبح مطلقة ومنفصلة عن الشعب) يجب أن تتعارض بصورة مباشرة مع مصالح الحكومة".

لذلك فقد كانت مصالح الحكومة بصفة مستمرة مع مصالح الصحافة، وكانت تلك المصالح دائماً ما يتم التعبير عنها طيلة القرن الثامن عشر من خلال فرض الضرائب والجبايات. ومع ذلك، فقد شهدت العقود الأولى من القرن التاسع عشر طفرة في الصحافة الراديكالية التي لعبت دوراً كبيراً في إلغاء الرقابة الحكومية تدريجياً.

فالخطوة الأولي : كانت إلغاء الرسوم المفروضة على الإعلانات في عام 1853،

والخطوة الثانية : تم إلغاء الرسوم المفروضة على الطوابع في عام 1855،

والخطوة الأخيرة : تم إلغاء الرسوم المفروضة على الورق في عام 1861.

أدت تلك التغيرات إلى وجود "فترة انتشار موسع للصحافة، حيث نشأ الكثير

من الصحف المحلية اليومية في جميع المراكز الحضرية الرئيسية في بريطانيا".

ومع ذلك، فعلى عكس الولايات المتحدة كانت الصحافة السياسية، أو على الأقل الصحافة ذات الانتماءات السياسية في بريطانيا تسرى في مسار جيد. فقد أوضح المؤرخ" آلان لي" كيف تحولت الصحافة الإنجليزية اليومية بين أعوام 1837 و1887 ببطء شديد من صحافة سياسية بدرجة عالية (فما يربو على 97% من الصحف كانت ذات انتماءات سياسية في عام 1837) إلى صحافة استطاعت أن تؤكد استقلالها عن السياسات الحزبية في نهاية القرن(فحوالي 50% منها فقط كانت ذات انتماءات سياسية بحول عام 1887). وفي لندن وحدها تحالف حوالي 10% من الصحف مع حزب سياسي معين بصورة سافرة في عام 1887. هذا التأكيد على الاستقلال السياسي كان يجب أن يستمر حتى في القرن العشرين.

رغم ذلك فإن رجال السياسة على جانبي المحيط الأطلنطي - بغض النظر عن انتماءات الصحافة -كانوا يسعون إلى اكتشاف قدرة الصحف كوسيلة لأجندات إقناع الناخبين. وقد ساهم الصحفيون والكتاب الآخرون – منذ عهد "بنيامين فرانكلين" وحتى "أليكس دو توكويفي". في خلق مناخ انفتح فيه الجمهور على أفكار سياسية جديدة، وربما من المفارقات أن كان أمريكا الانجليزي "توم بإين" هو أحد أولئك "الدعاة الراديكاليين" من ذوي النفوذ الأكبر.

سيرة ذاتية

توم بايين

أصبح "توم بايين"Tom Paine مؤلف وناشر الكتيبات (الكراريس) pamphleteer. لقد ولد في "ثيتفورد" بانجلترا عام 1737 ابنا لصانع

مشدات الخصر (الكورسية). ومن تلك البداية المتواضعة أصدر الكتب الثلاثة الأكثر مبيعاً في القرن الثامن عشر. كان كتبه" الحس العام" Common Sense هو الأكثر مبيعاً في عام 1776،كما كان هذا الكتيب يمثل المرجع الثقافي للديمقراطية الأمريكية حيث يخضر المواطنين المعتدلين أو المترددين على الانضمام لجانب الثورة. وكان للكتيب" خاصية جمهورية"، كما كان يعرض خطاباً جديدا يعبر عن روح العدالة والمساواة التي شرعت في الظهور. إن كل مواطن أمريكي متعلم يعرف جيداً أفكار" باين" التي تضمنها إعلان الاستقلال في خلال ستة أشهر فقط.

انتقل "باين" إلى أمريكا بعد لقائه "بنيامين فراتكلين" في لندن عام 1774، وكافح ضد وطنه"بريطانيا" في الثورة الأمريكية. كتب للعديد من الصحف؛ وفي صحيفة "بنسلفانيا جورنال"، العدد الصادر في 18 أكتوبر 1775 كتب قائلاً:" لم أتردد ولو للحظة واحدة في أن أومن بأن (سبحانه وتعالى) لابد أن يفصل أمريكا عن بريطانيا في نهاية المطاف". سمه استقلالاً، إن أردت، لقد تحققت مشيئة اللـه والبشر". وبعد ذلك، وفي نفس الصحيفة (في 19ديسمبر عام 1776) كتب :" إن الطغيان - كالجحيم - ليس من السهولة أن يقمر، ولكن عزاءنا الوحيد هو أنه كلما الصراع أكثر قسوة، كلما كان النصر عزيزاً مجيداً".

كتب تلك الكلمات على مرأى ومسمع من القوات الأمريكية في كل مخيم عسكري، كما أظهرت التقريرات أن حوالي نصف السكان كانوا قد اطلعوا على محتوى كتيبات "باين". كان عمله الرئيسي التالي هو "حقوق الإنسان" الذي صدر عام 1791 وتم بيع 200000 نسخة منه خلال ثلاث سنوات، وكان مصدر إلهام العديد من النشطاء

أكثر من أي مؤلف راديكالي آخر حتى صدر "البيان الشيوعي" the Communist manifesto في عام 1848. في ملحق "الحس العام" كان "بايين" قد كتب :"إننا نملك القوة التي يمكن أن نبدأ بها العالم مرة أخرى"؛ تلك الكلمات ترددت بعد 57 عاماً تقريباً في ملاحظة كارل ماركس الشهرة التي دونت على قبره مقرت "هاريجيت" بلندن: " لقد فسر الفلاسفة العالم بطرق متباينة،ومع ذلك فإن الهدف تغيير هذا العالم".

بحلول عام 1809 كان قد تم بيع 1.5مليون نسخة من كتاب " حقوق الإنسان" في كل أنحاء أوروبا. كما تم بيع عدد هائل منه في أيرلندا رغم الحظر الذي تم فرضه على بيعه في بريطانيا. وقد أعلن" بايين" أنه لا يسعى إلى الربح من هذا العمل، لذلك فإذا أراد أي فرد أن يعيد طبعه ونشره فله الحق في ذلك. لقد أراد دولة تشجع على "عدم حظر نشر الأفكار"؛ دولة تعمل على نشر الأفكار عبر قنواتها المختلفة؛ دولة تعمل على دعم الإنسان المتحضر. لقد اعتبرت كتاباته عن الحكومة الديمقراطية، والتمرد، والحرية مصدر إلهام لمئات الآلاف من الجماهير في نهاية القرن الثامن عشر، رغم أن أهمية تأثير "بايين" تكمن في القاعدة الأيديولوجية التي أتاحها للصحافة الراديكالية أثناء القرن التاسع عشرة توفي "بايين" في نويورك عام 1809.

إحدى نتائج الوعي السياسي الجديد الذي ساعد في تحفيزه أناس مثل "توم بايين" كانت تتمثل في أن دور الصحفي أصبح مجدداً بطريقة أكثر وضوحاً. فقد أتاحت الصدامات بين ناشري الصحف والسلطات قبيل الثورة حافزاً ثقافياً واجتماعياً جديداً. لقد كشف الخطاب السياسي والصحف التي كانت تعبر عن

حرية جديدة، كما أصبح دعم المعلومات السياسية أساساً نبت عليه الصحافة شرعيتها المهنية. لذلك، يحدد أول تعديل تم إدخاله على الدستور الأمريكي كلاً من الصحافة وحرية الكلمة والعقيدة على وجه الخصوص كمجالات لا يمكن إصدار تشريعات مناهضة لها.

لقد أدى ذلك إلى ظهور فكرة "الحصانة الإعلامية" **media immunities**: وهو مفهوم الإعلام كوسيلة للتواصل الاجتماعي وكصناعة تختلف تماماً عن أية صناعة أخرى، وبذلك فإنها جديرة بأن تنفرد بمعاملة خاصة من قبل القانون. ومع ذلك - كما يظهر المسار التاريخي لأجهزة الإعلام - تعتبر حرية الصحافة مفهوماً نسبياً. فيمكن تمرير قوانين أخرى في أغلب الأحيان تشكل تحديات لهذا المبدأ المطلق؛ هذه التحديات تتجسد في: القذف والتشهير، وانتهاك السرية، والأسرار الرسمية، والفحش، والمنافسة الاقتصادية.

التعديل الأول

يتيح التعديل الأول **the First Amendment** المستلهم من الحركة التنويرية للدستور الأمريكي حق محاسبة الحكومة على أعمالها، كما ينُص على أن: "لا يجوز للكونجرس أن يسن قانوناً يحظر حق الشعب في التجمع السلمي، وتقديم التماس للحكومة لتصحيح المظالم". والسبب الجوهري وراء مثل هذا النص الشاعري كان تشجيع الصحافة على أن تبدأ الخطاب العام وتداوم عليه. لكن ثمة عوامل أخرى - تأثرت كثيراً بنتائج النزعة التجارية - قد تدخلت في هذا "الخطاب العام" على مر السنين لدرجة أن العديد من المؤسسات الجديدة قد أظهرت سلوكيات "غير أخلاقية" إما أنها قبلت تماماً أو تم التغاضي عنها.

ثم أدلة عديدة تبرهن على أن أجهزة الإعلام تعمل باستمرار بأسلوب شقاقي من خلال تهويل الأحداث وانتهاك الخصوصية وتشويه السمعة. هذه الفكرة (أن الخبر "شيء" خال من أية قيمة ويمكن أن ينقل بكل بساطة بهدف جني الأرباح

من ورائه) كان يعتبرها الآباء المؤسسون انحرافاً خطيراً وخبيثاً. لقد ذهب "توماس جيفرسون" إلى ما هو أبعد من ذلك حيث أطلق على الصحافة اسم "مجموعة من الكذابين الذين يجب إلقاؤهم في غياهب السجون". إن حالة "أنتوني هاسويل" النموذجية تعكس مشاعر "جيفرسون" نحو الموضوع وتختبر مصداقية التعديل الأول. فقد كشف انتصار "هاسويل" التغيرات الكبيرة في الرأي العام الذي أكده الدستور الجديد.

ملفات حقائق

أنتوني هاسويل وحرية الصحافة

أصبحت حادثة "هاسويل" **Haswell** اختباراً مبكراً للتعديل الأول إذ أنه يتعلق بحرية الصحافة. كان "أنتوني هاسويل" - البريطاني المولد - نصيراً للحزب الجمهوري الديمقراطي الذي أسسه "توماس جيفرسون"، وقد عينه "توماس تشيتينون" حاكم ولاية فيرمونت أول مدير عام للبريد في الولاية عام **1784**. كما أسس صحيفة أسماها "فيرمونت جازيت". كان أول إصدار لهذه الصحيفة في الخامس من يونيو عام **1783** في "بيننجتون"، العاصمة الفعلية.

رغم العديد من الوظائف الرسمية التي تولاها "هاسويل" إلا أنه كان ناقداً لاذعاً للرئيس "جون آدمز" ولمبادئه ولسياسات إدارته. لكن مساعدته لأحد أصحاب المطابع من المعارضين للنظام الفيدرالي (ماثيو ليون) أدت إلى اعتقاله ووضعه في السجن حسب نص قانون التحريض لعام **1798**. كان "ماثيو ليون" عضواً في الكونجرس وقد اتهم هو ذاته بمخالفة قانوني الأجانب والتحريض اللذين يحظران الكتابة الكَيدية عن الحكومة

الأمريكية أو عن المسئولين فيها. نشر "ليون" نقداً للرئيس الفيدرالي "جون آدمز" في صحيفته "سوط الأرستقراطية" The Scourge of Aristocracy، فحكم عليه بالسجن أربعة أشهر وغرامة 1000 دولار. وعندما كان يقضي العقوبة داخل السجن، فاز بانتخابات الكونجرس للمرة السادسة.

قام "هاسويل" بمناصرة "ليون" على الملأ، ونظم مسابقة لليانصيب lottery بهدف تكوين مبلغ 1000 جنيه للإفراج عن "ليون". كان الإعلان عن تفاصيل مسابقة اليانصيب هو الذي أدى إلى اعتقال "هاسويل" واتهامه ومحاكمته، ثم إدانته وتغريمه، ثم إلى سجنه بناءً على أمر الحكومة الأمريكية بنص نفس قانون التحريض. انتهت محاكمة "هاسويل" بتغريمه 200 دولار بالإضافة إلى السجن لمدة شهرين. وداخل السجن، سمحت الإدارة "لهاسويل" بمواصلة كتابته لصحيفة "فيرمونت جازيت"، وزادت شهرته. وعندما أفرج عنه، استقبله ما يزيد عن ألف شخص أمام السجن.

كان قانونا الأجانب والتحريض - اللذان مررهما الكونجرس في عام 1798 - أول ما اعترض التعديل الأول مباشرة حيث ينصان على السماح باعتقال المواطن الأمريكي لما يقوله أو يكتبه. في عام 1800، تم انتخاب "توماس جيفرسون" رئيساً فأصدر عفواً عن جميع محرري الصحف الذين تم اتهامهم حسب نص قانوني الأجانب والتحريض؛ وهو القانون الذي انتهى بذاته.

ظل نظام الديمقراطية الذي نشأ حديثاً في الولايات المتحدة - بالإضافة إلى صحافة أصبحت الآن متحررة من أية سيطرة استعمارية - يدقان ناقوس الخطر إزاء قانوني الأجانب والتحريض، لكن التراث الخاص "بهاسويل" أوجزه الإعلامي الأكاديمي "جيري بالداستي" في قوله: "إن الضمانات القانونية العديدة

للصحافة في المجتمع الأمريكي تقوم أساساً على فكرة أن الصحافة توفر المعلومات الضرورية للناخبين المستنيرين، وبذلك فإنها هي ذاتها ضرورية للديمقراطية".

في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت الصحف الحزبية تشجع الجدل السياسي بأسلوب أصبح بعد ذلك خطاباً ديمقراطياً مسانداً، لكن اللهث وراء عوائد الإعلانات شرع في إبطاء عملية تقويض المبادئ الشمولية التي كانت تتميز بها مثل تلك المجادلات.

في نهاية القرن أصبحت مشاركة الصحافة في الجدل الديمقراطي مشروطة بالتوزيع السكاني الذي حفز عمليات الإعلان التي تستهدف جذب أموال المستهلكين من الأغنياء. ربما كان للفقراء صوت يُسمع، لكن تم إقصاؤهم من هذا العالم البراق الجديد بسبب فقرهم. والأثر التدريجي لتزايد الإعلانات – وبناءً عليه تزايد الاهتمام بمصالح المعلنين بالتضامن مع سلسلة الملكيات القومية – أدى إلى زيادة مكاسب الشركات الإعلانية التجارية الخاصة على حساب الخدمات العامة العريضة. سوق نقوم بعرض لتحليل تلك العملية بالتفصيل في الباب الثاني.

ما هو تأثير مثل هذا الاهتمام بالأخبار الموجهة للمستهلك على الديمقراطية؟ يذكر "بالداستي" Baldasty: "كان القراء لا يتكفلون سوى القليل لشراء الصحف في عام 1900 ولكنهم كانوا يدفعون أكثر بطرق مختلفة. فقد كانوا يتلقون كماً هائلاً من (الأخبار) التي يستمتعون بها لفترة محدودة جداً، لكن لم يتح ذلك الفرصة لهم للتفاعل مع واقع بلدتهم أو وطنهم أو عالمهم. لقد كانت زهيدة الثمن في الماضي لا تمثل صفقة جيدة". وبالمثل، أصبحت التقارير السياسية عرضة لتقلبات النزعة التجارية. لقد ذكر "موبرلي بيل" مدير إدارة صحيفة التايمز اللندنية "لوينيستون تشيرشيل" عام 1893 أن: "الأحاديث الكبيرة تخضع لقوانين الهواء التي لا ترحك"، كما أضاف أن: "رجالات الدولة

قليلاً ما يعرفون أن (طول) تقاريرهم يعتمد أساساً على جودة الإعلانات. فلو أن لدينا ما يكفي لتبرير حديث طويل أو مقال كبير، في هذه الحالة يمكن أن يمنحك ما يكفيك من مساحة".

نستطيع أن نزعم أنه في عصر الإلكترونيات الحالي أصبحت المعلومات متاحة مجاناً إلى درجة أن التعديل الأول للدستور أصبح الآن مجرد ذكرى تاريخية؛ فلن تستطيع أية حكومة أن تعمل على تقويض حرية الصحافة، ولو سعت إلى أن نفعل ذلك، فإن وفرة أو تعدد أجهزة الإعلام ستضمن أنه إذا منعت إحدى تلك الأجهزة من نشر خبر ما، فثمة أجهزة أخرى عديدة ستقوم بتلك المهمة. وحتى دور الصحافة "كحارس" - أو كصانع قرار لما ينبغي أن ينشر - يواجه اليوم تحديات من قبل شبكة الإنترنت وتعدد الوسائل الإعلامية الأخرى. بناءً على كل ذلك، من الصعوبة بمكان فرض القيود على حرية الصحافة وحرية الإعلام بوجه عام، بل لا يمكن النكوص بها إلى الوراء. ومع ذلك، فلو قبلنا - حسب رأي اللورد "نورث كليفس" - أن الخبر يمكن لأي فرد في أي مكان يعمل على قمعه، فالتاريخ يبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن المصالح الخاصة على أهبة الاستعداد دائماً لمنع تلك الحرية باسم أمان العالم، والحرية الجماعية، والمشروعية التجارية، أو باسم أي من تلك الاصطلاحات والمفاهيم المخادعة.

بلوغ سن الرشد - مراحل حرية الصحافة

في مؤلفه "حق المعرفة"، رسم "إدوارد فرانسيس ويليامز" محرر صحيفة "ديلي هيرالد" السابقة في بريطانيا صورة لحرية الصحافة (تصور صورة مصححة لمراحل قطور العمانة لدى "والتر ليبمان") وهي تشتمل على أربع مراحل: المرحلة الأولى، يتميز المجتمع السياسي المبكر بوجود الرقابة والترخيص، لكن بما أن شهية الجمهور للأخبار في ازدياد مستمر، فقد أدى ذلك إلى زيادة في طلب حرية التعبير عن الرأي. هذا بدوره يشجع على خلق شخصية قوية للصحافة. في بداية

الأمر، يتخذ شكل محرر. ولكن تدريجياً، يتولى الأمر كل من الناشرين ورجال الأعـمال حتـى تـأتي المرحلة النهائية يأتي عصر الصحافة كعمل تجاري.

هذا التقدم نحو الحرية كثيراً ما يتم التنازع بشأنه، لكن بما أنه الآن يتعلق نوعاً مـا بـالتحرر مـن القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسـع عـشر في فرنـسا وبريطانيـا تتميـزان بعـراك دائـم ضـد الرقابة. فقد بدأت الصحف العمل، ثم تم قمعها، ثم بدأت عملهـا مـرة أخـرى وكأنهـا جـزء مـن "حرب العصابات" بين الصحافة والسلطات. ففي بريطانيا مثلاً نشر "هنري هيثرنجتـون" صـحيفة "بورمانز جارديان" (عام 1831) كصحيفة أسبوعية دائماً مـا كانـت تجـذب انتبـاه الجمهـور إلى اعتراضها على دفع رسوم على الطوابع الحكومية. قـال "هيثرنجتـون" إن "الـصحيفة قـد تأسـست بالمخالفة مع القانون لتغليب (القوة) على (الحق) **might against right**".

ولقد تم تغريمه أكثر من مرة في أكثر من مناسبة، كما حكم عليه بالسجن في عـام 1833 وأيـضاً في عام 1836، بل وتم مصادرة مطابعه، ثم تدميرها في عام 1835.

عندما ازدادت صفوف "المناضلين من أجل الحرية"، بدأت مرحلـة "ويليـامز" الثانيـة في الظهـور. فقد وجدت الحكومات نفـسها الآن مـضطرة إلى تقبـل المطالبـات بـصحافة حـرة وإلغـاء الرقابـة والترخيص، كما أن "الضرائب على المعرفـة" تـم الـتخلي عنهـا مقابـل المزيـد مـن الـسيطرة الأكـثر تعقيداً والأقل تطفلاً على طبيعة التعبير ممثلة في قوانين التحـريض والتـشهير والقـذف والازدراء. فهذه القوانين تم تنقيحها ثم تعديلها عـلى مـر الـسنين، لكـن القـوانين المفروضـة عـلى الرقابـة – وخاصة الرقابة على المحتوى الصحفي – فبدلاً من أن يتم تطبيقها على الوجـود المـادي للـصحيفة فقد تم تعليق العمل بها تماماً في القرن العشرين في كل من أمريكا وبريطانيا.

سيرة ذاتية

إدوارد سميث هول- الرائد الاسترالي

هناك أمثلة كبيرة في العديد من الدول على الصحفيين الرواد الذين وأبوا على شحن حملات للمطالبة بحرية التعبير على صفات جرائدهم. في استراليا كان "ادوارد شميث هول" **Edward Smith Hall** من أكبر المشاركة في تحقيق حرية الصحافة، وتأسيس حكومة الظل، كما حوكم من قبل هيئة محلفين تحت الاستعماري البريطاني. في عام 1826، أصدر صحيفة " سيدني مونيتور" يتحدي فيها السلطات، وأعطي أهمية بالغة لرسالة أحد القراء التي يذكر فيها أنه من الأفضل لكل صحفي أن يكون "معارضاً قوياً وعنيداً أفضل من أن يكون طفيلياً مخلصاً للحكومة".

لقد استغل صفحات جريدته الأسبوعية لشحن حملة ضد السلطات المتشددة التي يتمتع بها "رالف دارلنج" الحاكم العام واستغلاله للسخرة، فقضى أكثر من عام في الشجن وأثناء وجودة بالسجن استمر في تحرير وإصدار جريدة. كان دائماً- وبصفة دورية- يتم اتهامه أمام المحاكم العسكرية في قضايا تشهير جنائية يكشف فيها عن فسار المسئولين والقضاة والهيئة المعاونة للحاكم، ولشنه حملات للدفاع عن حقوق المسجونين من المدنيين ومن أفرج عنهم. وفي نهاية المطاف، تم استدعاء الحاكم"دارلنج" إلى لندن، وأقيم حوار عام. وقبيل وفاة" هول" عام 1861، كان هناك 50 صحيفة مستقلة

في مقاطعة "نيوسادت ويلز" بمفردها، ومع ذلك فلم يعلم معظم الاستراليين بأمر"إدوارد سميث هول".

خلال تلك الفترة، تجسد دور الصحافة كسلطة رابعة في المملكة لدى بعض الصحف مثل صحيفة "التايمز" اللندنية كوسيلة لإخفاء الشرعية على دورها المؤسسي في وقت تسيطر عليه الصراعات الاجتماعية الكبرى. رغم أن هذه الصحيفة الموقرة كانت تحصل على دعم من الحكومة في فترة سابقة إلا أنها في منتصف القرن التاسع عشر كانت مربحة، فاستقلت مالياً، واستطاعت أن تحدد الفرق بين رجال السياسية ورجال الصحافة على صفحاتها وذلك من خلال استهلال حوار عن الرأي العام. وفي السابع من فبراير عام 1852، ذكر "روبرت لو" Robert Lowe- عضو البرلمان عن "كيرر منستر" وكبير كتاب صحيفة"التايمز" أن واجبات الدولة والسلطة الرابعة كانت "دائماً منفصلة ومستقلة بوجه عام، وأحيانا "ما كانت تتعارض". بل ذهب"هنري ريف" Henry Reeve- محرر الشئون الخارجية لصحيفة "التايمز"- إلى ما هو أبعد من ذلك حيث أعلن صراحة أن "الصحافة الآن هي بالفعل سلطة المملكة بالكامل؛ وهي أكثر قوة من السلطات الأخرى". ربما كان السياسيون البريطانيون وذلك الوقت يشعرون بالقلق من "استبداد صحيفة التايمز الكريه" فسعوا إلى تقييد حرية نشر تقاريرها، خاصة أثناء "حرب القرم" the Crimean War وفي أعقابها. ومع ذلك، فرغم كل تلك الجهود فقد "واجهت صحيفة التايمز المستقبل في ثقة تامة بنفوذها وسلطتها".

لقد تطورت قوة التعبير النقدي والمستقل- الذي توصلت غليه أجهزة الإعلام الإخبارية في القرن التاسع عشر بصعوبة بالغة- إلى درجة أن رجال السياسية في هذه الأيام - في محاولات للتأثير على الرأي العام - يبذلون قصارى جهدهم لغض الطرف عن الصحفيين باستغلال البرامج الحوارية talk Shows في كل من الإذاعة والتليفزيون، بل وعبر شبكة الإنترنت للاتصال المباشر مع جمهور

الناخبين. وهكذا، يبدو أن حرية الكلمة لم تتحقق بسهولة على الإطلاق.

المحرر، والإنترنت، والمجال العام

أحدث ظهور الشخصية القومية لمرحلة" ويليامز" الثالثة إحدى الفترات الأكثر شهرة وتأثيراً في تاريخ الصحافة على جانبي المحيط الأطلنطي. ففي المرحلة الوسطى من القرن التاسع عشر استطاعت الصحف أن تحقق الاستقلال في الاكتفاء الذاتي بصورة كبيرة من خلال الإعلانات وأرباح المبيعات. وقد تهيأت تلك المرحلة لبروز المحرر الصحفي "كشخصية" في حد ذاته. فكان "توماس بارنز" **Thomas Barnes** محرر صحيفة "التايمز" اللندنية منذ عام **1817** وحتى عام **1841** أول رئيس تحرير حقيقي لجريدة يومية. كانت قوته تتمثل في عقل واع وأصيل يتناغم في تفكيره مع كل هموم واهتمامات القراء والجماهير. وكانت سلطته واسعة إلى درجة أن اعترف بها وزير العدل المحافظ حيث ذكر أن: "بارنز هو أقوى رجل في الدولة". أما "دبليو ستيد" رئيس تحرير صحيفة "بول مول جازيت" ما بين عام **1883** وعام **1889** فكان على ثقة تامة من مكانة "بارنز" إلى درجة أنه أعلن في عام **1886** أنه: "قبل كل شيء، فهو (أي بارنز) أفضل رجل يستطيع أن يكون هذا الوقود – أي الرأي العام – الذي يعد أعظم قوة سياسية". وأما "كندي جونز" محرر صحيفة "أخبار المساء" اللندنية فكان له الفضل في إدخال "ألفريد هارمزوورث" عالم الصحافة اليومية. فقد أقنع "هارمزوورث" بشراء صحيفة "أخبار المساء" التي كانت ترزح تحت وطئة ضائقة مالية. فكان نجاحها بعد ذلك سبباً جوهرياً لاتخاذ "هارمزوورث" قراراً بإصدار "الديلي ميل" كصحيفة يومية خاصة به. أصبح "كندي جونز" معروفاً في "فليت ستريت" بأنه "الداعم الأكبر" لصديقه "هارمزوورث"، كما أنه قد لعب دوراً فعالاً وجوهرياً في تأسيس إمبراطورية "هارمزوورث" للصحف والمجلات التي يطلق عليها "الصحافة المدمجة".

لقد كانت علاقة المحرر بالمالك هي القضية الأقل تأثيراً في الصحافة الأمريكية. فالمحررون الأمريكيون الأوائل كانوا في الغالب هم المالكين. تولى "ناثان هيل" Nathan Hale تحرير صحيفة "بوسطن ديلي أدنيرتايزر" بعد أن اشتراها في بادئ الأمر عام **1814**. وقد قدم عدة تعليقات صحفية غير موقعة، بالإضافة إلى العديد من المقالات المؤثرة التي كانت متفردة ولا يوجد لها نظير في عصرها. أما "جورج ويليام تشايلدز" فقد اشترى صحيفة "فيلادلفيا بويليك ليدجر" عام **1864** في وقت كانت فيه الصحيفة تعاني من خسائر مالية فادحة. قام "تشايلدز" بتغيير سياسية التحرير من سياسة كونفيدرالية إلى سياسة اتحادية، ثم رفع معدلات الإعلانات، ثم ضاعف من ثمن الغلاف ليصبح سنتين اثنين.

رغم ذلك فقد كان "جيمس جوردون بينيت" - رائد الصحافة الصفراء في أمريكا و "بارون" الصحافة الأصلية الأولى - أحد رؤساء التحرير المالكين الأوائل الذين منعوا الصحافة السياسية من الظهور على صفحات جرائدهم. فكان "بينيت" يعتقد "أن الصحفيين كانوا يتسمون بالغباء عندما كانوا يعتقدون أنه من الأفضل لهم العمل على خدمة أغراضهم من خلال خدمة رجال السياسة". وفي عام **1835** استهل صحيفة "نيويورك هيرالد" كصحيفة تنظر إلى الأخبار كسلعة يتم تعبئتها ثم بيعها كأية سلعة أخرى متجاهلة المسئولية الاجتماعية للصحافة. لقد كتب "بينيت" قائلاً: "إننا نزدري كل مبدأ - أو هكذا يسمي - وكل حزب وكل سياسة. سيكون سبيلنا الوحيد هو الحس العام الجيد والسليم والعلمي".

فكان "هوراس جريلي" Horace Greeley يقف على الطريف النقيض ضمن هذا المجال، وبالنسبة للعديد من الناس كان "جريلي" يعتبر المحرر الصحفي الأبرز في الصحافة الأمريكية، لقد بدأ إصدار صحيفة "نيويورك تريبيون" في عام 1814 صحيفة صادقة وجديرة بالثقة في مواجهة صحيفة الإثارة "نيويورك

التحول الهيكلي للمجال العام، ذكر أن الرأي العام قد نشأ في أوروبا في القرن الثامن عشر، وكان أساساً للمجتمع المدني، كما كان يمثل منتدى للجمهور ليصلوا فيه إلى اتفاق من خلال الجدل المنطقي أو العقلاني. علاوة على ذلك فقد اعتبر أن "الرأي العام يمكن أن يظهر إلى الوجود تحديداً عندما يتواجد الجمهور الذي يفكر بطريقة عقلانية مسبقاً". والرأي العام لديه هو الرأي المتناغم لمجموعة خاصة من المواطنين الذين يعملون في المجال العام؛ وهو ما لم تكن سلطة الدولة لها علاقة به. وهو يشير إلى "مهام النقد والسيطرة التي تمارسها مجموعة من عامة المواطنين بطريقة غير رسمية في مواجهة الهيكل الحاكم المنظم في شكل الدولة.. والذي يعمل كمرجعية لمراقبة سلطة الدولة".

حسب رأي "هيبرماس"، أدت مجموعة متباينة من العوامل إلى فساد الرأي العام في نهاية المطاف، بما في ذلك ظهور وسائل الإعلام الجماهيري التجارية التي حولت الجمهور الناقد إلى جمهور من المستهلكين السلبيين. وقد أدى هذا بدوره إلى حالة من اللامبالاة السياسية، وإلى التمادي في المصالح الذاتية، سواءً كانت مصالح اقتصادية أو مادية، وإلى حالة من اللجوء إلى التهكم، ثم إلى الاغتراب الاجتماعي. وكلما أصبحت الصحافة تتجه نحو الأسلوب التجاري، كلما أصبحت "منبراً أو مسرحاً للإعلانات"، وكلما انحصر دورها كمنتدى للحوار الوطني.

واجه مذهب "هابيرماس" العديد من الانتقادات بسبب الصعوبة التي واجهها في إثبات صحة أي مفهوم من المفاهيم التي يشتمل عليها. وأي تجديد أو إحياء للمجال العام لدى هابيرماس" يتطلب في المقام الأول أن يكون الناس على دراية جيدة، ويتطلب بعد ذلك أن يكون الجمهور قادراً على إيجاد خطاب يشتملهم جميعاً؛ كلا المطلبين – على الأقل من الناحية النظرية – يمكن الوفاء بهما عن طريق الإنترنت وشبكة المعلومات الدولية. على

الأفراد لتحقيق المنفعة للجماعة بكاملها. إذاً فالسؤال هو ما إذا كانت الصحافة - كما نتصورها الآن - يمكن أن تخدم تلك الأغراض الإيثارية.

الأمر الذي قد يكون جيداً هو أن حماية التعديل الأول للدستور ونتائج قوى السوق التنافسية في الولايات المتحدة قد تمخضت عن شكل جديد من أشكال الصحافة التي تهتم كثيراً بالشئون الفردية وتصر على تلاحم المجتمع. أما في بريطانيا - من ناحية أخرى - فتعتبر سلطة مواد قانون التشهير في رأي الكثيرين أنها قد أنتجت صحافة خجولة وعاجزة عن أن تصنع المؤسسات والأفراد ذوي السلطة في حسبانها. ومع ذلك فرغم وجود مثل تلك "القيود" فقد أصبحت الفكرة التنويرية لحرية الكلمة مرادفاً لحريات أكبر تكمن في كيان الإنسان، كما أصبحت أيضاً فكرة مهيمنة لإيجاد مجتمع عادل. رغم ذلك فإن مثل تلك الحريات لا يمكن الحفاظ عليها إلا من خلال مجتمع يقظ بقدر ما هو ليبرالي.

الرقابة: رد فعل الجاهل مع الحرية

دائماً ما تلقى حرية الكلمة جهوداً معارضة من قبل الحكومات، بالإضافة إلى معارضة جماعات الضغط والمؤسسات التجارية في الآونة الأخيرة بهدف الحد من تلك الحرية. إن طريقة نقاش المجتمع حول الخط الفاصل بين مثل تلك الحريات المتنافسة ربما تعد علاقة على مدى ديمقراطيته. وهذا الأمر يعتبر حقيقة خاصة في أوقات الأزمات والحروب. لقد توصل "ميلتون" إلى نظريته في "الإيريوباجيتيكا" - التي يعبر بها عن دفاعه عن حرية الكلمة - أثناء الحرب الأهلية بإنجلترا. وفي كل مرة كانت الولايات المتحدة فيها تدخل أحد الحروب، كانت الأزمة تحفز بعض الناس على المطالبة بفرض المزيد من القيود على حرية الكلمة.

لقد كانت الأمثلة الأولى للرقابة تستهدف الصحافة كوسيلة اتصال مهيمنة.

عندما كان يتم حظر صحيفة أو مجلة أو يتم إسكات صوت الصحفيين العاملين بها، كان الأمر يتم بوضوح، ولكن الأمر الذي يتم بصورة غير واضحة تماماً هو ممارسة الرقابة الذاتية. إن مدى التزام الصحفيين بالتوافق مع الثقافات التجارية السائدة من خلال احتكار الأجندات الجديدة والقيم الإخبارية ظل دائماً يمثل صعوبة في تحديد الكم الذي يصل إليه. كما أن مدى استحقاق مثل هذا الاحتكار للوم على نشره للمعلومات المضللة يصعب أيضاً قياسه. والخطر بالطبع يكمن فيما لو حدث ذلك بدون تمدد الأحداث الإعلامية التي تعمل كمرشد ومصحح. ذات مرة، طلب من الصحفي والمؤرخ "ريتشارد ريفز" أن يعرف مصطلح "الخبر الحر" **Free news** فأجاب قائلاً إن: "الخبر الحر هو أنني أنا أو أنت نحتاج إلى الحفاظ على الحريات". ومع ذلك فبدون تعددية أجهزة الإعلام الإخبارية من المستحيل تقريباً تحديد الخبر الذي نحتاج إليه "من أجل الحفاظ على حرياتنا". ولكي يكون الخبر كذلك - كجزء من المبادئ الديمقراطية - فإنه يتطلب صحفيين على استعداد تام لبذل قصارى جهدهم بهدف تحقيق حرية الصحافة دون أن يخشوا فقدان وظائفهم أو حتى تعرضهم للسجن.

في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ثمة تاريخ طويل لصحفيين عانوا كثيراً من سجنهم، إما لنشرهم أعمالاً تناهض القوانين المجحفة، أو - في غالبية الأمر خاصة في العصر الحديث - لرفضهم الإفصاح عن المصادر الخاصة بهم أمام هيئة المحكمة. لقد عادت مشكلة الصحافة المزمنة إلى الظهور مرة أخرى في أمريكا أثناء المناظرات التي كانت تدور حول موضوعات مثل إلغاء العبودية حيث كان المطالبون بالإلغاء في مقدمة الداعين إلى حرية الصحافة. خلال الأعوام 1829 وحتى 1831 رفعت دعوى قضائية ضد اثنين من المطالبين بتهمة التشهير إثر شجبهم لمالك إحدى السفن وقبطانه لقيامهما بنقل العبيد. وفي عام 1886 حكم بالسجن على "جون موريس" مراسل صحيفة "بالتيمور صن" لرفضه

الإفصاح عن مصادره التي حصل منها على قصة كتبها عن فساد الشرطة وفساد المسئولين الـذين تم انتخابهم لتلقيهم رشاوي شركات القمار.

في عام 1863 حكم على صحفيين بريطانيين بالسجن لرفضهما الإفصاح عـن مـصادرهما في إحـدى محاكمات التجسس "المثـيرة" لموظـف مـن الأدميراليـة. اتهـم "جـون فاسـال" بالتجـسس لـصالح الاتحاد السوفيتي وحكم عليه بالسجن 18 عاماً. أما "ريجينالد فوستر" الذي كان يعمل بـصحيفة "ديلي سكتش" – وهي صحيفة غير موجودة الآن – ومعه "بريندان مالهولاند" من صحيفة "ديلي ميل" واللذان كان يطلق عليهما "الرجلين الصامتين" فقد حكم عليهما بالسجن: الأول ثلاثة أشهر، والثاني سـتة أشـهر. وقـد نظـر إلـيهما عـلى أنهـما الـشهيدان اللـذان كانـا يمـثلان إرهاصـاً لحريـة الصحافة،وقد وجدا نفسيهما وهما يتصدران الصفحات الأولى من الصحف التي كانا يعملان بها. ومع ذلك فربما تكون القضية الأكثر شهرة والتي اتخذت سمعة سيئة للغاية تلك التي تورط فيهـا صحفي يعمل لحسابه الخاص كما يعمل مدونا لتسجيلات الفيديو وهو "جومـشوا وولـف". فقـد رفض "وولف" تسليم مجموعة من شرائط الفيديو التـي قـام بتـسجيلها أثنـا مظـاهرة في " سـان فرانسيسكو" والتي قام خلالها المحتجون بإتلاف سيارة للشرطة. وفي النهاية قضى 226 يوماً داخل السجن قبل أن يفرج عنه بأمر من القاضي "ويليام ألسون".

هل يمكن أن نشعر بالتفاؤل وسط مثل تلك المحاولات التي تهدف إلى تكميم أفـواه الـصحافيين؟ طبقاً لما قالـه "ديفيـد مينـديش" David Mindich المـؤرخ الـصحفي: "إن لنـا تاريخـاً يـشتمل على أوقات عصبية مظلمة، ولقد خضنا حروباً طائشة، ثم استعبدنا جماعة، ونبذنا جماعة أخرى، ومـع ذلـك فقـد كنـا دائمـاً نثـابر في طلـب الديمقراطيـة التـي تمنـع المـواطنين الحـق في الحـديث والاصتجاج بناءً على أساس معلومات أصبحت للعديد منـا معلومـات مجانيـة وحـرة وبـلا قيـود. وفي مقابـل ذلـك، فالـشيء الوحيـد الـذي يجـب علينـا أن تفعلـه هـو أن تظـل جهـلاء". لقـد

لعب الصحفيون الذين عملوا خلال الإغراءات السياسية دوراً بارزاً ليس فقط في التأكيد على أن تكون المعلومات "حرة وبلا تصدد"، ولكن أيضاً في جعلها دائماً متصلة بالجماهير دون النظر إلى النتائج. ولكن هل يلعب الجمهور دور. وذلك باستهلاك تلك المعلومات وبذلك يظل مطلقاً؟ هل من واجبه أن يفعل ذلك واضحاً في اعتباره قائمة استدعاءات الصحفيين الذين ضحوا أثناء محاولاتهم قبل تلك المعلومات؟ من المؤكد أن قائمة الأسماء طويلة وستصبح أكثر طولاً. فثمة مواقع شبكية مثل موقع"مراسلين بلا حدود" **Reporter Without Borders** و"لجنة مراسلين من أجل حرية الصحافة" **Reports Committee for Freedom of the** قد نشرت قائمة بأسماء الصحفيين الذين تم الحكم عليهم بالسجن أو عانوا بأية طريقة أخرى في جميع أنحاء العالم.

لم تأل الحكومات أي جهد للسيطرة على أجهزة الإعلام إذ أن تلك الأجهزة وخاصة الحديثة منها- أصبحت جزء أمن البيئة الإخبارية. ولأن خدمات البريد قد تطورت كثيراً في كل أنحاء الولايات المتحدة، فقد حظر قانون" كومستوك" للتشهير الصادر عام 1873 إرسال أية مواد تنشر التشهير أو الرذيلة عبر البريد. تم تطبيق مثل تلك القوانين بنفس الطريقة على الصحفية،وبذلك كانت تلعب دور الرقيب على الصحافة. والمثال الجلي على ذلك ينطبق على حالة أب وابنه كانا يشكلان فريق" إدوارد بليس فوت"و" إدوارد بود فوت".كان كلاهما طبيبين يصدران مجلتهما الخاصة " المجلة الصحية الشهرية لدكتور فوت"، وهي مجلة بيعت منها نسخ كثيرة، كما ربحت من خلال الكثير من الاشتراكات. وعلى مدى خمسين عاماً في الفترة من نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كان الطبيبان يتحديان قوانين "كومستوك".

في عام 1876 اتهم" إدوارد بليس فوت" بانتهاك قوانين البريد لإرساله كتيباً طبياً بالبريد يدافع عن حق الأسرة في الحد من عدد أفرادها باستخدام أدوية"منع

الحمل". حكم عليه"بينيدكت" قاضي المحكمة الجزئية بالولايات المتحدة بدائرة جنوب نيويورك بالغرامة بدفع مبلغ 3500 دولار. وهكذا أصبحت مجلتهما رمزاً لحركة حرية الكلمة. كما ساعدت المجلة في دعم ثلاث منظمات تحررية راديكالية؛ الرابطة القومية الحرة، ورابطة الدفاع القومية، ومنظمة حرية الكلمة(وكلها مؤسسات كانت بداية للمؤسسات الحديثة التي تنادي بالحرية المدنية). وقد ساعدت رؤوس أموالها في دعم رائدة تحيد النسل" مارجريت سانجر" **Mirgret Sanger** وأصبحت مجلتها على رأس المجلات التي تنادي بحرية الكلمة، كما أدت إلى تغيير الرأي العام بصورة تدريجية.

خلف حقائق

مناظرات لتكوين ودوجلاس

في عام 1858 سادت أمريكا سلسلة من الخلافات والنزاعات للتسابق نحو أحد المقاعد بمجلس الشيوخ عن"إلينوا". كان ممثل الحزب الديمقراطي"ستيفن دوجلاس"- وكان أيضاً في مقدمة من سعوا إلى الانتخابات الرئاسة عام 1860 - يدعو إلى إعادة الانتخابات، وكان يعارضه منافس حديث العهد لم يمر عليه سوى دورة واحدة في الكونجرس يعمل محامياً من مدينة "سبرنجفيلد"، وهو"أبراهام كنولين". قام"لنكولين" بتحدي" دوجلاس" في العديد من المناظرات في "إلينوا" وهي مناظرات جذبت إليها أعداداً هائلة. وقد حضر المناظرات مجموعات كبيرة من جميع الماكن ذات الكثافة السكانية القليلة. في أول مناظرة من المناظرات السبع –وفي مدينة "أوتاوا" حيث تعداد السكان الذي لا يتجاوز 7000 نسمة- حضر ما بين 10000الى 20000 فرد فكان المشهد درامياً ممتعاً، كما كان أفضل مشهد المدينة، حتى أصبحت

السياسية مجالاً للتسلية، واستمر هذا الوضع حتى أواخر القرن التاسع عشر عندما جعل الإصلاحيون السياسة أقل متعة وأكثر صرامة.

ثمة مفاوضة تاريخية إذا قارنا ذلك بالحماس الذي ظهر جلياً في الانتخابات الرئاسية الأولية بين كل من "هلاري كلينتون" و" باراك أوباما"، حيث تشير المقارنة إلى أن تلك السياسات الأمريكية الأولى كانت تتم في وقت كان فيه المجتمع لا يزال يعاني من الصراع ضد العبورية التي شرعت في الامتداد نحو المزيد من الأماكن في الدولة. لقد كانت قضية العبودية ذات أهمية خاصة لدى جميع المواطنين في كل أنحاء الدولة، وقد جذبت المناظرات أعداد هائلة من الولايات المجاورة بسبب ذلك." لقد آن الأوان ليقف الناس خارج منازلهم لساعات يستمعون إلى حوارات ومجادلات تفصيلية وتثقيفية ومعقدة حول أكثر القضايا السياسية الخلافية أهمية في الدولة".

في الأيام التي سبقت ابتكار فكرة المستشارين ومستشاري العلاقات العامة وغيرهم، كان مرشح الحزب يعمل مع الصحفيين بالحزب ومع "الموضب" لتهذيب وتحسين وضبط كلمات وأحاديث المرشح من نشرها. وكانت تغطية الصحف للمناظرات تغطية مكثفة. ومع ذلك لم تعلق الصحف على أي من المتنافسين. ولهذا يعتبر ذلك أولي المرات التي يتم فيها نشر الحملات السياسية وأحاديثها حرفياً.

إن الرأي العام كحافز على التغيير يزداد زخماً في القرن العشرين وذلك بمساعدة وتحيض من طفرات التطور التي شهدتها الإذاعة التليفزيونية. فقدرة

الجهاز الإعلامي الجديد كالراديو مثلاً. على التأثير ليس فقط في النظم السياسية ولكن أيضاً في المجتمعات بوجه عام كانت جديدة تماماً، وقد نشرت حالات من القلق في معظم الثقافات الرأسمالية الغربية. في الولايات المتحدة على وجه الخصوص،وخلال فترة ما بين الحربين العالميتين حين لم توجد صحافة قومية باردة، كانت الإذاعة الديمقراطية تعمل بكفاءة إذا أن القوى التقدمية في داخل الأعمال المنظمة والقوى المحافظة في المؤسسات التجارية كانت تتصارع عبر الأثير. كانت هناك محطة إذاعية {WCFL} يملكها اتحاد العمال وتبث عبر شيكاغو" في عام 1926 واستمرت لحوالي خمسين عاماً، ولكن المستمعين -في منتصف القرن-فيكل أنحاء الدولة كانوا يستطيعون الاستماع إلى مجموعة كبيرة من البرامج الإذاعية التي يرعاها الاتحاد، وهي برامج كانت تروج للأجندة السياسية والاقتصادية للعمال.

في نهاية الستينات من القرن الماضي، توقف انتشار الإذاعة كأداة في يد اليسار المنظم في مواجهة الدعوات اليائسة لتأسيس أجهزة إعلانية أقل انحيازاً و أكثر انفتاحاً وديمقراطية وفي الخمسينيات بدأ التليفزيون في احتلال مكانة الإذاعة كوسيلة للبث مفضلة لدى الجمهور. وفي بداية الستينيات فاق عدد أجهزة التليفزيون عدد المنازل في الولايات المتحدة. وفي محاولة لصد الرقابة على هذا الجهاز الجديد. اعتمدت الرابطة الوطنية لمذيعي الإذاعة والتليفزيون شفرة جديدة لتنظيم محتوى البث نظراً لظهور أصوات جديدة تزعم احتمال وجود آثار ضارة للتليفزيون خاصة على الأطفال الصغار.

في بريطانيا، كان الجهاز الإذاعي الوحيد هو هيئة الإذاعة البريطانية، وقد أدى احتكارها للبث إلى وجود دعوات تطالب بالتحكم يف إنتاجها تتجاوز الالتزامات التي يشتمل عليها الميثاق. وفي الستينيات كشف الرأي العام للمحافظين عن وجود بطل تمثيل "ماري هوايتهاوس" التي كانت تعمل معلمة وعارضة "المجتمع المتساهل" ووجهت الاتهام إلى المدير العام هيئة الإذاعة

البريطانية "السير هوف جرين" بأنها" المسئول الأول والأخير عن الانهيار الأخلاقي في هذه الدولة". وفي عام 1965 الرابطة القومية للمستمعين والمشاهدين واستهلت حملة صليبية "لتطهير" التليفزيون. وقد استطاعت. جمع ما يربو على نصف مليون توقيع لتقديم التماس "لتطهير" التليفزيون وأرسلته إلى الملكة. ولكن حملتها التي استمرت حتى بعد وفاتها في عام 2001 لم تسفر إلا عن نتائج قليلة الأهمية.

رغم وجود جماعات الضغط مثل جماعة "ماري هوايتهاوس" كان هناك اتجاه من قبل المجتمعات الغربية نحو الرضا عن الرقابة على أجهزة الإعلام. المر الغريب والذي أدى إلى إثارة النزاعات في مجال حقوق الإنسان في بعض الأماكن العالم هو أننا جميعاً قد صدمنا عندما أدركنا أن حرية الكلمة وحرية الصحافة لاتزالان تمثلان إشكالية بلا حل. وفي نواح عديدة،تمنع مثل تلك الحرية للتكنولوجيا الرقمية الجديدة عندما تقوم بالمهام الصحفية.

في انتفاضة "قوة الشعب" People's Power في بورما عام 1988، قتل الجنود عدد كبيراً من المتظاهرين يقدر بحوالي 3000 فرد بإطلاق النار عليهم، ولكن استغرق الأمر عدة أيام للإعلان عن هذا الجبر. على عكس ذلك، أثناء "ثورة الزعفران" Saffron Revolution عام 2007، وردت المعلومات من بورما- وهي إحدى الدول الأكثر انغلاقاً في العالم – عن طريق أصحاب المدونات والمواطنين العاديين باستخدام أجهزة المحمول والكاميرات الرقمية، وحتى عن طريق الصحفيين الموجودين في دول المنفي مثل تايلاند والهند وهؤلاء الصحفيون يمثلون تذكرة للجميع بأن الصحافة ككاشف للحقيقة ومؤيد للديمقراطية تغبر مهنة شديدة الخطورة.

ربما لأن حرية الكلمة تعتبر السمة الأساسية للمجتمع الحر، لذا فالتاريخ يحفل بالكثير من الأقوال والشهادات الجريئة التي تدور حول هذا الحق. ففي حديث له موجه للقوات المسلحة عام 1783، ذكر "جورج واشنطن" أنه:"إذا ما قدر لحرية الكلمة أن تعوض، إذاً فربما يتم شحننا وقد أصابنا الصمت أو الخرس

كما يجر الجزار خرافة". كما كان "توماس جيفرسون" على نفس القدر من الوضوح عندما تحدث عن الصحافة قائلاً : إن حريتنا تعتمد على حرية الصحافة، ولا يمكن الحد من الحرية دون تهدر".

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، قال" جون ستيوارت ميل" المفكر الليبرالي بثقة في مقال له" عن الحرية" عام 1859:" نأمل أن يكون الزمن الذي نضطر فيه إلى الدفاع عن حرية الصحافة كأحد الضمانات ضد الحكومة الفاسدة والمستبدة قد ولى". أما "هوجو بلاك"- الذي ظل يعمل قاضياً بالمحكمة العليا بالولايات المتحدة حتى رفاق عام 1971- فقد أظهر نفس المشاعر بقوله :"كان معدو الدستور يعرفون أن حرية الكلمة خليلة التغيير والثورة. ومع ذلك فإنهم كانوا يعرفون أيضاً أنها تمثل دائما العدو اللدود للاستبداد". كما أكر "كورازون أكومينو" رئيس الفلبين في الفترة من 1986 وحتى 1992 والذي انتصر على طغيان الدكتاتور "فرناند ماركوس" أن: "حرية التعبير خاصة وحرية الصحافة -تضمن المشاركة الشعبية في صغ القرار وفي أعمال الحكومة، والمشاركة الشعبية هي جوهر ديمقراطينا". في كثير من الأحيان، في مثل تلك التصريحات المروعة، ترتبط فكرة حرية الكلمة بفكرة حرية الصحافة وعلى نفس القدر يجد الصحفيون أنفسهم في الجهة الأمامية من المعركة من أجل حقوق الإنسان وكرامة البشرية.

الفصل الثالث

الحفر في التراب

عندما يطلب من معظم الناس ذكر أحد الصحفيين فإنهم عادة ما يشيرون إلى الشخص الذي يتمتع بمؤهلات المحقق الصحفي، مثل بوب وودورد وكارل برنشتاين وجون بيلجر وبول فوت، وهم من أوائل من يخطرون على بال الكثيرين. وعلى ذلك فعندما يطلب منهم وصف ما يفعله هؤلاء الصحفيون فعلاً فغالباً ما لا يظهرون بمظهر الشخص المقنع أو المتأكد. يعرض أوجو دوبير Hugo do Burgh تعريفاً واضحاً في مؤلفه:" التحقيقات الصحفية" السياق والممارسة"حيث يذكر أن:" المحقق الصحفي هو رجل أو امرأة مهمته (مهمتها) اكتشاف الحقيق وتحديد ملابساته عن طريق أية وسيلة إعلامية متاحة". وثمة سؤال مباشر يبرز جراء مثل هذا التعريف، وهو: ما هي الحقيقة؟ وهل الحقيقة هي مرادف للواقعية؛ أم أنها أقرب إلى الموضوعية؟ وهل الحقائق تعتبر موضوعية بصورة آلية؟ بما أن الواقع يمكن أن يكون حقيقياً كما يمكن أن يكون كاذباً، فهل هناك شيء حقيقي فعلاً في الواقع؟

رغم وجود مثل تلك الأسئلة المعقدة لاشك أن التصور العام للتحقيقات الصحفية (أو الصحافة الاستقصائية) يتمثل في أنها تعتبر محاولة للوصول إلى الحقيقة - مها يكن الأمر – وأن الحقيقة خفية بطريقة ما. لذلك فإن عمل المحققين الصحفيين يحمل في طياته مدى تأثير الصحافة في المجال العام إذ أن الصحافة كجزء لا يتجزأ من السلطة الرابعة التي تضم جميع أجهزة الإعلام نتيح - من الناحية النظرية على الأقل - مرجعية قوية لمواجهة سوء استغلال السلطة. وهي تقوم بذلك فعلاً"بجذب الانتباه نحو الإخفاقات التي يتضمنها نظام المجتمع في

ضبط العلاقات بالإضافة إلى الطرق التي يسيطر بها الأغنياء وأصحاب النفوذ والقائمون على هذا النظام".

ليس غريباً - مع مثل هؤلاء الخصوم - إذاً أن يتسم نجاح وفوز الصحافة -كما هو الحال مع الديمقراطية ذاتها - بالصعوبة البالغة. رغم ذلك فحسب رأي دوروني برنيه Dorothy Byrne رئيس قسم الأخبار والشئون الجارية بتليفزيون القناة الرابعة بالمملكة المتحدة؛ تمكن الخطوة في أن جماهير المشاهدين الذين يشاهدون عمليات الكشف عن أحداث الإجرام والغش والفساد والرشوة لن يندهشوا بعد ذلك عند قراءتهم للتحقيقات الصحفية لن هذه الجماهير أصبحت تفترض توطن الفساد. إذا هل يستحق الصحفيون اللوم لأنهم يسعون إلى بناء جمهور ساخر لا يثق في ساسته أو المشاهير من رجالاته ولا يؤمن بهم أو يصدقهم؟ هل التحقيقات الصحفية في واقع المر تمثل "ادني أشكال الحياة الصحفية " يذكر بيرنارد إنجهام السكرتير الصحفي لمارجريت تاتشر أثناء عملها في داوني ستريت ؟ أم أن أكثر دقة وأقل تشاؤماً أن نقترح – مع وجود لجنه الصحفيين المعينين- وجود ائتلاف للصحفيين والناشرين والملاك والأكاديميين المهتمين بمستقبل المهنة، أم أن الأمر- مثل فقدان ذاكرة "باخ"، يتمثل في أن التحقيقات الصحفية قد ازدادت كثيراً ثم سكنت نوعاً ما عبر تاريخ الصحافة، ولكنها لم تختف على الإطلاق؛

أتجسس بعيني الصغيرتين

أحد الأمثلة على مصادر التحقيقات الصحفية ذات الطبيعة السرية يتجسد في إحدى دور النشر التي تطلق على نفسها اسم سباي The Spie. في عام 1644 أعلنت أنها وضغط مخططاً " للكشف عن حالات الغش المعتادة التي تتم داخل المملكة. ولتحقيق هذا الهدف، سوف نقوم بالمهنة في سرية تامة". لكن حركة التنوير والإيمان الجديد بأن العقل البشري يستطيع مناهضة الخرافات والجهل

والاستبداد، خاصة وأن تلك المفاهيم ينطوي عليها الدين وسيطرة الارستقراطية الموروثة على المجتمع، كل ذلك كان إرهاصاً للتغيير. أثناء القرن الثامن عشر برز"انجذاب نحو الطريقة العلمية والتحقيقات التاريخية ومساءلة كل أنوع المؤسسات بأساليب تكن تعرف في أية حضارة أو ثقافة سابقة؛ وكان ذلك يمثل قاعدة أو أساساً لمفهوم الأدلة المحايدة **impartial evidence** وأساساً لفكرة أن الصحفي هو الشخص الذي يقوم بجميع مثل تلك الأدلة. لقد كلن انتصار العقل - الموجود أساساً كمجموعة من الآراء العامة الفردية - عاملاً آخر وراء إيجاد الرأي العام الوليد.

عند شروع الإنجليزي الراديكالي ويليام كوبيت بالبدء في إصدار بوليتكال ريجستر **Political Register** وأصبح من أقوى المدافعين عن إصلاح البرلمان كان ذلك الرأي العام"الناشئ" اللبنة الأساسية في هجوم القمامة الراديكالية على الكنيسة الرسمية ففي عام **1809** على سبيل المثال، أدان كوبيت استخدام القوات الألمانية لإحباط محاولة تمرد في إلياي **Ely** بمقاطعة كابريد بشاير. فقدم للمحاكمة واتهم بالعصيان ثم حكم عليها بالسجن لمدة عامين،وتم إيداعه بسجن نيوجيت في العامة لندن. وبحلول عام **1817**، عندما ظهرت الطبيعة الأولى من صحيفة بلاك دوورف الأسبوعية لصاحبها "توماس جوناثان"، ثم استخدام كل من الهجاء والأدب الساخر كسلاحين جديدين يضافان إلى أسلحة الصحافة الراديكالية التي كانت تستخدم لاستئصال التفرقة بين الطبقة العاملة والنخبة السياسية بصورة تدريجية.

من الناحية التاريخية، كان دائماً ما ينظر إلى دور الصحافة كجهة رقابية على أنها الحارس في مواجهة الذي يقف، مواجهة الاستبداد. لكن كان دائماً ما يطرح السؤال التالي: استبداد من؟ لقد سعت الحكومة إلى استمالة أجهزة الإعلام المهنية إلى جانبها: وبالمثل، نادراً ما كان ملاك أجهزة الإعلام يرفضون الفرصة التي توفرها لهم ملكيتهم للاستمرار في التمتع بالمميزات التجارية

والشخصية. ففي عام 1991، زعم الصحفيان ديفيد فلنئهام و نيكولاس هربيرت أن أجهزة الإعلام الإخبارية البريطانية تتعرض لحظر مصادرة دورها الرقابي؛ ليس لانحسار دورها و أنما لتزايد القوانين واللوائح. وقد تصورا أن ثمة خطراً على الصحافة بوجه خاص غذ ربما " تصبح صحافة خاضعة"، ولهذا فإنهما يتساءلان بنوع من السخرية عما اعتبروه سلوكاً مذعناً: هل نؤمن فعلاً بأن رجال السياسية والمسئولين الحكوميين الذين انتخابهم أناس معصومون عن الفشل... لدرجة أن عمل الصحافة كحارس مستقل للعدالة والديمقراطية، وكمنبر للحوار، وكسجل يومي للتاريخ أصبح الآن معطلاً؟ إن التاريخ يخبرنا بطبيعة الحال أن الصراع من أجل أن تصبح الصحافة"حارساً مستقلاً للعدالة والديمقراطية" قاس وليس له نهاية.

في دليل حرية الصحافة لعام 2008، أدرجت مراسلون بلا حدود- وهي منظمة تهدف إلى الدفاع عن الصحفيين الذين حكم عليهم بالسجن أو الذين تم القبض عليهم أثناء تأدية عملهم- المملكة المتحدة في المكان رقم 23 والولايات المتحدة رقم 26 من بين 173 دولة، حيث أبرز تقرير المنظمة الخاصة بالمملكة المتحدة الحكم بالسجن على محرر الشئون الملكية بصحيفة أخبار العالم الصحفي كليف جودمان لدخوله على تسجيلات الهاتف الخلوي الملكي بأسلوب غير قانون ومع ذلك كان استغلاله قانون تنظيم قوي التحقيق الصادر عام 2000 ثار قلق بالنسبة لكل من قاموا بمجلات للمطالبة بحرية الصحافة إذ كانوا يرون فيه توجهاً محتملاً للحكومة نحو المزيد من الاضطراب للصحافة.

لاحظت منظمة"مراسلين بلا حدود" بالولايات المتحدة أن مجلس النواب قد وافق على قانون حرية تدفق المعلومات المعروف باسم قانون الدرع **the shield law** ويغطي الحق للصحفيين بألا يفصحوا عن مصادرهم على المستوى الفيدرالي. ومع ذلك فقد انخفض تصنيف الولايات المتحدة لأنها اضطلعت في حرب كان فيها الصحفيون جزءاً لا يتجزأ من القوة العسكرية وليس كمهنيين أحرار.

رغم وجود مثل تلك الانتقادات فقد سعت الصحافة الأكثر جودة إلى مراقبة الأغنياء وأصحاب النفوذ عن أولئك الذين لا يملكون شيئاً داخل المجتمع لكي تضمن أن كل فرد يستطيع الوصول إلى المعلومات، ولا يتوقف هذا الحق فقط على من يمتلكون القدرة على ذلك نظراً لمواقعهم أو مكانتهم المميزة من أجل تلك الغاية فقد تمخض عالم السياسة على وجه الخصوص عن تقليد دائم وطويل المدى يضم صحافة معارضة بالإضافة إلى صحف راديكالية. من رسائل جونوس **Junius** في السبعينات من القرن الثامن عشر المنشورة في بورمانز جارديان برزت السلوكيات الفاضحة، كما أظهرت صحيفة بول مول جازيت في عام **1885** فضائح دعارة الأطفال، بالإضافة إلى فضيحة ووترجيت الشهيرة التي ظهرت على صفحات الواشنطن بوست في عام **1972**. كانت هناك سلسلة عمليات متواصلة للكشف وفضح أنشطة وسلوكيات تلك القوى، حتى وإن كان هذا الدور الرقابي كانت تقوم به الصحافة" الحزبية" المزعومة. إن تعددية الأصوات القومية الكامنة في الصحافة الحزبية بصورة طبيعة تعد دائماً أمراً جوهرياً لفعاليات الديمقراطية حتى وإن كانت تنطوي على درجة متوسطة من الدفاعات الخاصة والعلاقات الشخصية. يجب أن تتذكر أيضاً أنه بالنسبة للعديد من الصحفيين دائماً ما كانت تنطوي"تعددية الأصوات" على مخاطر كبيرة. ففي الآونة الأخيرة - وبالذات في نوفمبر عام **2009** -سقطت الإعلامية التليفزيونية أولى كوتوفيسكايا من الدور الرابع عشر من مبنى مركز مدينة كالييننجارد بعد أن انتصرت في معركة قضائية لاستعادة سيطرتها على قناة كاسكاد التليفزيونية الإقليمية بيوم واحد. أما الصحفية الروسية أناستاسيا بابوروفا - وهي صحيفة حرة تعمل لحساب صحفية نوفايا جازيتا- فقد أطلق عليها النار وأرديت قتيلة في أحد شوارع موسكو في يناير عام **2009**. كما مات يوري تشيكو شيخن نائب رئيس تحرير نفس الصحيفة بالسم في يوليو من عام **2003**. وربما قتلت نتاليا بوليتكو ناسكايا وناشطة

حقوق الإنسان المعروفة ناتاليا إستامبروفا في أكتوبر عام 2006 ويوليو عام 2009 على التوالي بزعم قيامها "بإزعاج" الأقليات في روسيا.

رغم تاريخ"قتل الرسل" الطويل،إلا أن المراسلين والصحفيين العاملين والصحفيين المستقلين ظلوا دائما على أهمية الاستعداد لمواجهة المخاطر- إما لأسباب شخصية أو لأسباب مالية - بهدف الكشف عن الأفعال الفاضحة. على سبيل المثال، أحياناً ما كانت تساعد محاولاتهم في الكشف عن عدم تطبيق العدالة في إصدار بعض القوانين التاريخية. فقد قام دون هيل رئيس تحرير صحيفة ماتكوك ميركيوري Mattock Mercury بمقاطعة ديربيشاير بإنجلترا بشن حملات لعدة سنوات ليعيد النظر في قضية مقامة ضد ستيفن داوننج المتهم بقتل المستشارة القانونية ويندي سويل عام 1972. كان داوننج في سن السابعة عشرة، ولكن الأوراق الرسمية كانت تؤكد أنه في سن الحادية عشرة عندما وجهت إليه التهمة. وبعد 27 عاماً من سجنه سحب رجال القانون هذا الاتهام.

لقد استوعب المصلحون الاجتماعيون قدرة الصحافة على الكشف عن الظلم وعلى شن الحملات التي تهدف إلى الإصلاح الاجتماعي. ففي بدايات عام 1723 كشف صحيفة نيوانجلاند كورانت- لصاحبها جمس فرانكلين- عن ممارسات المؤسسات الدينية في هجوم عنيف أطلق عليه"مقال ضد المنافقين". اتهم فرانكلين بازدراء الدين واستنكاره وفي عام 1849 كتب هنري مايو Henry Mayhew ما أصبح بعد ذلك أول تحقيق صحفي في سلسلة من المقالات لصحيفة لندن مورننج كرونيكل. في هذه السلسلة كشف عن أحوال الفقراء خلال الأصوات التي لم تسمع حتى الآن للمسئولين والبائعين الحائلين وصغار التجار وبنات الليل والمال وغيرهم من الفئات المطحونة. أما صحيفة ذا شيم أوف ذا سيتيز The Shame of the Cities التي أصدرها لنكولن ستيفنز فقد أدت في عام 1904 إلى حركات إصلاحية لتطهير الحكومة المحلية، في حين تمخضت حملة راشيل كارسون في صحيفة سايلانت سبرنج عن

حركة دولية لحماية البيئة. كما أن أعمال كايكل هارينجتون التي تدور حول الفقر، بالإضافة إلى كتابه" أمريكا الأخرى" The Other America،فقد أديا إلى مجموعة كبيرة وواسعة من التغيرات التي أدت إلى الرفاهية الاجتماعية. وثمة أمثلة مبهرة أخرى مثل صراع مارجريت سانجر من أجل تحديد النسل في مواجهة معارضة رجال السياسة والكنيسة والرقباء، وعمل أوبتون سينكلير الذي فضح عمليات تعليب اللحوم الفاسدة، وهو عمل تمخض عن إنشاء إدارة الأغذية والأدوية، وكذلك انجاز إيدا تاربل Ida M. Tarbell في هدم وإيقاف احتكار شركة ستاندارد أويل للبترول.

بالإضافة إلى الصحفيين كأفراد، كان هناك العديد من الصحف- وخاصة الصحف الراديكالية - في مقدمة الأجهزة الإعلامية التي تعمل على الكشف عن المخالفات والفساد. والآن نادراً ما نذكر لجوزيف بوليتسر دورة في وجود الصحافة الصفراء في التسعينات من القرن التاسع عشر، ونذكر جازة بوليتسر. يؤمن بأن الصحفيين الأمناء لا ينبغي أن يرتضوا بطباعة الأخبار فقط؛ فدورهم كان يتمثل في "الاحتجاج على الأسباب الحقيقة وراء حالة الخنوع التي تمر بها الدولة والتي تضمن الفساد وعدم تطبيق القانون وسؤ استخدام سلطات المؤسسات الوطنية". وقد شجعت الورقة التي عرضها والتي أطلق عليها" عالم نيويورك على البحث في إعمال الزيف والتزوير، حتى وإن كانت تلك الأعمال صادرة عن الرئيس نفسه. وفي عام 1908 نشرت صحيفة العالم قصة تزعم عدم أحقية الرئيس ثيودور روز فلت في التصرف في أموال استخدمت في شراء قناة بنما من أصحابها الفرنسيين. وتعقيباً على تعليقات الرئيس روزفلت طبعت صحيفة العالم فكرة ذكرت فيها:" نحيط العالم كله علماً بأن كل تلك التصريحات التي أدلى بها الرئيس (روزفلت) والتي ذكرناها سابقاً ليست صحيحة، ومن المؤكد أن السيد (روزفلت) كان يعرف أنها غير صحيحة عندما أدلى بها".

لم تك تلك التصريحات لتجعلها مفضلة لدى من هاجمهم، ولكن كما أوضح ديفد فيديتش المؤرخ الإعلامي، الفكرة المثالية لأنة صحيفة هي ألا يكون لتلك الصحيفة أية صداقات أو أصدقاء، بمعنى أنه بدون الصداقات ستتمكن الصحيفة من كشف الفساد والرذيلة والإخفاقات متى وأينما صادفتها. وهذا ما أصبح هامساً بالنسبة لجوزيف بوليتسر الذي عرض ملصقاً ضخماً في صالة عروض وأطلق على الملصق اسم: صحيفة العالم ليسها له أصدقاء.

سيرة ذاتية

صامويل سيدني ما كلور

ولد ماكلور في مقاطعة أنتريم بأيرلندا في عام 1857. وهاجر إلى ولاية إنديانا مع والدته وأخويه الصغيرين وهو في سن التاسعة، وتربى في إحدى المزارع. ثم شق طريقة العلمي بجامعة نوكس حيث استطاع إنشاء صحيفة للكلية. ثم أسس مؤسسة ماكلور في عام 1884. وهذه المؤسسة كانت تقوم بشراء أعمال المؤلفين والكتاب بأسعار تتراوح ما بين مائة ومائه وخمسين دولاراً، ثم تقوم ببيع حق الطبع للعديد من الصحف في كل أنحاء الدولة بسعر خمسة دولارات للعمل الواحد. وقد كانت من أكثر الشركات نجاحاً من نوعها، كما كانت مسئولة – على نطاق واسع – عن تقديم العديد من الكتاب الأمريكيين والبريطانيين للجمهور الوطني.

أسس ماكلور أيضاً مجلة ماكلور كمجلة شهرية تخصصت في المقالات البحثية والمقالات التي يتم مراجعتها جيداً قبل نشرها بالإضافة إلى الروايات الجديدة. ولآن النسخة الواحدة كان ثمنها 15 سنتاً، فكانت بذلك أقل سعراً من المجلات المنافسة بحوالي 50%- مثل مجلة هاربرز أو أتلافيتك الشهرية. وبحلول عام 1898

تم توزيع 400ألف نسخة من المجلة. ومع ذلك فقد كان ماكلور يفتقر إلى فطنة حنكة رجال الأعمال وهذا ما أدى به إلى أن يفقد سيطرته على مجلته في عام 1912. وقد قضى السنوات الأخيرة من حياته بعيداً عن أعين الجماهير تماماً. وفي عام 1945 استعاد نوعاً من اهتمام الجماهير عندما حصل على وسام الاستحقاق من الهيئة القومية للفنون والآداب. وتوفي عام 1949.

يمكن أن نصف مجلة ماكلور- التي كانت تصدر مابين عامي 1893و 1929- بأنها صحيفة بلا أصدقاء، إلى درجة أنها استطاعت تحويل الرئيس ثيودور روزفلت من موالٍ لها إلى عدو لها. فقد تضمن العدد الصادر في يناير عام 1903 عدداً من المقالات التي تدور حول الفساد وتمرد الأمريكيين على القانون. وقد نفدت تلك الطبعة بكاملها و:"كتب روزفلت مادحاً ماكلور لانتصاره وداعاه إلى البيت الأبيض". ورغم ذلك فقد كانت المجلة في مقدمة ما أصبح يسمى أدب التشهير(الفضائح) literature of exposure وفي عام 1906 بدأ حتى روزفلت نفسه يعاني من وطأة نفس التعرض للفضائح فقد أعلن لجماهير إحدى الصحف الصناعية ذات يوم إن الرجل الباحث عن الفساد muckraker يضرب به المثل من الناحية الجسدية لا من الناحية الروحية.

هذا التشبيه- الذي يشير إلى الرجل الباحث عن الفساد في الجزء الثاني من رواية بيلجر يمز بروجرس للمؤلف جون بونيان- هو في واقع الأمر تحريف للأسلوب الرمزي الأدبي. ففي رأي بونيان كان الأغنياء هم الذين يقضون أوقاتهم في البحث الفساد لتكوين الثروات داخل القذارة. ولكن كارل جنس كصحفي يسير إلى أن مصطلح الباحث عن الفساد يصف بدقة بارونات السرقة والاختلاس في عهد الرئيس روزفلت، ولا يقصد بذلك الصحفيين فقد كان جون روكفيلر ملك الباحثين عن الفساد وليس لينكولن ستبفنز. وبغض النظر عن جهل الرئيس بالأدب، فقد كان لصحيفة ماكلور الفضل في نشأة الصحافة

الفاضحة للفساد،ومن ضمن تلك الأعمال كانت كتابات العار لمنيابة ليس لصاحبها لينكولين ستيفنز. حرب البترول عام 1872 وحق العمل لغيرة من الصحفيين.

صعود وهبوط (الصحافة الاستقصائية)

لقد تفاوتت معدلات الصحافة الاستقصائية (التحقيقات الصحفية) على مدى القرنين الماضيين بصورة واضحة. فربما كان هناك آخر نهضة قد حدثت بالفعل في أعقاب الكشف عن أوراق البنتاجون وفضيحة ووترجيت. ففي عام 1971 أيدت المحكمة العليا حق ألنيويورك تايمز في نشر أوراق البنتاجون. وقد ذكرت في حيثيات الحكم أن:" الآباء المؤسسين قد منحوا الصحافة الحرة الحماية التي ينبغي أن تتمتع بها للقيام بدورها الأساس في ديمقراطيتنا". فقد كان على الصحافة أن تقوم على خدمة المحكومين، لا على خدمة الحكام، بمعنى آخر، فإن العدالة: " تقبل احتمال أن يلحق نشر مثل تلك الوثائق بالمصلحة القومية، بل وربما يظهر الصحيفة وكأنها مذنبة ومتهمة بالمخالفات الجنائية. ولكن نياط بالصحيفة النشر، كما يلحق بها الأذى".

تعرض الأوراق التي يتضمنها 47 مجلداً تفاصيل تاريخ التورط العسكري للولايات المتحدة في حرب فيتنام في الفترة ما بين عام 1945 وعام 1967. وهي عبارة عن وثائق مصنفة قام دانييل إلبرج المحلل بوزارة الدفاع بتسريبها للصحافة. وقد سعت حكومة نيكسون إلى منع نشرها. لقد كتب ريتشارد نيكسون بنفسه قائلاً:" لقد تم تسريب الوثائق إلى مجلة التايمز بطريقة غير قانونية، وأعتقد أن الصحيفة قد تصرفت بأسلوب غير مسئول عند نشرها لتلك الوثائق". ومع ذلك فقد شرعت مجلة الينويورك تايمز في نشر تفاصيلها حتى أجبرها أمر صادر عن المحكمة الفيدرالية على التوقف عن النشر. وفي حين قامت المجلة بمعارضة هذا القرار، شرعت الواشنطن بوست في نشر سلسلة من المقالات التي

تدور حول هذه الأوراق بعد رفضها لنصائح المحامين بعدم النشر. وفي نهاية المطاف حكمت المحكمة العليا لصالح الصحفيين.

بعدما يربو على العام، وفي يونيو عام 1972، حق الصحفيون بمجلة الواشنطن بوست - عبر عمليات التحقيق التي كانت تتم حول ووترجيت- إحدى اللحظات الفارقة في تاريخ التحقيقات الصحفية الحديثة. فرغم العديد مكن الضغوط التي مارستها إدارة الرئيس نيكسون لوقف التحقيقات، استمرت الصحيفة في نشر القصة إلى أن قدم نيكسون استقالته من الرئاسة. ربما كانت الضغوط التي مارستها إدارة الرئاسة ذات مغزى يوضح الطريقة التي كان يعمل بها نيكسون. فقد تم استبعاد المحررين العاملين بصحيفة الواشنطن بوست من تغطية الأحداث الاجتماعية الخاصة بالبيت الأبيض؛ فقد كان يتم تسريب الخيار إلى الصحف المنافسة لها،وخاصة مجلة الواشنطن ستار،مع العلم على حجب تلك الأخبار عن الواشنطن بوست. كما أن نعويضة الاتصالات الفيدرالية كانت تعمل على إيجاد الصعوبات أمام ملكية الصحيفة لمحطتين تليفزيونيتين بولاية فلوريدا. وقد هبط سهم الصحيفة في البورصة إلى ما يقرب من 50% ومن بين تلك الصعوبات والتحديات التي كانت تواجه تلك الصحيفة هو أن أولئك الذين يفترض أنهم ممثلو مفوضية الاتصالات الفيدرالية الذين باستطاعتهم منح التراخيص كان من بين الذين قاموا لفترات طويلة بالعمل كمساعدين للرئيس.

طوال القرن العشرين كانت الحكومات البريطانية المتعاقبة أيضاً تقوم باستخدام مختلف الأسلحة القانونية لمنع كشف ما كانت تعتبره معلومات سرية. فرغم أن قوانين أسرار العمل الرسمي الصادرة عام 1889و1911و1920 كانت تهدف أساساً إلى ملاحقة الموظفين الطائشين والخونة والجواسيس والمخربين وغير ذلك إلا أنها كانت تمثل خطراً على الممارسة السليمة للصحافة.

ففي عام 1930 كشف أحد مراسلي الالنيوز كرونيكل عن قرار مجلس الوزراء بالقبض على المهاتما غاندي. شرعت الشرطة في مطاردة الصحفي،

وكاد يحاكم بناءً على المادة السادسة من قانون عام 1920. ولكن اتضح أن من سرب المعلومات هو وزير الداخلية نفسه، فلم يقدم الصحفي ولا الوزير إلى المحاكمة، ولكن حدث شيء آخر:" على مدى السنوات الخمسين التالية كان قانون عام 1920 يستخدم بصورة روتينية لمنع أو معاقبة من يقوم بالكشف عن المعلومات الرسمية التي لا علاقة لها بالأمن أو سلامة المواطنين، باستثناء كل ما يجنب الحكومة ويحجب عنها الإزعاج أو القلق أو التعريض للتشهير".

بعد فضيحة ووتر جيت شهدت التحقيقات الصحفية نوعاً أو شيئاً من النهضة؛ وخاصة في الولايات المتحدة حيث كان الصحفيون يتمتعون بصورة تقليدية بحرية أكبر في النشر بسبب القانون الصادر ضد القيود المسبقة. فهذا القانون - الذي ينص عليه التعديل الأول - يمنع الحكومة من حظر التعبير عن الأفكار التي تسبق النشر. لقد أعادت نتائج ووتر جيت تشكيل صورة كتابة التقارير الصحفية؛ فقد أصبح الصحفيون أنفسهم من ضمن المشاهير وأصحاب الوجوه المألوفة على شاشات التليفزيون على كل ي جانبي المحيط الأطلنطي وهو ما أدى إلى وجود عدد كبير من البرامج ذات الطابع الاستقصائي بدءاً من برنامج "60 دقيقة" بكندا وحتى قناة ديسكفري بالتليفزيون الأمريكي و بانوراما هيئة الإذاعة البريطانية و" عالم غرناطة في الواقع" وبرنامج كوك ريبورت ببريطانيا. وبالتدريج أصبحت التحقيقات المصطنعة Faux in Vestigations هي المعيار الأساس؛ وهي تحقيقات على غرار التقارير التليفزيونية الدرامية التي كانت تروج لموضوعات ليست ذات تأثير يذكر على النظام السياسي للدولة، وهي غالباً ما تدور حول المشاهير.

إحدى نتائج تلك التحقيقات المصطنعة كانت خفض أثر التليفزيون بتقليص دوره الرقابي. فقد أظهر المسؤلون عن التليفزيون حماساً أقل نحو التحقيقات ذات الأهمية التي يمكن فعلاً. أ، تؤدي الى تحدى القوى السياسية والمؤسسية. كما أن المجالات الهامة كالاقتصاد والسياسة والرخاء الاجتماعي والتعليم والقوى

المؤسسية والأمن القومي والقوة العسكرية كان يمر عليها التليفزيون مرور الكرام. وأما الكشف عن الجرائم الصغيرة وعمليات النصب التافهة على المستهلك واستمتاع وتسالي المشاهير فقد أصبح وجبة يومية ثابتة، في حين استترت القضايا الكبرى بعد فضيحة ووترجيت. من ناحية أخرى، يزداد عدد التحقيقات الصحفية التي تدور حول التحقيقات الخاصة بالمسؤلين الرسميين مثل تقرير ستار الذي شكل جزءاً من رواية بيل كلينتون ومونيكا لونيسكي. إحدى وسائل الجذب التي تجذب الجمهور نحو مثل تلك التقارير هي أن معظم الأحداث الرئيسية في تلك الروايات تكون قد حدثت بالفعل ولكن الصحفيين غالباً ما يعولون على مصادر غير معروفة أو محدودة. والمسألة التي تمثل خطورة هنا هي أنه في حين يمكن أن تلعب المصادر غير المعروفة دوراً مؤثراً- مثل مصدر ديب ثروت في قضية ووترجيت- إلا أنها يمكن أن تؤدي إلى نتائج سيئة إذ لا يمكن أن تكون أهلاً للثقة. كما أن المصادر المجهولة يمكن أيضاً أن تصبح بديلاً عن التقارير الجادة.

علاوة على ذلك،تعتبر التحقيقات الصحفية مكلفة جداً. فالمحققون الصحفيون الذي يبحثون عن الفساد والخلل والظلم لا يتوازن عن تحديد رواتب لهم دون الوفاء بالعمل بالكامل، وكما أوضح ديفيد فيديتش: "إن التحدي الأنساس الذي يواجه الصحف من الناحية التجارية اليوم هو كيف تحافظ على تكاملها ومثلها العليا احتفاظها بالربح أيضاً". إن الصعوبة تتمثل في أن دور الصحافة كسلطة رقابية نادراً ما تفلح في جذب الجماهير كما لا تفلح أيضاً في مسايرة السلطات المؤسسية. في واقع الأمر، غالباً ما كانت الصحافة الاستقصائية تخفق في رقابة النخب القوية أو تنقد الإساءة المحتملة في استخدام مثل تلك السلطة حتى وإن "كانت وفرة أجهزة الكمبيوتر الرخيصة الثمن قد أتاحت للصحفيين الأمريكيين الفرصة لإيجاد شكل جديد من العمل الصحفي - أي الصحافة الاستقصائية باستخدام الكمبيوتر - حيث يستطيع الصحفيون

المثقفون الـذين يملكـون القـدرة عـلى اسـتخدام البحـث خـلال التسـجيلات الإلكترونيـة الخاصـة بالمؤسسات والكتابات العامة"،كما قال الخبير الإعلامي القديررايموند سنودي. كـان بيـل ديـدمان أحد هؤلاء الصحفيين. لقد أبدع سلسلة مقالات "الفوز بجائزة يوليتر" عام 1989 لميثاق الصحافة بأطلنطا Atlanta Journal-Constitution بعنوان "لون المال" مستخدماً تلك الأساليب بهدف الكشف عن التمييز العنصري الذي تتضـمنه سياسـيات الفـروض لـدى البنـوك في أطلنطـا بولايـة جورجيا. وقد أدى الكشف الى إصلاحات واسعة في معاملات البنك في كل أنحاء الولايات المتحدة. ثمة تهديدات أخرى تتمثل في الاسـتغلال المتزايـد لرفـع الـدعاوى القضـائية مـن قبـل المؤسسـات الكبرى والغنية التي اعتادت على أن تركز أسلحتها على العلاقات العامة والدعاية. تلك المخاوف - بالإضافة إلى عدم استقرار حالـة العمـل والتوظيـف التـي أدى إليهـا إذاعـة الخـدمات العامـة في معظم أنحاء العالم- قد شجعت على خلق جو من الرقابة الذاتية من خلال النفس.

رغم ذلك، فقد كان هنـاك في نفـس الوقـت طفـرة ملحوظـة في أعـمال منتجـي الأفـلام الوثائقية في استخدام السينما فضلاً عن استخدام شاشـات التليفزيـون. عـلى مـا يبـدو أن السينما التي كانت تعتبر صانعة الفكر بشاشاتها الكبـيرة لا تمثـل مسـاحة مـن الخطـر أو التهديدات مما أتاح الفرصة لإزهار الصحافة الاستقصائية. لقد كتب "مايكل مـور" عـدداً من الأفلام الوثائقية التي تتميز بمستوى عال من الأربـاح. فقـد كـان فـيلم "روجـر وأنـا" عام 1989 فيلماً كاشفاً للفساد، جعل "روجر سميث" رئيس مجلـس إدارة شركـة "جـنرال موتورز" يغلق فرع تصنيع سيارات "البويك" في مدينة ملنـت بولايـة ميتشـجان (وهـي موطن "مور") ويستغني عن الآلاف من العمال. تلى ذلك "البولينج من أجـل كولومبـاين" لعـرض اسـتخدام البنـادق بالمدرسـة الثانويـة وهـو يمثـل روح العنـف لـدى الأمـريكيين، ثـم "فهرنهايـت" عـام 2004 وهـو عبـارة عـن تـدوين لممارسـات "جـورج بـوش" في فـترة

رئاسته لما بعد الحادي عشر من سبتمبر. جاء بعد ذلك فيلم "سايكو" عام 2007 ليكشف إخفاقات نظام الرعاية الصحية بأمريكا. أما "جيمس ميلر" فقد اكتسب شهرة واسعة بعد وفاته حيث حصل على جائزة "إيمي" عن فيلمه "الموت في غزة" الذي يصور الصراع الإسرائيلي – الفلسطيني في قطاع غزة.

ليبمان وديوي يبذلان جهداً كبيراً

عندما نظر "أليكس دي توكفي" **Alexis de Tocqueville** إلى حالة الديمقراطية (والصحافة) في أمريكا في بدايات القرن التاسع عشر، وصل إلى نتيجة مؤداها أن الناس كانوا قد وجدوا طريقة – وذلك بالجمع بين المؤسسات المجتمعية والصحف والرأي العام – لتحقيق التكامل الاجتماعي من خلال إعلان الحرية الفردية. ومنذ ذلك الحين، قام بعض المفكرين الآخرين بطرح مسألة دور الصحافة الحديثة من خلال منظور مماثل. أثناء فترة ما بين الحربين العالميتين – وهي الفترة التي بدت فيها الديمقراطية مهددة بظهور الفاشية، وأيضاً بتعقيدات المجتمع الحديث مثل التغيرات التكنولوجية الحثيثة – كتب "والتر ليبمان" في صحيفة "الرأي العام" سنة 1922، و"جون ديوي" في صحيفة "الخبرة والطبيعة" سنة 1925 وفي "الجمهور ومشكلاته" عام 1927 كل منهما منفرداً عن الاستجابة الصحيحة لمشكلة كيف يمكن للرأي العام أن يظل مرشداً للسياسة العامة والدور الذي ينبغي على الصحافة أن تلعبه في هذا الشأن.

كان "ليبمان" يعتقد أن الإجابة تكمن في تشجيع الخبراء (بما فيهم خبراء الصحافة) على إرشاد الرأي العام بكفاءة أكبر. من ناحية أخرى، كان "ديوي" يؤمن بأن العملية تعد بذات أهمية النتائج ولذلك فإن الذين يتمتعون بالسلطة يتحملون مسئولية تحديد كيف ينبغي على المواطنين أنفسهم أن يلعبوا دوراً جوهرياً في التأثير على الرأي العام. ورغم ذلك، فإنه كان يقر بأن هذا الدور الجوهري يمكن أن تيسره الصحافة. ففي سلسلة من المقالات وفي عدد

كبير من الكتب، عبر "ديوي" عن اعتقاده بأن الديمقراطية ذات أهمية قصوى بحيث لا يمكن التخلي عنها ببساطة إذ أن التكنولوجيا في صيرورة مستمرة وحثيثة للغاية.

سيرة ذاتية

جون ديوي

ولد "جون ديوي" John Dewey في "بيرلنجتون" بولاية "فيرمونت" عام 1859، وتخرج في جامعة "فيرمونت" عام 1879 وفي النهاية انضم إلى هيئة التدريس بجامعة شيكاغو التي أنشئت حديثاً، وكان انضمامه لهيئة التدريس في عام 1894. وفي عام 1899 أصبح رئيساً لجمعية علم النفس الأمريكية. وفي عام 1905 عين رئيساً لجمعية الفلسفة الأمريكية. وقد خلفت لنا تجربته المهنية الطويلة والمثمرة ما يزيد على 700 بحث أكاديمي و40 كتاباً.

كتب "ديوي" الكثير عن الديمقراطية والمجتمع، وعن الصحافة والفلسفة، وكان من أعظم المفكرين الأمريكيين الذين تركوا آثاراً كبرى على التعليم خلال القرن العشرين. كما كان يعد علماً أساسياً من أعلام البراجماتية الأمريكية رغم أنه كان يشير إلى فلسفته الخاصة بأنها فلسفة وسائلية instrumentalism.

كان "ديوي" يؤمن بأن الديمقراطية أكثر من مجرد اكتساب حق التصويت، وأنها ساهمت في نشوء رأي عام ناضج تماماً تحقق من خلال التواصل الفعال بين الناس والخبراء ورجال السياسة المسئولين عما يفعلون. وتوفي "جون ديوي" في نيويورك عام 1952.

بشأن العديد من القضايا الهامة كان "ليبمان" غالباً ما يفوز في أي جدال يتم

بينه وبين "ديوي". كانت الصورة الشائعة عن الصحافة وعن الصحفيين هي صورة الصحفي الخبير والمراقب اللامبالي الذي يراقب ويحلل الأعمال الحكومية حتى يستطيع تنوير الآخرين، ومن ثم يساهم في تشكيل رأي عام مطلع. في رأي "ليبمان" أن التطور التكنولوجي الرقمي على وجه الخصوص جعل الحياة أكثر تعقيداً. وفي رأيه أن الصحافة لابد أن يتم تعلمها بصورة أفضل للتعامل مع مثل هذا التعقيد، بل ذهب إلى أن هذا ما حدث بالفعل وذلك من خلال خبراء استطاعوا أن يدركوا مستويات الصحافة ذاتها. والأساس الذي ترتكز عليه أفكاره - أي أن الصحافة ينبغي أن تقود - وقد ثبت أنها تسبق أوانها فعلاً. فالمحققون والمسئولون الصحفيون تجدهم الآن متواجدين في كل ميدان من ميادين الحياة، ولديهم الخبرة اللازمة لإبلاغ الجماهير وإيقاظها.

من ناحية أخرى، تبدو أفكار "ديوي" حول ضرورة وجود وسائل إعلام ديمقراطية ملائمة للقرن الحادي والعشرين. فمنذ ما يربو على 80 عاماً أدرك "ديوي" أن الناس نادراً ما يشعرون بأنهم يشاركون في الحياة العامة مشاركة فعالة. واليوم أصبحت الصورة أسوأ مما كانت عليه لوجود انطباع بأن الصحافة التليفزيونية الرسمية - وهي المنبر الذي يتلقى عبره الناس الأخبار ويعونها - إنما تتحدث (إلى) الناس، ولا تتحدث (معهم). وغالباً ما ينتج عن ذلك الشعور بالسلبية والضعف. فلا يشعر الجمهور بأن له أي نوع من السيطرة على النظام السياسي، وهذا ينعكس في أعداد الناس الذين لا يستهلكون أية أخبار على الإطلاق من داخل الولايات المتحدة؛ فالآن حوالي 20% من السكان مقارنة بحوالي 14% منذ عشر سنوات مضت. أظهرت دراسات لإحدى جامعات شيكاغو حول طريقة التغطية الإخبارية لفترة الانتخابات الرئاسية لعام 1992 بالولايات المتحدة في تشكيل فهم الناس للسياسة أن الاهتمام الصحفي إما بالسخرية أو بالتعقيد الشديد للمسائل والقضايا قد ساهم في شعور الجماهير بعدم المشاركة. إننا لا نزال في حاجة إلى فهم ما إذا كانت التكنولوجيا

الجديدة – مثل الهواتف الخلوية والإنترنت والفرص التي توفرها تلك التكنولوجيا للصحفي غير المحترف – سوف تعيد البحث فش المشاركة السياسية.

أثر الأعمال التجارية على التغطية السياسية

إن عدم مشاركة الجمهور لا تعود فقط إلى تعقد الأخبار. فالعوامل التجارية الضاغطة تعمل على دفع عملية التغطية الإخبارية نحو المحتوى الأقل سعراً، والمبني على الآراء، والمحتوى الذي يتميز بالتفاهة أو البساطة، وفي مقابل ذلك التيار الجارف والعنيف، عانت التغطية السياسية الكثير والكثير. من المؤكد أن اهتمام الإنترنت بالمشاهير وبالأخبار الشخصية والجريمة يعتبر متزامناً مع وسائل الإعلام ذاتها إذ أن هدف الصحف والإذاعات التجارية هو أن تظل تسلم الجماهير إلى أصحاب الإعلانات وليس مجرد نقل الأخبار لتلك الجماهير.

بما أن الأمر يتعلق بالتغطية السياسية، فإن ملكية بارونات لصحافة الأثرياء بداية من أواخر القرن التاسع عشر وحتى ما بعد ذلك في كل من الولايات المتحدة وأوروبا كانت تعني اتساع التوجه المعارض لاتحاد العمال، وتأييد التغطية التجارية وهيمنة وجهات نظر جناح اليمين. حسب قول كل من "جون نيكولاس" و "روبرت ماكشنسي" : "في مجتمع تلو الآخر، كانت الصحف تحابي كل الذين كانوا يملكون المجتمع ويسيطرون عليه".

أثناء المنافسة الرئاسية عام 1912 بالولايات المتحدة أظهر المرشحون الثلاثة – وهم "وودرو ويلسون" و "ثيودرو روزفلت" و "روجين ديبس" – معارضتهم للفساد ولظلم الصحافة، وهو ما كان يمثل نفس الإحساس الذي كانت صحافة الإثارة تضعه أساساً جوهرياً للديمقراطية. وقد نشأت الصحافة المهيمنة من تلك النظرة كصناعة "نصف – منظمة" ابتكرها مالكون يشعرون بالشوق إلى تجنب الإصلاح المنظم. هذا هو عصر ظهور العديد من الرموز الأخلاقية – التي ظهرت

على جانبي المحيط الأطلنطي – ولا تزال تستخدم إلى يومنا هذا، وهي رموز ابتدعتها صحف فردية وتكتلات مهنية معينة مثل المحررين والصحفيين. تلك الرموز تضمنت الاحتراف professionalism الذي منح الصحفيين المزيد من السلطة للدفاع عن قضية التحرير الصحفي من أجل تغطية الخدمة العامة.

لقد وصلت الأخبار المصورة إلى مستويات عليا جديدة مع اختراع التليفزيون. فهذه الوسيلة أدت إلى وجود توتر دائم يمكن أن يتم تفسيره على أنه يمثل ضرراً على الصحافة، بل وعلى الديمقراطية ذاتها ولكن بصورة أقل. الأمر الأول أن أثر نقل التليفزيون يبسط ويشوه الأحداث عند عرض التليفزيون لتلك الأحداث. فكل حدث يعد بنفس أهمية الحدث الذي يسبقه أو الحدث الذي يليه. وبما أن التليفزيون ينقل العديد من المشاهد فلن يكون للترتيب التاريخي أو المتسلسل أية أهمية. والأخطار التي تكمن في مثل هذا العجز في السياق التاريخي لاحظها "جريج فيلو" و "مايك بيري" في دراسة لهما عن "أخبار سيئة من إسرائيل" حيث ذكرا : "إحدى القضايا الأساسية التي تنشأ عن هذا البحث هي أنه من وجهة نظر العديد من المشاهدين، يتعلق مستوى اهتمامهم بالخبر مباشرة بمستوى فهمهم لما يشاهدونه".

تتضمن الأخبار التليفزيونية سلسلة من الأساليب المجازية التي يبني من خلالها المشاهير "الحقيقة". والمجاز يعتبر أداة يرمز بها الجزء إلى الكل. على سبيل المثال يمكن للقطة واحدة أو قصاصة من فيلم أن تعرض لخطة زمنية، لكن في تلك "اللحظة" يبني المشاهد "الحقيقة" الكاملة عن الحدث.

رغم ذلك، يمكن أن يخطئ المشاهد في تصوره للحدث، ذلك لأن التليفزيون يعرض لنا – بصورة مختلفة – الأمور الدراماتيكية والغريبة وغير المعتادة دون أن يعرض الأمور اليومية أو غير الخيالية أو المملة التي لا تستحق النشر على وجه الخصوص : "إن الميل الطبيعي للتليفزيون هي رؤية العالم في شذرات. فهو يعرض لنا الحدث في جو من الدراما البالغة، ثم يتناساها ليعرض لنا الحدث الذي يليه".

ومع ذلك فإن السياسة حول الأولويات كما تشتمل في غالب الأمر عرض المفاهيم والقيم التي قد لا تبدو ظاهرة بالضرورة، ولذا فإنها لا تستسلم بسهولة للوسيلة الإعلامية.

إحدى الطرق التي يحل بها التليفزيون مشكلة إيصال المفاهيم والقيم هي أن يقوم بذلك من خلال عملية الشخصنة[1] **personalization**. وهذه الطريقة هي الأثر الثاني من الآثار الضارة التي تحدثنا عنها من قبل. فمن ناحية، يظهر مقدمو الأخبار وكأنهم أصحاب سلطة ويشركون شخصيات ممن يعرفونهم، ومن ناحية أخرى يصبح من تم عقد اللقاء معهم أيضاً شخصيات شهيرة جراء ظهورهم في لقاءات أخرى بصفة مستمرة. وبذلك يتم عرض الخبر بصورة مسلية، مثل جميع الأعمال التليفزيونية الأخرى تقريباً. ودائماً ما يتم التركيز على طبيعة اللقاء، وعلى "تناطح" الشخصيتين أمام مجلس العموم أو أمام البيت الأبيض. لا على القضية التي تعتبر مبرراً لعقد اللقاء.

علاوة على ذلك، قد تكون القضية المطروحة للنقاش غير ذات أهمية، أو لا علاقة لها بالنظام السياسي. إن دور وسائل الإعلام في المجتمع الديمقراطي والتوترات بين الحافز التجاري لبيع الصحف والبرامج بالإضافة إلى المتطلبات الاحترافية والمهنية التي تضمن إطلاع الجمهور بصورة جيدة، كل ذلك كان واضحاً وجلياً قبل ظهور التليفزيون. لقد تم تحليل هذا الدور، وتلك التوترات، في أمريكا بشيء من التفاصيل فيما يسمى "تقرير هوتشنز" **Hutchins Report**. ففي عام 1942 أنشأ "روبرت هوتشنز" رئيس جامعة شيكاغو - كما أوصى "هنري لوس" مؤسس صحيفة "التايم" - مفوضية الخير والشر للبحث في حالة الصحافة الأمريكية و "خلال هذا السياق، في الثامن والعشرين من فبراير عام 1944 أعلن (هوتشنز)" عن نيته... أن يكتشف أين يكمن التعبير الحر أو أين يكون غير ممتد إما من قل الرقابة الحكومية، أو الضغوط من

[1] إخفاء طابع الشخصية.

القراء أو أصحاب الإعلانات أو عم كلمة مالكي أجهزة الإعلام أو قلة خبرة الإدارة".

تقرير "هوتشنز" : صحافة حرة ومسئولة

كان لدى مفوضية "هوتشنز" اعتقاد بأن الصحافة كانت تخفق في أداء واجبها في أن تعكس قضية الديمقراطية بصورة صحيحة. ففي تقريرها بعنوان "صحافة حرة ومسئولة"، دعا أعضاء المفوضية الصحافة إلى تحسين ذاتها باسم المبادئ الأخلاقية والديمقراطية والتحفظ الذاتي. وقد تم رفض النتائج التي توصلت إليها المفوضية من قبل الصحافة ذاتها والتي اتهمت أعضاء المفوضية أنفسهم بأنهم "دمويون". كانت لدى المفوضية مخاوف من أن تصبح الحريات المنصوص عليها في التعديل الأول على شفا الخطر الذي تشكله النظم النفعية التي تم تشكيلها مؤخراً في أماكن هامة من العالم. ومن خلال تصويرها للصحافة كمنتدى لتبادل التعليقات والانتقادات، أكدت المفوضية على أهمية الصحافة الجيدة والحسنة بالنسبة للديمقراطية وذلك بشرح ما ينبغي أنه تتضمنه الممارسة الجيدة، وذلك بالتأكيد على أن الروايات الإخبارية يجب أن تقدم في سياق يعزز فهم الجمهور، وأن الجمهور "يحتاج إلى الوصول الكامل للاستخبارات اليومية".

رغم أن التقرير كان قد كتب بلغة قديمة - أقدم من لغة التليفزيون والإنترنت - إلا أنه يتيح أدوات تفيد في قياس أداء الصحافة الحالية، وخاصة فيما يتعلق بلغة الأخلاق ومعايير للحكم. وقد اشترط التقرير خمسة متطلبات بسيطة للصحافة المسئولة، وهي متطلبات لا تزال موجودة الآن وتعتبر اختباراً عادلاً لما ينبغي أن ينشر، ولطريقة مساهمته في المجتمع :

> **يحتاج مجتمعنا في هذه الأيام إلى : أولاً، تقرير صادق وشامل وذكي حول أحداث اليوم في سياق يضفي عليها معنى؛ ثانياً، منتدى لتبادل التعليقات والانتقادات؛ ثالثاً، وسيلة لعرض الآراء والاتجاهات لكل**

الجماعات داخل المجتمع؛ رابعاً، طريقة تقديم وإيضاح أهداف وقيم المجتمع؛ خامساً، طريقة للوصول لكل فرد في المجتمع بالكثير من المعلومات المختلفة والأفكار والمشاعر التي توفرها الصحافة.

رغم أن التقرير يضم مبادئ التعديل الأول، إلا أنه تعرض لانتقادات كثيرة لأنه يتخذ مدخلاً أو أسلوباً أكاديمياً. وهذه السمة بالذات كانت تتطبق على أمثلة كثيرة؛ على سبيل المثال فيما يخص طريقة تحرير الحقائق الفردية أو المنعزلة دون وجود أي سياق، هذا أمر يمكن أن يفسد علاقات التنافس. لم تعرض تلك المسألة على مستوى الأقليات، بل على مستوى الجماعات الأساسية.

في ذلك الوقت، قال الناشرون إن توصيات تقرير "هوتشنز" سوف تؤدي إلى إشهار إفلاسهم، لأنه إذا طلب من الصحفيين ذكر السياق، فإنهم سيحتاجون إلى المزيد من الوقت للبحث والكتابة؛ وذلك يتطلب المزيد من التكلفة والمال. واعترض الناشرون أيضاً على فكرة مشاركة الجمهور في إصدار الحكم على المعايير الصحفية خشية أن يكون ذلك مقدمة لسيطرة الحكومة على أجهزة الإعلام. كما أنهم رفضوا توسع التعديل الأول في حقوق المؤسسات الإذاعية.

ذكر التقرير أن حرية الصحافة كانت "في خطر داهم بسبب عمليات الفشل وإساءة الاستعمال والتخلي عن الواجب من جانب أكثر مالكي أجهزة الإعلام سلطة ونفوذاً والذين كانوا يقومون إمبراطورياتهم دون اهتمام بالجماهير العامة أو بآرائها. وما زعمه "هوتشنز" عن الصحافة كان حقيقياً فعلاً وذلك بشأن أجهزة الإعلام الإذاعية. لقد كان هناك نزاع كبير لعدة سنوات بين مؤسسة "إف سي سي" والمحطتين التليفزيونيتين "سي بي إس" و "إن بي سي" والرابطة الوطنية للمذيعين والكونجرس بشأن وجود احتكار محتمل لأن كبرى الشبكات الإذاعية تسيطر على العديد من المحطات ذات النفوذ الأكبر. وفي نهاية الأمر، في عام 1943 أيدت المحكمة العليا مطالبة مؤسسة "إف سي سي"

لمؤسسة "إن بي سي" بالتخلي عن إحدى شبكتيها، والتي أصبحت بعد ذلك تعرف باسم "إيه بي سي". ورغم وجود هذا الميل نحو التركيز الإعلامي المتزايد، أحجم تقرير "هوتشنز" عن تطبيق قوانين مكافحة الاحتكار لأن ذلك يمكن أن يفسد حرية الصحافة، كما يمكن استغلاله لتقييد الأصوات المعارضة وإعاقة عملية التعليم العام.

على كلى الجانبين من الأطلنطي، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، ساد شعور بحاجة ملحة تحيط بمسألة السيطرة على أجهزة الإعلام الإخبارية، وهي حاجة حفزتها نوعاً ما الشهرة الواسعة التي حققها التليفزيون. وقد دعا تقرير "هوتشنز" إلى إنشاء لجنة غير حكومية دائمة لتقوم بعمل مراجعة مستمرة للصحافة. وفي بريطانيا، شكلت الحكومة "المفوضية الملكية للصحافة" The Royal Commission التي اقترحت فكرة تشكيل "مجلس الصحافة" Press Council يكون مسئولاً عن التنظيم الذاتي لهذه الصناعة. في كلتي الحالتين كانت النتائج غير مرضية، وهذا ما أدى إلى دعوات لفرض ضوابط قانونية على الصحافة. وقد اتخذت أخلاقيات الخدمة العامة بهيئة الإذاعة البريطانية مثالاً على ذلك. وفي نهاية الأمر، تم ترك الصحفيين ليقرروا مصيرهم عسى أن يتفهموا حاجتهم إلى ضبط الذات على المستوى الفردي، ثم يترجموا ذلك إلى التنظيم الذاتي على مستوى صناعة المهنة. ربما يصبح التركيز على الأغنياء وأصحاب السلطة والفاسدون حجر الزاوية في المستقبل الرقمي للصحفيين.

الفصل الرابع

حبك النسيج المناسب

لقد كانت الحكومات تسعى عبر التاريخ إلى إيجاد طرق "لإدارة" الصحافة وأجهزة الإعلام الإخبارية الأخرى. ومدى ما تصل إليه الحكومة من استخدام للديمقراطية ينعكس في مساحة الحرية التي يسمح بها لوسائل الإعلام الإخبارية، حيث توزع مساحة الحرية بالتساوي بين جميع الوسائل. هكذا كانت هناك عدة محاولات في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر – خاصة بالنسبة للصحافة – على جانبي الأطلنطي تتم بصورة سيئة مع الصحفيين، وأيضاً مع قرائهم. وفي غياب التخطيط الصحيح على مدى فترة كبيرة من القرن العشرين، كان يتم اللجوء إلى لجان تحقيق وبحث مؤقتة، وإلى العديد من الضوابط التطوعية في محاولة للسيطرة على الموقف وسط أسوأ الظروف، وخاصة في مجال الشعبية **Tabloid press**. ففي بريطانيا تم تشكيل ثلاث لجان ملكية للصحافة والإذاعة منذ الحرب العالمية الثانية ما بين أعوام 1947 و1962 و1977. وفي الولايات المتحدة، بالإضافة إلى تقرير "هوتشنز"، قامت مؤسسة AFT في "سوفي لاندز" بكاليفورنيا بتشكيل لجنة لبحث الصحافة عام 2004 حيث درست دور الصحافة في الديمقراطية. قامت اللجنة أيضاً بالبحث "عن أساليب تسمح للمزيد من الأصوات بالانتشار ولتحسين أوضاع المؤسسة الأمريكية للصحافة الحرة". إذاً ففي حين ظلت الحكومات تتخذ جانب الحذر من السيطرة القانونية، إلا أنها قد طورت – بصورة تدريجية – مزيداً من الطرق الأخرى الخفية للسيطرة على تدفق وانتشار المعلومات.

تمخضت تلك السيطرة المحكمة عن صناعة جديدة تماماً لمتخصصين في العلاقات العامة اتجهوا نحو "دهاليز السلطة". على سبيل المثال، ضاعفت "مارجريت تاتشر" عدد المسئولين عن الصحافة أثناء توليها المسئولية السياسية في "دوانج ستريت" وأشرفت بنفسها على مضاعفة الاتفاق بنسبة 500% على "المكتب المركزي للمعلومات" الذي كان يدير أقسام العلاقات العامة بالحكومة البريطانية. والآن يمارس مسئولو العلاقات العامة والهيئات الجديدة نفوذهم وسيطرتهم على محتوى الأخبار إلى حد لم يسمع أحد به الآن. ودرجة اعتماد الصحفيين على تلك المظاهر - كما أظهرت الأبحاث والصحفيون أنسفهم - تطرح الآن علاقة استفهام عن دورهم الحقيقي كأعضاء مستقلين في السلطة الرابعة.

من الذي يروي القصة ؟

لقد تأثرت صناعة العلاقات العامة الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية بشدة بأفكار ويلسون التقدمية Wilsonian progressives التي من خلالها - كما ذكر "ناعوم تشومسكي" - "دافع عن (هندرة الموافقة) engineering of consent وهو أسلوب للسيطرة يستخدمه المسئولون لصالح التابعين لهم من العامة؛ أي جماهير الجهلاء". في بريطانيا يعود تاريخ نشأة إدارة الإعلام - كما لوحظ دائماً - إلى أواخر السبعينيات من القرن الماضي ووصول "مارجريت تاتشر" إلى السلطة. وكان ذلك أثناء أحداث فضيحة "ووترجيت" التي هزت أمريكا كلها. لكن ما كان يمثل "العصر الذهبي" للصحافة الاحترافية الموضوعية في أمريكا بشرت به في بريطانيا العظمى ثقافة سياسة أصبحت ثقافة ترويجية ومنظمة وليس مجرد ثقافة إعلامية بحتة.

لقد أصبح "برنارد إنجهام" - السكرتير الصحفي "لمارجريت تاتشر" - بارعاً في تسريب الولايات التي تؤدي إلى زعزعة منافسيها. فأثناء نفس الفترة، تم استغلال

شركات التسويق والعلاقات العامة مثل شركة "ساتشي وساتشي" لترويج أفكار حزب المحافظين كما لو كانت سلعة. فقام حزب العمال بدوره بالدفاع عن "مجموعة الاهتمام" Focus group و"الحبك" spin، وقد لقيت المجموعة الأخيرة رد فعل معايير من قبل الصحفيين الذين لم يرضوا بأن يتعرضوا إلى نوع من الاستغلال. ظهر هذا العداء في الولايات التي سلطت الضوء على عملية الإدارة الإعلامية لكي تستطيع أن تواصل ما وصلت إليه من مشاركة في المسهد بكامله. وكانت نتيجة ذلك بالطبع هي تحفيز المزي من السخرية من قبل الجمهور من دوافع رجال السياسة. لقد أصبح ذلك الآن جزءاً لا يتجزأ من أزمة أكبر داخل نطاق النظام السياسي؛ وإنها لأزمة ثقة أحدثتها كل من أجهزة الإعلام ورجال السياسة أنفسهم إذ أن ثقافة السخرية والسلبية للصحافة تجاه أولئك الذين يتمتعون بالسلطة أصبحت – حسب رأي العديد من المعلقين – تشكل خطراً شديداً على الديمقراطية.

رغم ذلك، لا زال هناك بعض الأوقات التي تستفيد خلالها الحكومة المنتفخة من مثل تلك السخرية. ففي مايو من عام 2003 – بعد شهرين من غزو العراق – أدعى المراسل الدبلوماسي والعسكري لهيئة الإذاعة البريطانية BBC "أدرو جيليجان" على البرنامج الإذاعي الصباحي "توداي" Today أن أحد الملفات التي نشرتها الحكومة البريطانية – الذي يبين لماذا كان العراق وحاكمه الدكتاتور صدام حسين خطراً – تم تهويله للمبالغة في وصف القدرات العسكرية للعراق". فقد ذكر في الملف أكثر من أربع مرات أن العراق تمتلك أسلحة دمار شامل يمكن نشرها في غضون 45 دقيقة. وقد نشب خلاف كبير بين هيئة الإذاعة البريطانية والحكومة بشأن هذا الإدعاء. و"الجاسوس" الذي سرب التفاصيل لجيليجان" – وهو المسئول في الحكومة الدكتور "ديفيد كيلي" – ذكر اسمه في وسائل الإعلام ثم انتحر بعد ذلك، ومع ذلك لا يزال موته إلى الآن يلفه الغموض.

طلب رئيس الوزراء "توني بلير" فتح تحقيق اللورد "هوتون". رغم أن التقرير يعتبر من أكثر التقارير علانية في تاريخ القضاء البريطاني، إلا أنه رمى بجانب كبير من اللوم على هيئة الإذاعة البريطانية ١. فذكر التقرير أن "جيليجان قد قدم ادعاءات ليس لها أساس عندما قال إن الحكومة ربما كانت على علم بأن ادعاءها توقيت 45 دقيقة كان خاطئاً". وقد استقال كل من "جافن ديفيز" رئيس مجلس إدارة هيئة الإذاعة البريطانية و"جريج دايك" المدير العام و"أندرو جيليجان" نفسه. ورغم أن "جيليجان" وهيئة الإذاعة قد وُجه إليهما النقد في تقرير "هوتون"، إلا أنه كان هناك شعور سائد بين الصحفيين البريطانيين أنه – بالرغم من الأخطاء في التقرير وفي تصرفات "جليجان" – إلا أنه نجح في فضح الإخفاقات التي لحقت بأعمال الحكومة والمخابرات فيما يتعلق بمسألة أسلحة الدمار الشامل. باختصار شديد، لقد أدت أجهزة الإعلام إحدى وظائفها الرئيسية بشأن تعريض الحكومة للمحاسبة، خاصة في الحالات التي يخفق فيها البرلمان في إيجاد حل، تماماً مثل تلك الحالة.

سيتم نقل كل ما تقوله بأسلوب خاطئ

إن تاريخ العلاقات العامة معقد ومتنازع عليه كممارستها تماماً. فعلاقتها بالصحافة علاقة مضيئة وصعبة على حدٍ سواء. ففي واقع الأمر – حسب رأي اثنين من الأكاديميين الإعلاميين وهما "دينيس ديلورم" و"فريد فيدلر" – "يبدو أن الصحفيين يعاملون العلاقات العامة والعاملين بها باحتقار". وهذا العداء يبدو أنه قد وجد طالما ظل العاملون بالعلاقات العامة يمارسون ما يطلق عليه البعض اسم الفن "الشائن" **nefarious art**. إذاً، ما هي "العلاقات العامة" ومن أين أتت؟ وهل الصحفيون أنفسهم مسئولون نوعاً ما عن توجيه هذا "الوقواق" إلى عشه؟ ولماذا يتم تعريف بعض أنواع معينة من العلاقات العامة بأنها "عملية حبك" **spin**؟ وهل هذا المصطلح ينطوي على ازدراء لعمل العلاقات العامة بالكامل،

ويسبب ضرراً لقضيتي الصحافة والديمقراطية؟

طبقاً للمؤسسة البريطانية "معهد تشارتر للعلاقات العامة": تعتبر العلاقات العامة جهداً منظماً يهدف إلى تحقيق النوايا الحسنة والتفاهم بين المؤسسة وجماهيرها والحفاظ عليهما. ربما يستحق هذا الهدف كل الثناء، ولكنه ينطوي على مخاطر كبيرة تتهدد الصحفي الذي يعتمد على المادة التي توفرها العلاقات العامة باستمرار. لقد ذكرت "جمعية العلاقات العامة بأمريكا" في عام 1988 أن "العلاقات العامة تساعد المؤسسة وجمهورها على تأقلم العلاقة المتبادلة بينهما". ومع ذلك فبشأن ما ذكره معهد "تشارتر" يبدو أن العلاقة المتبادلة توجد في فراغ؛ إذ أين مثلاً توجد الحقيقة والحيادية والعدالة؟ ففي بريطانيا لم يكن هناك تقريباً أي افتراض بأن عالم العلاقات العامة والصحافة يتشاركان في مبادئ السلوك أو العضوية في نفس المؤسسات. من الناحية التقليدية - كما يقول "دينيس ديلورم" و"فريد فيدلر" دائماً ما ينبذ الصحفيون البريطانيون العلاقات العامة ويسيئون معاملة العاملين بها.

حسب قول الصحفي "توم بيستو" إن "هدف العلاقات العامة هي أن تخبرك بما تريد أن تعرفه. وتوفر عليك قضاء وقت في استكشاف ما لا تريد أن تعرفه". أحد الأمثلة الأكثر لفتاً للانتباه على ذلك هو إجراء الحماية الذي اتخذته الشركات العامة بشركات التبغ وذلك بإنكار وجود أية علاقة بين منتجاتها وسرطان الرئة. وفي عام 2003 نشرت صحيفة "الأوبزرفر" تقريراً يفيد بأن "شركة إبديال توباكو" كانت "بصدد اتخاذ خطوة غير مسبقة هذا الأسبوع لإنكار وجود علاقة سببية بين التدخين وسرطان الرئة في أولى الدعاوي المرفوعة ضد إحدى شركات السجائر داخل المحكمة بالمملكة المتحدة".

رغم ذلك لا يمكن إنكار أن "الصحفيين والمحررين الأوائل كانوا مثال الفضيلة" أيضاً. فالكثيرون قد عملوا في هذا المجال (أي مجال التلفيق أو تزييف الحقائق مثلاً) وهو عمل لا يتوانوا هم أنفسهم عن شجبه إذا ما قام العاملون

بالعلاقات العامة بممارسته". لقد أعلن اللورد "نورثكليف" أن مبيعات "ديـلي ميـل" في أول يـوم من أيام النشر الخاصة بها في الرابع من مايو عام 1896 قـد ارتفعـت إلى 700,000 نـسخة. ومـع ذلك، لم يكن أسلوبه صـحيحاً في الكـشف عـن الحقيقـة بمثـل هـذا التـصريح المبـسط. كـما كـان "نورثكليف" أيضاً يستخدم الإعلانات المبالغ فيها لبيع صحفه بنفس الأسلوب الشائن الذي كانت تتبعه الشركات الكبرى. ففي عام 1906 على سبيل المثال، عرضت "الميل" ألـف جنيـه لأول رحلـة جوية عبر القناة الإنجليزية وعشرة آلاف لأول رحلة جوية من لندن إلى مانشـستر. مـن الـصعوبة بمكان أن نميز بين مثل هذه المبالغات الإعلانية والعمل المعتاد لموظف العلاقات العامة المجتهد.

كانت مخاطرات "نورثكليف" في الإعلانات نوعاً من الدعاية يعتـبر عمـلاً سـاذجاً في هـذه الأيـام. ففي الوقت الحاضر تشكو العديد من المؤسسات - حكومية كانت أو تجارية أو عامـة - مـن أن الصحفيين يسيئون نقل ما يقتبسونه عنهم، وأنهم يحولون الحقائق الجوهرية إلى زيف، أو أنهـم يفشلون في سرد الرواية بالكامل. إن التعاقد مع أحد المـسئولين الـصحفيين لـدى قـسم صـغيراً أو كبيراً للعلاقات العامة - وإذا كانت المؤسسة كبيرة بالقدر الكافي - غالباً ما يبـدو تعاقـداً يـشتمل على مبالغ زهيدة إذا ما قورن بالفرصة التي تتاح لنشر الرواية الخاصة بالمؤسسة بـصورة دقيقـة. وبالرغم من ذلك فإن الـهام الذي يوجه دائماً إلى العلاقات العامة في هذه الأيام هو أنـه دائمـاً مـا تتجه نحو تشويه المعلومات ومحاولة إخفاء الحقائق غير المفضلة.

السمعة شيء في غاية الأهمية

مـن وجهـة النظـر الـصحفية، مـن الممكـن تحديـد ثلاثـة متغـيرات خاصـة بـالفكرة العامـة للعلاقات العامة، وهي مـسئولة عـن إطـلاق سـمعة عـن العلاقـات العامـة بأنهـا "فـن غـامض" :DARK ART

1. الحبك spin

2. الأحداث الكاذبة pseudo events

3. المدخل المألوف habitual access

استخدم مصطلح "التدوير" لأول مرة في الثمانينيات من القرن الماضي لوصف الصحفيين الذين كان الساسة والحكومات يوظفونهم ويستغلونهم. ومهمة هؤلاء العملاء كانت ترويج نشاط الحومة بصورة محبوبة ومبسطة بقدر الإمكان. وقد بدأ باستخدام كلمة "التدوير" مبكراً في المملكة المتحدة، فظهرت الكلمة على صفحات صحيفة "الجاريان وليكي" في يناير عام 1987: "إن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CIA تعتبر مصدراً متميزاً (للمعلومات)، رغم أنها كغيرها من وكالات الاستخبارات، لابد أن توزن أعمالها بميزان الواقعية والتدوير". وقد ظهر مصطلح "المستشارين" spin doctor في نفس الوقت تقريباً. على سبيل المثال، ظهر الآتي على صفحات "النيويورك تايمز" في أكتوبر عام 1980: "اثنا عشر رجلاً وامرأة، يرتدي الرجال بذات حسنة المظهر، وترتدي النساء فساتين من الحرير، سينتشرون بسلاسة وسط الصحفيين ليبثوا فيهم آراءً موثقاً بها"؛ ولن يكونوا مجرد عملاء يعملون بالصحافة يسعون إلى إخفاء صيغة مواتية ومناسبة على التصريحات الروتينية، بل سيكونون (مستشاري التدوير)والمرشدين الرئيسيين للمرشحين".

ومع ذلك نحتي قبل تلك الأمثلة، وقبيل الحرب العامية الثانية، استخدمت الحكومة البريطانية – بقيادة "نيفيل تشامبرلين" – أسليب التدوير للاستمرار في سياسة الاسترضاء تجاه "هتلر" وكل الحكام المستبدين الفاشيين معبر أوروبا. ولنشر مثل تلك السياسة وضمان وجود صحافة مؤيدة، أرسل "تشمبرلين" مبعوثين ينوبون عنه شخصياً لكل من ملاك ورؤساء تحرير الصحف، وأنشأ مكتباً صحفياً كبيراً في "دوانغ ستريت"، ثم استغل العلاقة الوثيقة بين وزراء

الحكومة والعديد من ملاك ورؤساء تحرير الصحف.

أساليب الحبك

الحبك ينطوي على التفسير. فالحدث لا يمكن أن يتحدث عن ذاته وإنما يتم تفسيره من قبل وسيط – عادة ما يكون هذا الوسيط موظفاً بإحدى المؤسسات يطلق عليه ممصطلح مستشار الحبك – لإقناع الرأي العام بطريقة معينة. ومع ذلك فثمة افتراض ضمني بأن الحبك ينطوي أيضاً على مستويات عليا من التلاعب الذي يقوم على الخداع. فرجال السياسة غالباً ما يتهمون – من قبل خصومهم على الأقل – باستخدام الحبك بهدف التلاعب بأجهزة الإعلام والجماهير.

لقد تم استغلال أساليب الحبك في فترات طويلة وبصورة مختلفة تختلف بعدد استخدامات تلك الأساليب. فهناك طرق كثيرة يمكن من خلالها "حبك الرواية أو الحدث، ولكن الطرق البارزة وسط كل تلك الطرق يمكن طرحها كما يلي:

1. انتقاء الكرز **Cherry picking**
2. نكران اللانكران **The nondenial denial**
3. تمويه الخبر السيئ **disguising news**

يتضمن انتقاء الكرز تقديم المعلومة بطريقة منتقاة لدعم موقف معين أو وجهة نظر معينة. على سبيل المثال، يمكن استخدام موقف فردي للتأكيد على موقف معين مع تجاهل الأمثلة التي تظهر تناقضاً مع هذا الموقف. ولكن هناك مخاطر كامنة في أسلوب انتقاء الكرز. ففي الانتخابات العامة في بريطانيا عام 1992 حيث كان يأمل حزب العمل في إسقاط إدارة "جون ميجور" المحافظة قامت إحدى محطات انتخابات حزب العمل الإذاعية بتهويل أحد الأحداث التي عرفت

باسم "أذن جنيفر" Jannifers Ear. روت محطة حزب العمل للانتخابات قصة فتاتين صغيرتين كانتا تعانيان من "الأذن الصمغية" glue ear (التهاب الأذن الوسطى مع وجود نزيف بها). كانت إحدى الفتاتين قد أجبرت على الانتظار من أجل العلاج بمؤسسة الخدمات الصحية القومية بسبب العجز في الميزانية (حسب إدعاء حزب العمل) في حين تم علاج الفتاة الأخرى علاجاً خاصاً بأقصى سرعة. تسببت محطة حزب العمل للانتخابات في نشر الفضيحة، فقد أهدرت مؤسسة الخدمات الصحية القومية وقتها في محاولاتها لمعرفة من الذي استطاع أن يسرب هذه الرواية، ولم ترتكز على مسألة تميل المؤسسة. وقد وجد حزب المحافظين نفسه مضطراً إلى تقديم عدد من الروايات التي تدور حول رعاية المؤسسة للمرض.

يعزي مصطلح "نكران اللانكران" إلى "بن برادلي" Ben Bradlee رئيس تحرير مجلة "الواشنطن بوست" إبان أحداث "ووترجيت". تشمل الأمثلة على ذلك وصف أي تصريح بأنه "سخيف" ludicrous أو "غريب" absurd دون الإعلان صراحة عن أنه "غير صحيح" untrue، أو تنقيد مصداقية المصدر بدلاً من الادعاء بأنه مصدر مزعوم. إن رجل السياسة المعاصر عليه أن يكون واعياً بالرسالة وأن يكون على استعداد لإنكار "المعيار" أو نفيه إذا احتاج الأمر ذلك. تقوم الآن الأحزاب السياسية بإنشاء وحدات للنفي. يذكر "إيان هارجريفز" Ian Hargreaves المحرر السابق بصحيفة "نيو ستيتمان" إنه: "ذات يوم، قبل نقل الصفحات النهائية إلى المطبعة مباشرة، تلقيت مكالمة تليفونية من المكتب الرئيسي "لميلبانك" التابع لحزب العمال، وكان على الطرف الآخر شاب يبدو من صوته أنه صغير السن ومثقف، فقال لي: "أتصل بك من وحدة ميلبانك للنقض السريع. هل يمكن أن تخبرني بما ستشتمل عليه صفحات مجلتكم هذا الأسبوع حتى أستطيع أن أعد عملية النفي؟" لقد وصل التحكم بالأخبار إلى مستويات توضح أنه أصبح الآن أمراً شائعاً بالنسبة للأحزاب السياسية

والحكومات أن تصدر نفياً مسبقاً، بحيث تعد عملية النفي قبل أن يتم نشر الرواية ذاتها.

أما تمويه الأخبار فيمكن أن يتم إما بضم الرواية "المسمومة" Toxic في عرض صحفي يشتمل على عدد من الروايات الإيجابية الكبيرة أو بتأجيل نشرها حتى يمكن أن تصبح "خفية"؛ تتخفى وراء أحد الأحداث الهامة. ففي بريطانيا أرسلت "جومور" المسئولة الصحفية بحكومة حزب العمال بريداً إلكترونياً في الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 عقب أحداث تدمير مركز التجارة العالمي بنيويورك قائلاً إنه يوم مناسب لنشر أية رواية ترغب الحكومة في أن يتم "دفنها". وقد بلغ النقد الموجه إلى هذا التعليق حداً أجبرها على أن تتقدم باستقالتها.

في بريطانيا يعتبر أفضل الدعاة المعروفين "للحبك" هم "آلاستير كامبل" Alastair Campbell وكان يعمل سكرتيراً صحفياً "لتوني بلير" ما بين عام 1994 وعام 2003، والصحفي الخبير بالشئون العامة "ماكس كليفورد" Max Clifford الذي كان يتربح فعلاً من خلال عمله كمدافع عن سمعة المشاهير. ولكن بالنسبة للكثيرين أصبحت تلك الكلمة الآن كناية رقيقة عن الدعاية، وقد أدت إلى ارتياب عام على نطاق واسع في كل من الصحفيين ورجال السياسة. ولو قبلنا فعلاً بأن الصحفيين عليهم أن يقوموا على خدمة مصالح واهتمامات قرائهم ومستمعيهم ومشاهديهم، إذاً فإن العمل على خدمة الحقيقة إنما هو المطلب الأساسي الأول. فالحقيقة تولد الثقة والثقة هي العملة الشائعة التي تصل بين الصحفيين وجماهيرهم.

أما المدخل المألوف فهو النتيجة الحتمية للمقدرة التي تتمتع بها المؤسسات على تعيين عدد كاف من العاملين بالعلاقات العامة الذين يستطيعون "غمر" أجهزة الإعلام الإخبارية بسيل متدفق ومستمر من "الروايات" التي تخص مؤسساتهم. لقد أجرى عالم الاجتماع "هيربرت جانز" Herbert Gans أبحاثاً عن إجراءات جمع الأخبار داخل غرف الأخبار في التليفزيون والمجلة الرسمية وتوصل

إلى نتيجة مؤداها أن المصادر الناجحة غالباً ما تكون قوية ومخططة جيداً وقادرة على توفير سيل دائم من المعلومات في الوقت المناسب وبالوسيلة المنشودة. نتيجة لذلك، هذه المصادر (مؤثرة) و (فعالة) وغالباً ما تتمتع "بمدخل مألوف" نحو أجهزة إعلام الأخبار. مرة أخرى، يكمن الخطر في أن أجهزة إعلام الأخبار تفقد استقلالها بمجرد أن تشرع في الاعتماد على مثل تلك المواد الصادرة عن هذه المصادر بصورة منتظمة وكما أشار إلى ذلك "كوران" **Curran**: "بهذه الطريقة لا يعتبر ما نراه (خبراً) سوى مجرد إعلان مجاني".

هكذا فكلما اعتمدت الصحافة على نتاج العلاقات العامة كأساس لرواياتها كلما أصبح الصحفيون عرضة إلى رياء وتملق آلة العلاقات العامة. يذكر "نيك ديفيز" **Nick Davies**: "معظم أنشطة العلاقات العامة لا تنطوي على الزيف أو الكذب المباشر ... ففي أغلب الأحيان تقوم العلاقات العامة بتحريف فن لطيف - ومخرب في نفس الوقت - ينطوي على اختيار متعقل للحقائق والقضايا، وفي أغلب الأحيان تقوم بالتلاعب الذكي على الصحفيين بهدف إقناعهم بالتركيز على الجوانب التي يتم اختيارها لهم فقط". ففي عالم لا تتمتع فيه المؤسسات والحكومات التجارية بآلة العلاقات العامة فقط ولكن تتمتع بوجود المشاهير من أي نوع كانوا فإنها تستخدم عملاء ينشرون صورتها العامة وبهذا يمكن أن نغفر للصحفيين إيمانهم بأن العلاقات العامة هي العدو الذي يدس نفسه بينهم وبين رواياتهم المنشودة.

رغم ذلك فقد دون "ديلورم" و"فيدلر" ذلك على أنه ما يسمى بظاهرة الغرف الإخبارية التي بدأت في عام **1926** حيث ذكر أنه: "في ديسمبر من **29** ... إلى **147** من الروايات التي نشرت في "النيويورك تايمز" اقترحها أو ابتكرها أو وفرها العاملون بالعلاقات العامة، ولم يتم ذلك مع **83** رواية فقط، بالإضافة إلى **26** رواية أخرى مشكوك فيها. باستثناء الروايات المشكوك فيها، تم نقل حوالي **60%** من الروايات التي نشرتها "التايمز" من قبل عاملين بالعلاقات العامة".

يتحدث "مايك مولوي" – وهو محرر سابق لصحيفة "الديلي ميرور" البريطانية – عن نفس تلك الاتجاهات في هذه الأيام. فهو ذكر "أن العلاقات العامة قد تولتها الصحافة إلى درجة أن الهدف الأصلي للصحف كمصدر أولي للحقيقة قد اختفى. إننا في عالم تسيطر عليه وتنظمه وتصنعه العلاقات العامة". حسب هذا القول، وطوال القرن العشرين، استطاعت العلاقات العامة أن تسيطر على الرأي العم وتحوله إلى مرآة تنعكس الصحافة من خلالها.

تحالف غير مقبول

تم تحديد نشأة ما يسمى الآن بالرأي العام كظاهرة لأول مرة مع إصدار رسائل "يونيوس" ومنشرها في "بابليك أدفيرتايزر" **Public Advertiser** – وهي إحدى الصحف اليومية – من عام 1769 وحتى عام 1772. كانت تلك الرسائل المجهولة تعتبر إرهاصاً لسقوط كل من دوق حكومة "جرافقون" والتغيرات التي طرأت على قوانين التشهير بانجلترا. لقد جعلت الصحافة الراديكالية في بدايات القرن التاسع عشر من الرأي العام أحد مبرراتها الرئيسية، ويمكن القول بأن هذا الرأي العام – الذي تقوده صحافة اليوم ببراعة – قد ساهم في إلغاء جميع ضوابط الحكومة للصحافة في منتصف القرن. ومع نشأة الصحافة التجارية وتفوق الإعلانات في نهاية القرن كانت المؤسسات التجارية سباقة في إدراك أهمية التأثير في الرأي العام.

في أمريكا تم التعرف إلى خطورة الإعلانات في بدايات عام 1860 على يد "لامبرت ويلمر"، نحددها في "أور بريس جانج" **Our Press Gang** وهو أول كتاب أمريكي كان بكامله مخصصاً لنقد الصحافة. يلفت المؤرخ الإعلامي "هازل ديكين جراسيا" نظرنا إلى ما ذكره "ويلمر" عن اتهام الصحافة بنشر الإعلانات المريبة والتي تتصف بالاحتيال وبقبولها ما أصبحنا نطلق عليه اسم الحلوى **junkets** والهدايا المجانية **freebies**.لقد شهد القرن العشرون هذا

المسار القاسي الخاص بهذا التأثير التجاري. ولقد استمرأت الصحف نظام البيع بأسعار زهيدة جداً لكي تربح من عملية النشر بمفردها وهذا البخس الغريب جعلها وسيلة محببة ومرغوب فيها لنشر الإعلانات. ففي المملكة المتحدة على سبيل المثال تخلصت صحيفة "الديلي ميل" فقط من الإعلانات ونشرت بدلاً منها الأخبار في الصفحة الأولى قبل الحرب العالمية الثانية.

تهدف الدعاية - كالإعلانات تماماً - إلى التأثير في جمهورها، ولكن تفعل ذلك بوسائل أقل مهارة. لقد اختبر " أليكس كاري" دور الحملات الدعائية للشركات في كتابه" التعرض إلى مخاطر الديمقراطية"،الذي يضم مجموعة من المقالات ونشر عام 1995. وقد حدد ثلاث طفرات ذات أهمية سياسية كبرى خلال القرن العشرين: نشأة الديمقراطية، توسع سلطة الشركات، وتزايد دعاية الشركات كوسيلة لحماية سلطة الشركات من الديمقراطية. هذا التزايد في الحملات الدعائية للشركات قد أدى - في داخله - إلى تطوير مؤسسات العلاقات العامة كهيئة منفصلة ومستقلة.

المؤسسات الخاطئة

يعتبر" إيفي ليدبيتر لي"و"إدوارد لويس بيرنز" الأبوين المؤسسين للعلاقات العامة الحديثة. ومع ذلك فقد تم إنشاء أول مؤسسة صحفية - وهي مكتب الدعاية والإعلان **Publicily Bureau** في بوسطن عام 1900 علي يد "جورج ميشالز". وفي أعقاب ذلك في عام 1902 افتتح " ويليام وولف سمث" الصحفي بجريدة "بلتيمور صن" مؤسسة العلاقات الخاصة به في واشنطن، وبذلك نشأت العلاقة بين الصحافة والعلاقات العامة. وقد تخصص "سميث" في الدفاع عن الشركات ضد الاجتماعات غير المرغوب فيها للباحثين عن الفساد في حين لا يزال - هو ذاته - يعمل كصحفي حر. كلنا المؤسستين أغلقت أبوابها في عام 1911 في إعقاب سلسلة من الحملات الدعاية والإعلانية الفاشلة. وفي نفس الوقت تقريباً

أنضم "آيفي لي" الذي كان صحفياً، ويعمل أيضاً لدى إحدى الصحف " بالقطعة"، إلى "جورج باركر" الذي كان يريد الدعاية الخاصة " بجروفر كليفلاند" أثناء حملاته الإعلامية الثلاث للرئاسة؛ فكانا مسئولين عن اللجنة القومية الديمقراطية وأسسا معاً ثالث شركة للعلاقات العامة بالولايات المتحدة وهي شركة "باركر ولي" في أواخر عام 1904. أما "إدوارد لويس بيرنز" فكان يعمل صحفياً دوكيلاً للصحافة وقد انشأ مكتباً للعلاقات العامة بنيويورك عام 1919. وعلى مدى حياته المحتدة أصبح المقبول للعلاقات العامة، واختارتة مجلة "لايف" أحد الأمريكيين المائة الذين كان لهم الأثر الأكبر في القرن العشرين. وفي كثير من المجلات كان" أيفي لي" و" إدوارد بيرنز" يمثلان الوجهين الواضحين للعلاقات العامة من خلال اتجاهاتهما وحياتهما المهنية.

سيرة ذاتية

آيفي لي

ولد آيفي لي" Ivy Lee بولاية جورجيا عام 1817، وتخرج من جامعة "برنستون"ورغم أن أول (غزوة) له في العلاقات العامة- بالاشتراك مع " جورج باركر"- قد أخفقت فقد كان يمثل أكثر الناس تأثيراً في مجال العمل الصحفي. كان أنصاره تقريباً من المسحيين يهوديين الأصل. كتب عنه" فريزر شيتل" قائلاً :" إن لي – أكثر من أحد غيرة – ارتفع بمجالنا من عمل معرض للريبة(بمعنى عمل يبحث عن الدعاية الإيجابية مهما كلف الأمر) إلى الانضباط المهني الذي يهدف إلى كسب ثقة الجماهير وتعاطفها من خلال الاتصالات والعلاقات القائمة على الصراحة والصدق".

كان " إعلان المبادئ" الخاص بـه والـذي نـشر عـام 1906 يجـسد أفكـاره البـسيطة والمباشرة حول المعاملة الصادقة مع كل مـن الـصحافة والجمهـور عـلى حـد سـواء. يوضح المقتطفان التاليان من إعلان المبـادئ انقطاعـه عـن مـاضي العلاقـات العامـة المظلم جداً: أولاً: هذه ليست وكالة للإعلانات،ولوكنت تعتقد أن مادتنـا لينبغـي أن تصل إليك داخل مكتبك، فلا تستعملهاً. ثانياً:" إن المادة التي تتعامل معها لا بـد أن تكون صحيحة. أما أنه تفاصيل إضـافية تـضاف الى موضـوع نتعامـل معـه سـنوفرها فوراً، وأي صحفي سنساعده بمزيد من الرعاية في التأكد من أي خـبر واقعـي بـصورة مباشرة".

أثناء الحـرب العالميـة الأولى،أطـرى العـالم كلـه عـلى جهـود لي في الدعايـة والإعـلان بالنيابة عن جمعية الصليب الأحمر الأمريكي. فقد رفعت جهوده من دخل الجمعية 400 مليون دولار من المساعدات، كما أدت إلى تعيـين العديـد مـن المتطـوعين، كـما عملت على ترسيخ الجمعية في عقول الأمريكيين كمكان يلجأون إليه وقت الكـوارث والأزمات. كما أنه كان أول عضوا فتتح مجلس العلاقات الخارجية الذي تـم إنـشاؤه في نيويورك عام 1921. ومع ذلك في الثلاثينيات من القرن الماضي عمل لـدى الكتلـة الألمانية الكيميائية "فارمين"، وهذا أدى إلى اتهامه بأنه معاد للـسامية، وبأنـه أذنـب بنشره حملات دعائية للحكومـة النازيـة. وقبـل أن يتحـدد دورة بـصورة مـن خـلال جلسات استماع بالكونجرس، وافته المنية على إثر ورم بالدماغ عام 1934.

كان جون روكفيلر العميل الأكثر شهرة للي lee الذي استأجره في عـام 1914. ليمثـل عائلتـه وليمثـل شركة ستاندارد أويل بعد الدعاية السيئة التي لحقت بها في خضم إضراب عمال مناجم الفحم الـذي نتج عنه وفاة عشرين فرداً داخل مناجم الشركة بولاية كولورادو. كان لي يعتقد أن العلاقـات العامـة

تتحمل مسئولية أمام الرأي العام أكثر من المسئولية التي تتحملها حيال العميل ولـذلك فـإن أيـة مؤسسة عليها دائماً أن تروي الحقيقة والصدق لأن الجمهور – في نهاية المطاف – سوف يكتـشف تلك الحقيقة بأي شكل مـن الإشـكال. في رأي المـؤرخين، يرجـع الفـصل إلى لي في علـم الاتـصالات لإدارة الأزمة، على سبيل المثال، أصدر لي أول تحقيـق صـحفي ذي أثـر فعـال بعـد حادثـة سـكك حديد بنسلفانيا فقد أقنع الشركة بأنه من الأفضل لها أن توفر المعلومات للصحفيين بـدلاً مـن أن ترك لهم الفرصة للاستماع إلى تلك المعلومات من مصادر أخرى.

كان إدوارد بيرنتر أول من استخدام أسلوب التحليل النفسي وعلم الجماهير crowd psychology وقوة اللاوعي في التأثير على ما أطلق عليه هندرة الموافقة. كان بيرنز ابن أخي سـيجموند فرويـد وكان يؤمن بأن التلاعب برأي الجمهور هو الهدف المشروع للعلاقات العامة. وقـد عمـل العديـد من حملاته الناجحة على رواج أسلوب المعيشة المرتبط بالسلعة لا دون السلعة بمفردها لأن ذلك يتوافق مـع الطبيعـة البـشرية. كـان أيـضاً داعيـة وقـام بتـدريس أول دورة في العلاقـات العامـة بجامعة نيويورك. وفي عام 1923

أصدر أكثر كتبه أهمية "بلورة العلاقات العامة" الذي أرسى التواعد الأساسية لهذه المهنة الوليدة. في رأي الكثيرين، كان بيرنز يمثل المرشد الروحي للعلاقات العامـة،كما كـان يمثـل مفكـر العلاقـات العامة المبدع، بل كان أكثر ممارس العلاقات العامة نفوذاً وتأثيراً.

البشير والنذير

بالرغم من الآثار المخربة الملموسة لعلاقات العامة إلا أن الهدف الأساس لها كان الاتصال. ومع ذلك ففي رأي العديد من الكتاب كان فقدان التوافق المشترك يبدو أنه هو الأسلوب السائد والمهمـين بعـد الحـرب العالمية الثانية؛ بدء أمن إصدار "الزمرة الوحيدة" The Lonely Crowd في عام 1950 لديفيـد ريـسمان

و"البولينج فقط" في عام 2000 لروبرت بوتنام. لقد أجبر الشعور بهذا الفقدان الذي بعث عليه مثل هؤلاء الكتاب العديد من الكتاب والصحفيين الآخرين على السعي إلى إعادة اكتشاف الاتفاق المشترك، أو على الأقل أجبروا على لمناقشة الشروط التي يمكن أن يستعيد الاتفاق المشترك وجوده وفقها يعتبر عالم الاجتماع إميلي دوركايم (1858-1917) هو العالم الأكثر شهرة الذي ارتأى في النزعة الفردية الحديثة حاجات وضرورات المجتمع الديمقراطي غير التقليدي. فلقد قام بصياغة مصطلح الوقائع الاجتماعية" Social Facts لوصف الظواهر التي تحدث ككيانات مستقلة لأفعال الأفراد. فشبكة الانترنت كواقع اجتماعي - على عكس الساحات الصحفية السابقة - ليس لديها مجتمع مستهدف كجمهور أولي أو أساس أو كناتج من نواتج مهمتها؛ بل إنها تعمل على خلق مجتمعات وخلق ما يسميه البعض "السيولة المجتمعية" Community Fluidity

ملف حقائق

خطورة الليبرالية الجديدة على المجتمع

ربما ينظر إلى العصر الفيكتوري في فترة ما قبل نشأة العلاقات العامة كفترة إثراء للتعددية في كل من الصحافة والسياسة إلى حد ما. كان القرن العشرون عبارة سلسلة من التكتلات فالحركات الشعبية واسعة النطاق التي ظهرت في الستينات من القرن العشرين - مثل الحركات النسائية ونزع السلاح النووي وسياسة الخضر والحفاظ على البيئة والتضامن الصناعي والتوجهات الأخرى نحو الديمقراطية تبعها ظهور الليبرالية الجديدة بأجندتها في الرابع الأخير من القرن، وهذه الليبرالية الجديدة عملت على تفويض هذا التقدم الديمقراطي. فالليبرالية الجديدة عمدت إلى الشك في

النماذج السائدة لتنظيم الدولة. وقد استطاعت السيطرة على المساحة الكبرى من الجدل السياسي باستغلال الاصطلاحات، مثل رقابة الدولة والاختيار الفردي والتحرر والسوق التنافسية بهدف توجيه النقد للخلط السائد بين نظامي لاتصال العام أو الخاص. عندما استمع روبرت موردوخ إلى محاضرة ماك تاجارت في مهرجان الدولي للتليفزيون بإدنبره في عام 1989، وصف المحاضرة بأنها تعبر عن الحرية والاختيار وليس التنظيم والعوز.

وبغض النظر عن رفع الفرد على حساب المؤسسات الشعبية الجماعية، فقد انطوت تلك العملية أيضاً على تحول سلطة اتخاذ القرار إلى الشركات متعددة الجنسيات غير المسئولة باسم" الحرية والاختيار". وكان يقصد بتقليص دور الحكومة فرص القيود على الوصول إلى عمليات صنع القرار أمام العامة من الناس؛ وهو ما يعني جداً أدنى من الديمقراطية.ولا عجب في انتشار الديمقراطية الشكلية في بعض الأماكن من العالم مثل أمريكا اللاتينية التي بدت جوفاء نوعاً ما مع الإيحاء بالشعور بالضعف، وهذه الظاهرة تتزايد أيضاً داخل الولايات المتحدة.

إن التسلسل الهرمي من القمة إلى الأسفل بالإضافة إلى القيم المعيارية في المهنة هي ما يشكل تحدياً للصحافة في هذه الأيام. فشبكة الإنترنت غير مسلسلة هرمياً، كما أنها متشعبة ولا مركزية، ومع ذلك فإنها متفاعلة وتتقبل المشاركة. إلا أن الديمقراطية التي تكمن فيها ظلت محدودة بما يسمى في الواقع" التقسيم الرقمي" **digital divide** ما بين من يملكون الوسائل التكنولوجية ومن لا يملكونها. فعمل مكالمة تليفونية لا يزال أمنية لدى الكثيرين في كل إنحاء العالم، كما أن 2% فقط هم الذين يملكون القدرة على الدخول إلى الإنترنت.

ورغم ذلك فلاشك أن الإمكانيات السياسية العالم الإلكترونيات يتفهمها الكثير والكثير من رجال السياسة؛ بل والناخبون أيضاً.

لقد جعلت وسائل الإعلام المدعومة بالكمبيوتر – مثل المدونات والبودكاست – والمواقع الإخبارية السائدة العلاقة الكاملة بين القائمين على السلطة وأولئك الذين يكتبون التقارير الصحفية عنهم سهلة الاختراق (كما سنرى في الفصول التالية). فنشأة المدونات مثلاً كشكل من أشكال النشر الذاتي، ووفرة الكاميرات الرقمية زهيدة الثمن غالباً ما ينظر إليها كسلاح ذي حديين. فرجال السياسة يمكنهم الاتصال بناخبيهم الذين لا توجد بينهم دين أي وسيلة إعلامية صلة، ومع ذلك فإنهم معرضون للفضيحة في وسائل الإعلام إذا ما ارتكبوا أي خطأ. أحد المراقبين – وهو يتحدث عن فضيحة عام 2006 الخاصة بالحياة الجنسية النائب رئيس الوزراء جون بريسكوت كأول رواية سياسية كبرى في بريطانيا تنشرها المدونات – ذكر أنها يمكن أن تعتبر رواية مفيدة للديمقراطية كما أنها تعتبر قتلاً متهوراً للصحافة حيث يتم نشر الإشاعات وتشويه السمعة دون أدنى دليل على ذلك.

في المجال السياسي، وخاصة أثناء الانتخابات،عرف استخدام مدونة المرشح وتغطيتها لميزات وخبراته وأفعاله ومشاعره دون التركيز على تحليل برنامجه السياسي في سياق الانتخابات في فرنسا بأنها تحول من الصحافة الإعلامية إلى صحافة الاتصالات. هذا الاتجاه انعكس بكل تأكيد في نزعة الهوس الجديدة بثقافة المشاهير وبالطريقة التي تتحدى دائماً بها الحدود بين اتجاه العامة والخاصة. دائماً ما يتم تحديد ما ينبغي أن يكون في المجالات العامة حسب المشاعر والذوق والمستوى المقبول للتلصص، ورغم أن استخدام العلاقات العامة في إدارة وتنقية مثل تلك المعلومات يعتبر جديداً نوعاً ما إلا أن نشأة ثقافة المشاهير أضفت على ذلك الاستخدام نوعاً من السلطة والتأثير الشديد.

رغم ذلك فإن ثمة سمات رئيسية لشبكة الإنترنت تعمل على إضعاف الأفكار

التقليدية عن المجتمع والمواطنة خاصة عندما نضع في اعتبارنا المبادئ المثالية المتداولة. لقد أوضح الباحث القانوني كاس آينشتاين أن هناك شرطين أساسيتين للديمقراطية التداولية الناجحة تمثل شبكة الانترنت ووسائل الإعلام متعددة الساحات خطراً عليها. أو لهما أن مفهوم الديمقراطية المتداولة يعني أن الجماهير تحتاج إلى الاطلاع على الأفكار والمعلومات التي لا تتفق معها أو حتى التي تسعى إلى أن تتجنبها. لقد ظلت تلك إحدى الوظائف الهامة للصحافة. فالصحيفة تعتمد في كثير من قبولها لدى الجماهير على الاكتشاف بالمصادفة. فالمقال الذي يدور حول موضوع غير ذات أهمية يمكن أن يوضع بجوار رواية أكثر قبولاً لدى الجمهور. بذلك هناك فرصة لاطلاع القارئ على الموضوع حتى وإن لم يكن القارئ ينوي أن يفعل ذلك. على عكس ذلك، يؤدي الاستخدام الإلكتروني إلى تنقية المحتوى وشخصنته. إن القراء هم الذين يتجنبون الفرصة للمشاركة في المسائل "المذهلة" أو التي تسبب الدهشة.

ثانياً : يحتاج الجمهور إلى مجال واسع من الخبرات المشتركة للوصول إلى فهم مسائل معينة رغم ذلك فالجماهير في هذه الأيام-كأفراد وجماعات - أصبح منقسماً ومتعدداً داخل عالم المعرفة المحدود لديهم. تدعم تلك المقولة الدراسات و التجريبية، بما فيها تقرير عام 2007 الصادر عن مؤسسة تنظيم أجهزة الإعلام البريطانية" أو فكوم". فقد أبدت المؤسسة تخوفها من أن ازدياد المدونات وتسجيلات الفيديو الشخصية المحلة على الشبكة يؤدي إلى خفض مساحة أجندات الأخبار الشخصية إذ أن المستخدمين يركز على مسائل محددة خاصة بالأفراد وبموضوعات معينة.

ذكر سي بي سكوت المحرر المخضرم لصحيفة مانشستر جارديان من عام 1872 وحتى عام 1929 ذات مرة:" إن وظيفة الصحيفة الجيدة وبالتالي الصحفي الجيد هي أن يريا الحياة مستقرة أو ثابتة ويرياها ككل متكامل". وهذه دعوة إلى نظرة بانورامية، أي القدرة على وضع الأحداث في سياقها الأكثر

اتساعاً وجعلها متناغمة. و"نراها ككل" كفاية تنطوي على تقـدير للعلاقـات والأسـباب والنتـائج. وشبكة الإنترنت لا تتيح ذلك دائماً. ففـي واقـع الأمـر يـزعم صنـشتاين أن الإنترنـت قـد أدت إلي تقسيم الجماعة، وأن هذا الأمر سيزداد سوءاً في المستقبل. في إطار المجـال العـام سـاعدت شـبكة الإنترنت الجماهير في جميع أنحاء العالم على التواصل، وقد استعلت الحملات المعادية للرأسمالية هذه الشبكة لصالحها. لكن ثمة خطر فيمثل في تفتـت الخطـاب الـسياسي مـا يـؤدي إلى الـشعور بالحرمان من الحقوق والذي يفترض أن تعمل شبكة الإنترنت على منعه.

كانت هاتان الفكرتان المتلازمتان عن التمييز والتشخيص هما السمة المميزة للأخبـار منـذ القـرن التاسع عشر، لكـن الآن تعـرف هـذه العمليـة بأنهـا" التمايـز الفـرط" **hyper differentiation** حسب رأي المؤرخ الإعلامي ديفيديتش أن الناس الذين يروا أنفسهم أفـراداً داخـل نظـام الحكـم يميلون إلى الشعور بالضعف، في حين أن الـذين يـرون أنفـسهم جـزءاً عـن مجتمـع أكـبر (صـوتنا معكم مقابل التصويت لنا) فيميلون إلى فهـم حـاجتهم إلى الـسياسة والأخبـار. وفي هـذا الـصدد يقتبس إحدى لدراسـة المـسيحية التـي بحثـت في مـدى اسـتعلال الروايـات الإخباريـة للكلـمات الجامعة مثل الزخم والدولة والجمهور والبشرية والجيش في مقابل كلمات "الإشارة للذات" مثـل أنا ونفس ولي وملكي. فاستخدام مفردات الإشارة للذات قد هيمنـت وعلـت عـلى مـدى عـشرين عام، في حين انخفض استخدام مفردات الجامعة. من المحتمل أن تنطوي الشخصية المتزايدة عـلى آثار ضارة على عملية الديمقراطية وعلى أسـلوب النـاس في التفكـير. فحـسب رأي صنـشتاين،" أن السوق الذي يهيمن عليها عدد لا يحص من إصدارات "ويلي مي" **Daily Me** لابد أن يعيق عمل التحكم في الذات، كما يخلق درجة عالية من التفتـت الاجتماعـي". إذاً فمـن المحتمـل أن تـشكل شبكة الإنترنت خطورة على الشرطين الأساسيين لإيجاد ديمقراطية فعالة،

فأولاً : إن على الجماهير الإطلاع على المعلومات التي لم يقوموا بانتقائها مسبقاً وبصفة شخصية حتى صدق المسائل المعروضة والمحال الأوسع لإبداء الآراء متاحين.

ثانياً: إن على الجماهير أن تتمتع بمدى أوسع من المشتركة حتى تستطيع أن تفهم بعض المسائل الخاصة وملابساتها.

إغلاق الأبواب يسد عمل الشيطان

لا يزال الصليبيون موجودون، ولا تزال في حاجة إليهم للكشف عن الأفعال الخاطئة أو للكشف عما أطلق عليه يوليتسر جرائم وخداعاً واحتيالاً. ولتنفيذ تلك المهمة، لا بد من جميع الآراء مع الأدلة المادية. وهذا لا يعني الموضوعية بالضرورة، ولكنه ينطوي على صحافة مدروسة جيداً مع وجود دافع اجتماعي ينبغي على الإيثار والغيرية،بالإضافة إلى الإحساس بالمسئولية الاجتماعية. وحتى بين يدى المخضرمين في الصحافة الصفراء في نهاية القرن أو مع انتهاء الصحافة الشعبية في العشرينيات من القرن العشرين يظل بناء المجتمع ونشر الديمقراطية هما القيمة الجوهرية... فلقد استغل يوليتسر صحفته الأولي بهدف إغراء قرائه، ومع ذلك فقد استخدم الصحافة الأخرى ليعلمهم كيف يكونون مواطنين أمريكيين. دائماً ما كان أفضل الصحفيين يفهمون أن مهنتهم في حاجة إلى إرادة جماعية للحفاظ عليها، وليست في حاجة إلى أن تدار على النخبة التي تستهدف الربح.

يضم هذا النموذج للصحافة العامة مجموعة من التغيرات في الاتجاهات والأساليب تتجاوز مجرد الاستماع إلى الجمهور، وأيضاً لكي توفر للجمهور مساحة أكبر لإعداد أجندة وسائل الإعلام وإعادة ضبط وتعريف الخبر بطريقة تركز بصورة أقل الأخبار الخاصة بالنزاعات أو الأخبار السلبية وتركز بصورة أكبر على بناء الرأسمال المدني الكشف عن الازدواجية وتثقيف الجمهور

وإعلامه بأدوات ديمقراطية اتخاذ القرار.

إذاً، ما هي الصعوبات التـي تواجـه عـودة الـصحافة إلى الإحـساس الطـائفي بالديمقراطيـة حتـى تصبح الصحافة - مثل الديمقراطية - من الناس وبهم وإليهم؟ يتم الكشف عن مثل تلـك الأفكـار من قبل حركة الصحافة العامة في الولايات المتحدة، وهي حركة تقر بوجود آثار ثقافية واسـعة في شعور الطائفة الأسيوية - مثلاً - بالديمقراطية وبالقيم المرتبطة بها بشأن التناغم واحترام الـسلطة والاتفاق الاجتماعي والاستقرار. وهذه الآثار توحي بأنه من المـستحيل وجـود طائفـة أو مجتمـع متفرد: أي أن رسالة تلك الآثار تقول إن" التواصل بـشكل المجتمـع". إن التـاريخ يـوحي لنـا بـأن الإعلام ينبني أساساً على الجمهور ولذا فإنه يحتاج إلى أن يقوم بخدمة حق الجمهـور في المعرفـة. ولكي يتم تفعيل ذلك، لابد للجمهور من أن يشارك الصحافة عن كثب.

السؤال الذي يلي مثل تلك الأطروحات هو عما إذا كانت أجهزة الإعلام الجديدة يمكـن أن تـدعم الصحافة في مهمتها الواضحة لإيجاد جمهور واع ومطلع. كما ذكر لنـا الفيلـسوف الـسياسي جـون كين" في حين أننا تقر بأن النمو المتسارع في اتصالات أجهزة الإعلام العالمية بصعوبات قوية تواجه الـصحافة، فمـن غـير المؤكـد أبـداً أن العمليـة برمتهـا تتمتـع بتقـارب منتقـي مـع المؤسـسات الديمقراطيـة وسـبيل الحيـاة. لـذلك، فمـن أجـل التوصـل إلى صـحافة جماهيريـة للقـرن الحـادي والعشرين، وخاصة صحافة ترتبط بالمؤسسات التي تسعى لخدمتها، فلابد أن يكـون هنـاك حـوار عام من أي نوع كان. ولكن، كيف ينبغي أن يتم مثل هذا الحوار؟ إن الطبيعة المذهلـة للتحـدي الذي يواجه الصحافة العامة لا بد أن تكون موضوع تقدير الجمهور بمزيد من فهم طـرق ارتبـاط الصحافة والديمقراطية بالقوة التجارية، وفهم كيف تطورت مثل تلك العلاقة بمرور الزمن.

الباب الثاني

التكنولوجيا والعمل والتجارة :

هل الصحافة أكثر من مجرد وظيفة ؟

" إن أية تقنية تكنولوجية متقدمة بما فيه الكفاية ..... لا يمكن التفرقة بينها وبين السحر ".

(آرثر سي كلارك)

الفصل الخامس

تغير الأدوار في عالم متغير

حدثت معركة ووترلو يوم الأحد الموافق 18 يونيو عام 1815. ووترلو مجاورة للعاصمة البلجيكية بروكسيل التي تبعد حوالي 198 ميلاً عن لندن. تستغرق هذه الرحلة من القطار أقل من ساعتين. ومع ذلك فإن خبر انتصار الدوق ويلنجتون لم يصل إلى لندن حتى الأربعاء التالي؛ أي مر ثلاثة أيام قاتلة يملؤها الأمل والقلق.

بعد ذلك بقرنين تقريباً، انتشرت صور الهجمات الانتحارية على مركز التجارة العالمي بنيويورك قي الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 في كل أنحاء العالم بينما كانت الهجمات تتم. ونيويورك تبعد عن لندن بحوالي 3471 ميلاً. في زمن معركة ووتر لو كان الخبر يستغرق 52 يوماً حتى يصل. وبالمثل، تم تسجيل الهجمات الإرهابية على لندن في السابع من يوليو عام 2005 بواسطة الركاب من خلال كاميرات الهواتف الخلوية الخاصة بهم، ثم أرسلوا تلك التسجيلات إلى هيئة الإذاعة البريطانية BBC وغرف الأخبار بمحطات التليفزيون الخاصة والمستقلة قبل أن تنتهي الهجمات. هذه التقنيات الجديدة الخاصة بالأقمار الصناعية والهواتف المحمولة تضمن لنا الآن أن نمتلك القدرة على أن ننتقل إلى أي مكان في العالم تحدده المؤسسات الإعلامية حيث توجد الأخبار. والبرامج الإخبارية المتداولة والقنوات الإخبارية التي تبث إرسالها على مدى 24 ساعة يومياً تؤكد على أن الخبر يصل في الوقت المناسب طوال الوقت.

لذلك ففي محيط وسائل الإعلام الحديثة لا يمكن للصحفيين ألا يعوا أثر

التكنولوجيا على أساليبهم في العمل، وعلى الساحات الإعلامية المختلفة التي تنشر أعمالهم. ولكن ليس من السهولة تحديد مدى فصل التكنولوجيا - كقوة قسرية - عن التطورات الهامة الأخرى التي أدت إلى تحفيز الطباعة ووسائل الإعلام الإذاعية على مدى القرون الثلاثة الماضية. إن استجابة الصحافة لعصر الإلكترونيات - إذا ما كان الأمر يتعلق بنشأة الإذاعة في العشرينيات والثلاثينيات أو "بالثورة الباردة" **cold type revolution** في أواخر القرن العشرين والتي دفعت العصر الرقمي للوجود - استجابة مذهلة وذات مغزى. لكن ما يهم هذه الدراسة أيضاً هو رد فعل الصحافة للأنماط المتغيرة من الإنتاج والاستهلاك - في المجالات التكنولوجية والتجارية والاجتماعية والثقافية - التي تمخضت عن اقتصاديات السوق الحديثة و"المناطق الصحفية النائية" التي لا يقطنها سوى العاملين بأجهزة الإعلام الحديثة.

إن الطين الصلصال - إن شئت أن تسميه كذلك - بالنسبة للصحفي هو الخبر. فلقد ظل الخبر هو السلعة الدائمة (ونظرة واحدة على أية صحيفة في أي زمن كان تؤكد لك ذلك) - لكن الصحفي دائماً ما يبتكر أساليب حديثة لتشكيله والتلاعب به. وكان إنتاج الأخبار في البداية عبارة عن استجابة لما يريده القارئ أو ما تريده فئة محدودة جداً من القراء. كان رجال الأعمال الذين يحتشدون على مقهى ليود بلندن في القرن الثامن عشر يهتمون بأخبار المال والنقل البحري. وفي العقود الأولى من القرن التاسع عشر، كافح الراديكاليون والمؤيدون للإصلاح الاجتماعي من أجل حرية الصحافة - وإن كان ذلك على نطاق ضيق - وقاموا بتأسيس صحافة راديكالية فاعلة لنشر آرائهم. وفي بريطانيا، وفي منتصف القرن التاسع عشر، كان يقدم للقارئ وجبة جريمة مثيرة أو رواية إنسانية مشوقة في إحدى صحف أيام الأحد التي قد تصبح أساساً للنجاح من الناحية التجارية فيما بعد.

يذكر المؤرخ الصحفي آلان لي أنه في أية دراسة عن بريطانيا في القرن التاسع

عشر لن يكون هناك خلاف ولو كان بسيطاً على أن سياق مسألة الصحافة بالكامل كان ينصب على ابتكار نظام رأسمالي تصل من خلاله الصحافة - بشقيها كصناعة وكمؤسسة - إلى حالة من التوافق. وفي رأي الكاتب الأمريكي والتر فوكس أن هذا التوافق لم يكن دائماً إيجابياً. فقد كتب عن العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر قائلاً إن الثقافة السائدة الجديدة في أمريكا إنما هي ثقافة حضرية وقد أمليت من المستويات العليا عن طريق الصحف اليومية واسعة الانتشار على الجماهير التي فقدت الاتصال بتقاليدها القديمة.

كان افتقاد الاتصال بالتقاليد أيضاً يمثل صرخة لخصوم الصحافة الجديدة التي اكتسحت بريطانيا وأمريكا في تلك الفترة. لقد تابع كل من اللورد نورثكليف في بريطانيا والعاملين بالصحافة الصفراء "ويليام راندولف هيرست" وجوزيف بوليتسر في أميركا نوعاً من الصحافة كانت تحبذ تقديم "الوجبة الشهية" **Tidbait** من المعلومات والرواية التي تشوق الجمهور ويفضلونها على الصحافة اليومية التقليدية، سواءً كانت سياسية أم تجارية. فقد كانوا رواد الصحافة التجارية في القرن العشرين، كما كانوا سادة بارونات الصحافة.

في بريطانيا - الدولة التي قادت العالم في التصنيع والتحضر - شرعت تلك الصحف واسعة الانتشار في جني ثمار الإلمام المتزايد بالقراءة والكتابة ووقت الفراغ والدخل غير المحدود. ولقد ساعد قانون التعليم الذي قدم بعض أحكام الدولة في عام **1870** على إيجاد هذا الجمهور الجديد من القراء الذي استخف بهم لورد سالسبوري رئيس الوزراء واصفاً إياهم بأنهم "سعاة المكاتب"، ووصفهم الشاعر والناقد ماثيو أرنولد بأنهم "أغبياء". في رأي آلان لي أن العلاقة بين الصحيفة والقارئ كانت تتبدل من علاقة مثالية ذات طبيعة تعليمية وفكرية إلى علاقة تتصف بسمات السوق.

أثناء تلك الفترة أيضاً تحولت الولايات المتحدة إلى مجتمع حفزي، وكان هذا هو الوقت الذي مهدت الصحافة فيه السبيل إلى ما وصفه الفيلسوف والمحلل الإعلامي دوجلاس كيلنر بأنه عصر التوجهات الأساسية نحو المجتمعات الرأسمالية المعاصرة ... جمع الإعلانات والثقافة والمعلومات والساسة والاستغلال. هذا الجمع - وهو جمع ذو طبيعة تجارية ومؤسسية - أدى إلى إنتاج الخبر كسلعة تم تصميمها خصيصاً للصحف. وكما ذكر روجر فاولر في فحصه للغة الأخبار: "إن الخبر ليس ظاهرة طبيعية تبرز مباشرة من (الواقع)، ولكنه سلعة. وهي سلعة تنتجها صناعة وتشكلها البنية الاقتصادية والبيروكراطية لهذه الصناعة". علاوة على ذلك، كلما أصبحت هذه البنية ذات نبرة تجارية أكثر وأكثر، كلما عكست "المتطلبات المالية للمؤسسة الصحفية، ورؤية منتجي الصحيفة، ومقتضيات الإنتاج اليومي".

ملف حقائق

الثورة الباردة

كان شارع فليت - كما تعرفه الصحافة البريطانية - لعدة سنوات تسيطر عليه العلاقات الصناعية الرديئة. كانت اتحادات عمال المطابع قد أحكمت قبضتها على ملاك المطابع من خلال ما يسمى بالممارسات الأسبانية التي كانت - من بين غيرها من المؤسسات الأخرى - تحد من عدد ساعات العمل، وتحدد مستويات العاملين، وتدعو العمال إلى الخروج في إضراب عن العمل على فترات منتظمة. يصف الصحفي توم بيستو ذلك بأنه إدارة غير متطورة وابتزاز من اتحادات العمال لعمليات الإنتاج التي لا تنقطع. بحلول عام 1986 كان أصحاب الأعمال - وخاصة روبرت موردوخ (من وكالة الأنباء الدولية) - يسعون إلى الحصول على موافقة الاتحاد على الشروط الجديدة التي كانت تشتمل على قواعد عمل مرنة،

واستخدام التكنولوجيا الجديدة واشتراط عدم الإضراب وفترة محددة لإغلاق المحلات.

كان رد اتحادات الطباعة هو الدعوة إلى إضراب. أرسل موردوخ إشعارات بالفصل من العمل لجميع المشاركين في الإضراب، وقام فعلاً بإقالة ما يربو على **6000** موظف، كما قام هو وزملاؤه من المديرين التنفيذيين بتفعيل الخطة التي كانوا قد قاموا بصياغتها خصيصاً لمثل هذا الحدث. كان موردوخ قد اشترى موقعاً في وابنج - وهو جزء من مكان أحواض السفن شرقي العاصمة لندن - وجهزه بأحدث تكنولوجيا الكمبيوتر لما يراه الكثيرون نوعاً جديداً من الصحف؛ صحيفة لندن بوست. وبعد عمليات الإقالة مباشرة استبدل العاملين لديه بأعضاء من اتحاد الكهرباء والإلكترونيات والاتصالات والسباكة المنافس له. وبدأوا العمل في وابنج بالصحف الأربع الرئيسية: نيوز أوف ذا ورلد، والصن، والتايمز، والصن راي تايمز. فشرعت اتحادات العمال في محاولات إغلاق الموقع بعمل إعتصامات وإضرابات، ومن ثم بدأ "نزاع وابنج" **Wapping dispute**.

ساندت حكومة مارجريت تاتشر موقف موردوخ، وبعد **13** شهراً - في الخامس من فبراير عام **1987** - توقف الإضراب تماماً. ولم يضع أي يوم من أيام الإنتاج بصحف موردوخ. وبحلول عام **1988** انتقلت معظم الصحف القومية الأخرى إلى دوكلاندر كما اتبعت صحيفة نيوز انترناشيونال في تحديث عمليات الطباعة بها. هذه العمليات كانت تشمل طباعة الأوفست فضلاً عن طباعة الماموث روتاري، كما اعتمدت على مدخلات الروايات الخبارية الإلكترونية حيث شرع الصحفيون أنفسهم في استخدام الكمبيوتر بدلاً من مناضد طبعات اللينوتيب الضخمة، بالإضافة إلى لجوئهم للطباعة الملونة بصورة تدريجية. في حين كانت الطرق القديمة في الطباعة تعتمد على الرصاص المنصهر "الساخن" لإنتاج خطوط الطباعة،

بدأ النظام الجديد في إرسال الطباعة من أجهزة الكمبيوتر الفرعية إلى آلة النماذج، وهذه النماذج تعد "باردة" بالمقارنة مع الرصاص "الساخن". ولقد اختفت العمليات المقيدة التي كانت تستخدمها اتحادات العمال القديمة مع اختفاء تلك الاتحادات ذاتها وهذا ما مهد السبيل إلى اعتماد الإنتاج المتوسع عن طريق التكنولوجيا الرقمية كما نعرفه الآن.

لقد تسللت هذه "النبرة" التجارية الجديدة جداول أعمال وأجندات الصحافة، كما تسللت أيضاً إلى "الحمض النووي" لها. لنتأمل للحظة واحدة ما يلي: في حرب القرم بين كل من بريطانيا وروسيا فيما بين أعوام 1853 و1856 استطاع ويليام هاوارد راسل المراسل الحربي للتايمز أن ينقل فظائع وأهوال الحرب ونقص المؤن الطبية والعلاجية للجنود البريطانيين باستخدام التلغراف الكهربائي لأول مرة. وقد أسقطت تقاريره التي سببت صدمة للأمة حكومة إيرل أبردين. بعد أقل من قرن تقريباً، وأثناء الحرب العالمية الثانية عين اللورد بيفربروك مالك صحيفة الديلي إكسبريس وزيراً للطيران في حكومة تشرشل اللائتلافية. هذا المثال يسلط الضوء على سلطة ونفوذ الصحافة على مر الزمن ولكن بصور وطرق متعارضة تماماً.

من الناحية التقليدية كان مالكو الصحف رجال صحافة أولاً، ثم رجال أعمال ثانياً. ومع ذلك فبحلول منتصف القرن العشرين أصبح العكس هو القاعدة. فقد أصبحت الصحف كعمل تجاري جزءاً من النظام الرأسمالي الحديث، والرأسمالية هي القاطرة التي تجر قطار الحافلات الأيديولوجية التي تمتلئ جميعا بالسلع الثقافية المتوافقة مع الأرباح المالية. إحدى تلك الحافلات هي الصحافة، وهي مشروع تجاري كبير يضع حدوداً للصحافة ويحدد شكلها وتكوينها بالكامل. ففي العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي مثلاً استخدمت الصحف مجموعة متنوعة من الترويجية لكسب المزيد من القراء،

بدءاً من عروض تأمين إلى هدايا وأقلام وأطقم للشاي وملابس وأدوات مطبخ، وحتى مجموعات من روايات تشارلز ديكنز، وحتى جامعو الأصوات من الباب للباب door-to-door canvassers – وهم غالباً من الموظفين السابقين أو المحالين إلى التقاعد – كانوا يُستغلون لزيادة المبيعات، وتلك الحيل كانت تكلف الصحف ما يربو على 50 ألف جنيه إسترليني في الأسبوع الواحد.

رغم ذلك فقد كانت الإعلانات سلاحاً ذا حدين. فربما تكون جامعاً للثروة لأصحاب الصحف ولكنها في نفس الوقت تحد من كم المحتوى أمام المحررين والصحفيين. يقول توم بيتسو: "لا تدعم الإعلانات سعر تغطية إنتاج الصحيفة فقط، بل إنها تحدد عدد الصفحات التي سيتم طبعها في يوم محدد؛ فحجم المسألة المعروضة لا يتحدد بصورة عادية على أساس كم الأخبار الواردة ولكن يتحدد بناءً على كم الإعلانات التي تم حجزها". وفي واقع الأمر، تأتي الأخبار كسلعة تجارية بعد الإعلانات مباشرة من حيث "الربحية". ففي عام 1880 على سبيل المثال كانت الإعلانات تمثل دخل الصحف بالولايات المتحدة. وقد ارتفعت تلك النسبة إلى الثلثين في عام 1910، والآن تعادل الثلثين من محتوى الصحف وتشكل 75 إلى 85% من دخل الصحف في كل من الولايات المتحدة والدول الأوروبية.

ولكن بدأ دخل الإعلانات في الانخفاض في الستينات. ففي بريطانيا مثلاً، بين أعوام 1960 1975 هبطت إيرادات الصحف اليومية من الإعلانات من 45% إلى 27% فقط. وفي الفترة الأخيرة انخفضت نسبة الإيرادات إلى الحد الذي جعل بعض الصحف تعلن أنها على وشك العجز عن الاستمرار. وفي نفس الوقت كان ثمة انخفاض مستمر في توزيع الصحف بعد ذروته في أعقاب الحرب العالمية الثانية. لقد كان لانعكاس التكلفة المتزايدة للإنتاج في أسعار التغطية العالمية، بالإضافة إلى شهرة التليفزيون الدور الأكبر في هذا الهبوط. على سبيل المثال، كانت ذا نيوز أوف ذا ورلد هي الصحيفة الأكثر مبيعاً في العالم في بداية

الخمسينيات، حيث بلغ توزيعها 8,5 مليون نسخة في يوم من أيام الآحاد. بمقارنة ذلك مع توزيعها اليوم، سنجد أنها تبيع فقط 3,5 نسخة. أما في الولايات المتحدة فكانت مبيعات الصحف أفضل نوعاً ما، لكن الهبوط أو الانخفاض على المستوى العام كان واضحاً بدءاً من السبعينيات وما تلاها.

لو كانت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تعتبر عصر التسويق التجاري للصحافة، إذاً فإن نهاية القرن العشرين يمكن أن نصفها بأنها عصر التفتت age of fragmentation. بما أن إجمالي المنافذ قد تضاعف – أولاً من خلال الإذاعة والتليفزيون، ثم من خلال الاتصالات السلكية والأقمار الصناعية، وفي نهاية الأمر من خلال التكنولوجيا الرقمية – فقد فقدت الطباعة سيطرتها كوسيلة وحيدة للأخبار والإعلانات. والآن يستخدم الصحفيون تلك الوسيلة لكتابة تقارير عن الاختراعات والتكنولوجيا الحديثة، وبذلك يظهر مدى تهميشهم لها. وفي نفس الوقت جسد الصحفيون عصر العمل متعدد المهارات ومتعدد الساحات.

كيف أثرت تلك الأشكال المتزايدة من الاتصال فيما ينتجه الصحفيون؟ كيف يمكن مقارنة تلك التطورات الحديثة بالأثر الذي خلفته التغيرات المبكرة في المؤسسات التجارية والتكنولوجية؟ يقول الناقد الإعلامي جيمس كاري بشيء من البصيرة النافذة نحو المستقبل: "إن التطور الحديث في التكنولوجيا دائماً ما يمثل فرصة للرحلات الميتافيزيقية خارج الفضاء، ولكن مع العودة للوراء من الناحية الزمنية؛ إنها رحلة للاسترداد كما أنها رحلة نحو التقدم". فلو قبلنا بأن التكنولوجيا والتسويق التجاري يرتبطان بما هو أكثر من مجرد مصادفة، ولو قبلنا أيضاً ح كنوع من التراث – بأن الصحافة في القرن التاسع عشر كانت الوسيلة الوحيدة الأكثر أهمية لنقل الأفكار، إذاً فمن الضروري لنا أن ندرس ونفهم كيف استجابت لآلاف النماذج المتغيرة التي ألمحنا إليها من وجهة نظر تتخذ من "نقل الأفكار" مبدأ موجهاً لها.

الأنماط المتغيرة - التمويل والملكية

اعتمد التوسع التجاري للصحف على تطور نموذج مالي ساعد الملاك على التوسع دون الرجوع إلى ممول. في بداية القرن التاسع عشر، كان هناك صحف قومية ومحلية صغيرة تركز على السياسة والأعمال التجارية، وهي صحف كانت في الغالب مملوكة لأفراد أو كانت تمولها الأحزاب السياسية. في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر، كانت الصحف البريطانية تقوم فعلاً بتصريف أساليبها في الربح. فالصحيفة الإقليمية التي كانت تدار بصفة جيدة ويباع منها 1000 نسخة يومياً كانت تساعد مالكها على تكوين ثروة تعادل 1500 جنيه إسترليني إلى 3000 جنيه في العام الواحد (أي ما يعادل 1,2 مليون و2,4 مليون جنيه إسترليني في الوقت الحالي). كانت صحيفة مانشستر جارديان - التي كانت الصحيفة اليومية الإقليمية الشهيرة في ذلك الوقت - تدر ربحاً يعادل 7000 جنيه في العام. في تلك الفترة، لم يكن هناك غالباً تفرقة بين الملكية والإدارة والتحرير وصياغة التقارير بصورة شكلية. ورغم أن دور التكنولوجيا في تطور الصحف أصبح جوهرياً، كان يمكن في تلك المرحلة المبكرة قيام ثورة اتصالات ترتكز على المحتوى الإعلامي دون حدوث أية طفرات في الإنتاج.

ومع ذلك فقد شهدت بداية القرن التاسع عشر أيضاً أحد التطورات التكنولوجية الأولى التي تطلبت وجود رأسمال كبيراً بالفعل. كان ذلك يتمثل في اختراع فريدريك كوينج Friedrich Koenig للطباعة البخارية steam press. وكانت صحيفة التايمز اللندنية هي أولى الصحف التي تشتري وتعمل بالطباعة البخارية، ولما خشي جون والتر الثاني من تعرف روبرت موردوخ في وابنج قام بعمل ترتيبات لنقل أجزاء من المطابع من المباني الخاصة بكوينج إلى برنتنج هاوس بسرية تامة، ولأنه أيضاً كان يخشى أن يؤدي الجمع بين الجيلين

المختلفين من الآلات إلى تدمير المطبعة. وفي الواقع، قامت هناك مظاهرة للمنضدين الذين ارتأوا أنهم يمكن الاستغناء عنهم نتيجة للاستغناء عن الممارسات التي تعتبر حتى ذلك الحين ضرورية لإنتاج صفحات متكررة.

في عام 1914 وصف الصحفي البريطاني ويليام ماكسويل الفرق بيم الصحافة القديمة والصحافة الحديثة بمقارنة أسلوب بارون الصحافة اللورد نورثكليف بأسلوب أسلافه:

> كان مالك الصحيفة من الطراز القديم يولي أهمية قليلة لطرق زيادة التوزيع لما هو أبعد من المزايا الجوهرية صحيفته. وكان يشعر بالسعادة لأنه يقوم بطبع جريدته ويوفر للناس الفرصة إما لشرائها أو للتخلي عنها. ولو كان هناك أي ترتيب خاص "لدفع عملية البيع" فلم يرتب أحد في ذلك. واليوم هناك جيش من العباقرة والنشطاء مشغولون في ابتكار وسائل جديدة لتحسين التوزيع والاحتيال على المنافسين وخداعهم، وضمان دعم باعة الصحف، وجذب اهتمام الجماهير والمعلقين.

إن التحول في الاهتمام الذي وصفه مكسويل- من العوامل والاعتبارات الاستراتيجية التي كانت تعتمد على المحتوى إلى الأسلوب القائم على فكرة السوق - أكدته الزيادة المستمرة في رأس المال اللازم لافتتاح أية صحيفة. وقد استمر هذا العامل في التأثير على الاعتبارات التجارية حتى يومنا هذا مع اختراع الكمبيوتر والتكنولوجيا الرقمية. في عام 1894 اعترض تشارلز دانا رئيس تحرير صحيفة النيويورك صن على شراء آلة لنيوتيب وتمنى لو أن الصحف لا تحتاج إلى الإعلانات ومع ذلك فقد كان في تقديره أن أية صحيفة يومية تحتاج إلى حوالي مليون دولار كرأسمال أساس لنقطة الانطلاق. كانت التكلفة في بريطانيا أكبر نسبياً من التكلفة في أي مكان آخر أثناء القرن التاسع عشر بسبب قيام الصناعة هناك في فترة مبكرة، وسعر ورق الطباعة المستورد - لقد

اشترى اللورد نورثكليف في عام 1904 لشركته الخاصة "الأسيو شيتدرس" مساحات من الأراضي في نيوفاونلاند لخفض تكلفة صناعة الورق – وأيضاً بسبب هيمنة الصحافة القومية. إن أية صحيفة تصدر في لندن مثل صحيفة ديلي نيو التي كان يمتلكها تشارلز ديكنز كانت تتكلف حوالي 27 ألف جنيه إسترليني في العام الواحد (وذلك في عام 1846) ولكن قبل السبعينيات من نفس القرن (التاسع عشر) كانت إدارة الصحيفة الواحدة في لندن تتكلف حوالي 270 ألف جنيه. فصحيفة "الديلي ميل تطلبت 15 ألف جنيه إسترليني بمفردها كبداية لها في عام 1896. وفي أماكن أخرى من القارة الأوروبية كانت تكلفة الصحافة اللامركزية أقل، لكن مع نهاية القرن كانت الصحف جميعها تبلغ نفس التكلفة على جانبي الأطلنطي.

قبل أن تصبح الإعلانات هي المهيمنة، كان التمويل الحزبي من قبل الأحزاب السياسية ومن قبل المؤسسات الأخرى يوفر نوعاً من الأمان للصحف، ولكن في نهاية القرن التاسع عشر باتت معظم تلك الأنواع من الصحف في الولايات المتحدة وبريطانيا وأوروبا إما مهددة أو أنها قد اختفت بالفعل. لقد حلت محلها الصحف "الشعبية" التي تعتمد على قصص الكرتون المصورة والقصص الخيالية والموضوعات الإنسانية والألغاز، وتعتمد أيضاً غالباً على العناوين الصارخة والقصص الرهيبة للعلاقات غير الشرعية والانتحار وحالات الكسب غير المشروع. هذا الشكل الجديد من العروض كان يتطلب استثمارات برأسمال ضخم لتشغيل المطابع ذات السرعة العالية وآلات النيوتيب بالإضافة إلى بنية تنظيمية مما دفع لنكولن ستيفنس للكتابة على عقب". ولنأخذ مثالاً على ذلك: قبل إصدار صحيفة الإندبندنت في بريطانيا عام 1986 لم تظهر أية صحيفة قومية جديدة مميزة لمدة 113 عاماً. فتكاليف بدء وتشغيل مثل تلك الصحيفة كانت تقدر بما يزيد على 20 مليون جنيه إسترليني.

رغم ذلك فأثناء القرن العشرين انخفضت تكاليف صافي استثمارات الصحيفة

الواحدة كنتيجة لزيادة إيرادات الإعلانات التي كانت لازمة للاستقرار المالي. وفي مثل هذا المناخ وجد رؤساء التحرير أنفسهم مضطرين لمواصلة توجيههم الذي ظهر لأول مرة أثناء القرن التاسع عشر ويتلخص في أن صحفهم في حاجة إلى تقبل الجمهور لها حتى يمكنها الاحتفاظ بمستوى مقبول من الإعلانات. ولقد فهم ألفريد هارمسورث وأخوه هارولد بالإضافة إلى اللورد روثيرمير ذلك جيداً. فقد قدم هارولد صافي مبيعات مصدقة من قبل محاسبين قانونيين. "إن صافي المبيعات الفعلي - الذي تم تحقيقه بعد خصم عوائد وكلاء بيع الصحف من النسخ التي تم توزيعها كان يعتبر وساماً للإنجاز وفعالية التأثير. لقد كانت تلك المبيعات تمثل بطاقة نسب تقديرية تبين لأصحاب الإعلانات عدد القراء الذين تصل إعلاناتهم بين أيديهم بأسلوب موثوق به". بالطبع يمثل ديوان مراجعة التوزيع **Audit Bureau of circulations** تجسيداً أو صورة حديثة لذلك. هذا الديوان الذي ابتكره هارمسوورث أدى بالفعل إلى تغير العلاقة بين الصحيفة والمعلن وبما أن "المحسوبية السياسية" تراجعت كثيراً وازدهرت الإعلانات وازدادت، توقع المعلنون الذين كانوا يرعون الصحف أن تقوم تلك الصحف بالدفاع عنهم نيابة عنهم جميعاً. فكانوا دائماً ما يطالبون الصحف بأن تكون مصادر دعم وفي ومخلص لمشروعاتهم التجارية.

ثمة مثال واضح على إمكانية اضطلاع الإعلانات بالسيطرة وهو صراع عام 1984 بين دونالد تريلفورد رئيس تحرير صحيفة بريتيش صنداي وصحيفة الأوبزرفر وصاحب الصحيفة ولونرو **Lonrho**. نشر تريلفورد رواية عن الفظائع التي ارتكبها الجيش في زيمبابوي وهي الدولة التي يكسب فيها لونرو أرباحاً طائلة. قام رولاند - رئيس تريلفورد في العمل - بتوبيخه وأرسل اعتذاراً لروبرت موجابي رئيس زيمبابوي. عندما رفض تريلفورد ادعاء عدم الدقة الذي اورده رونلاند في اعتذاره هدده رولاند بسحب إعلانات لونرو من صحيفة الأوبزرفر. في هذه المرة انتصر تريلفورد، لكن انتصاره بسبب خشية رولاند من الخسارة التي

تدخل بالصحيفة التي يملكها في حالة تنفيذه لتهديده بسحب الإعلانات.

ثمة جانب آخر للدوافع التجارية شجع على التوسع في عمل الصحف يتمثل في التغير الجوهري في شكل العمل التجاري الذي لا يزال يمثل معضلة لجميع المؤسسات الإعلامية، وهذا الجانب يبدو تحديداً في فتح الملكية أمام المساهمين. إن تأثير تداول سندات الصحف التجارية على سوق الأوراق المالية يعني اضطرار مؤسسات الأخبار إلى التوسع في حجم ومعدلات أرباحها حتى يمكنها الحفاظ على مكانتها في بورصة الأوراق المالية. لقد ارتبط ذلك بالضرورة بالشركات المدمجة وبالعديد من عمليات التطوير المتسلسلة. ففي عام **1894** – حسب قول ويليام ماكسويل – لم تكن سوق الأوراق المالية تضم أية مؤسسة صحفية واحدة، بينما الآن (في عام **1914**) تظهر اثنتا عشر شركة كبرى على رأس القائمة، ويذكر الإحصاء السنوي للبورصة **26** مؤسسة صحفية محدودة كلها – عدا واحدة فقط – تم تسجيلها أثناء الأعوام العشرين الماضية. في بريطانيا عام **1947** كان هناك خمس مجموعات للصحف الكبرى وكان يوجد بينها حوالي **70%** من إجمالي **144** صحيفة محلية موجودة الآن. أما الولايات المتحدة فقد شهدت موجتين كبيرتين من الشركات الصحفية المدمجة حوالي عام **1900** وأثناء العشرينيات.

الصحفي الواعي

في النصف الأول من القرن التاسع عشر شرعت الصحافة في بدء ترتيبات عملية بطيئة في التخصص المهني. وهذا ما أدى إلى وجود صناعة متجانسة نسبياً كما تفهم اليوم، لكن في البداية اختلف تطور الصحافة بأشكالها المتباينة كثيراً حسب ثقافة الدول المختلفة. على سبيل المثال، في فرنسا نشأت مهنة الصحافة لأول مرة من ثورة عام **1789** عندما انتقل التأثير والاحترام اللذان نسبا إلى الأدب وإلى فلاسفة القرن الثامن عشر للصحافة. وهذا ما أدى بالروائي الفرنسي

أونور دوبلازاك بدلي بتعليقه الشهير في عام 1840 قائلاً "إن الرأي العام صنع في باريس؛ لقد صنع بالحبر والورق". استمر المرور عن طريق الصحافة نحو السياسة التي أوجدت نخبة سياسية جديدة في فرنسا طوال القرن التاسع عشر، وخير مثال على ذلك الممارسات المهنية لبعض الصحفيين السياسيين أمثال فرانسوا جوزو وأدولف تير وأليكس دو تاكوفي الذين كانوا يرون أن التمسك بالحكام مرض مزمن ملازم للأمة كلها.

في بريطانيا استطاعت الصحافة أن تتطور كمهنة لتستقل تماماً عن السياسة حتى لو افتقرت إلى هيبة الصحافة الفرنسية المنافسة لها. تتمتع الصحافة الراديكالية في بدايات القرن التاسع عشر بتاريخ يتميز بوجود الناشرين - المحررين **editor-publishers** بدءاً من ريتشارد كارلايل بصحيفته ريبوبليكان 1826 – 1819 (**Republican**) وحتى ويليام كوبيت وصحيفته بوليتيكال تربحيستر (1802 – 1835). وأما جون والتر الثاني فقد اضطرته طموحاته إلى أن ينسحب من الإدارة الفاعلة لصحيفته التايمز في عام 1818 لأن الرأي العام لم يعتد تحمل رجال الصحافة لأنه لا يعتبره سادة محترمين. وشعر الروائي ويليام ثاكراري بأنه مضطر إلى أن يتخذ اسماً مستعاراً عندما كان يكتب كصحفي. تبنت أيضاً صحيفة لندن ريفيو التي صدرت في بدايات عام 1835 نفس وجهة النظر، فكانت لا تنظر إلى رجال الصحافة كسادة جديرين بالاحترام و"أن الصحافة هبطت عن مكانتها كمهنة لبرالية ... كما هبط سلوك صحفنا إلى أدنى مستوى ليقع في أيدي رجال ذوي نسب غامض، وتعليم مبتور ومشاعر بليدة وأخلاق صعبة المراس.

على الرغم من مثل تلك الانتقادات، فإن العلاقة بين صحيفة التايمز اللندنية والحكومة كانت حقيقة واقعة على مدى القرن التاسع عشر تقريباً. يشير التاريخ الرسمي إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تتواجد في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر بين ساحة الطباعة **Printing House**

Square وبين مكتب المجلس الملكي Prive Council Office وهو القسم الخاص بالآلات الحكومية التي تستخدم يومياً. بسبب تلك العلاقة نسبياً، كانت مجلة التايمز قبل عام 1865 تبيع أكثر من 65 ألف نسخة يومياً، كما كانت إيراداتها من الإعلانات المصنفة تمثل بالنسبة لها نسبة عالية جداً من الأربعاء تغنيها عن مساعدة الحكومة. وبحلول عام 1870 بلغت إيرادات التايمز من الإعلانات ضعف إيراداتها من المبيعات.

لكن في رأي العديد من المراقبين المعاصرين مثل المفكر الليبرالي الكبير جون ستيوارت ميل: يمثل ظهور الصحافة التجارية والصحفي المحترف خسارة أكثر ما يمثل مكسباً فهو يذكر أن:

> كلنا يعرف مدى تدني حالة الصحافة المطبوعة في هذه الدولة، ففي فرنسا يقوم أفضل المفكرين والكتاب في الأمة بالكتابة في الصحف ويوجهون الرأي لعام؛ لكن كتابنا اليوميين والأسبوعيين إنما يكتبون أدباً مبتذلاً عندما يصبح تجارة فإنه يصبح الأكثر ركاكة وهبوطاً بين كل المهن الأخرى لأن ذلك يتطلب المزيج من التصنع والتكلف والنفاق والمزيد من التذلل لمشاعر الآخرين أكثر من أية مهنة أخرى بدءاً من حارس المواخير وما فوقه.

أثناء تلك الفترة كان رئيس تحرير الصحيفة – حتى لو كان حارساً لماخور مثلاً – هو صاحب السيادة، كما كانت المشروعات الصغيرة هي السائدة – إذا ما كانت الملكية فردية أو عائلية – خاصة في قرى ومدن المحافظات.

سيرة ذاتية

جون ستيوارت ميل

ولد جون ستيوارت ميل John Stuart Mill في لندن عام 1806. كان طفلاً حذراً ولبقاً، تعلم اللغة اليونانية في سن الثالثة، وأصبح أحد الكتاب والمفكرين الليبراليين البارزين في القرن التاسع عشر. عندما بلغ سن العشرين أصيب بانهيار عصبي، لكن في النهاية التحق بالشركة الهندية الشرقية البريطانية كما كان أبوه قد فعل من قبله.

من أعماله الأكثر أهمية وشهرة "عن الحرية" On Liberty عام (1959) و"خضوع النساء" The Subjection of Women عام (1969). يعتبر مؤلف "عن الحرية" أطروحة عن مدى ما يمكن للدولة ممارسته من سلطة على الفرد. أما "خضوع النساء" فقد دعا إلى المساواة بين الجنسين وأدى إلى جدل كبير واسع النطاق. ومن عام 1865 حتى عام 1868 كان عضواً لبرلمان ويستنمستر. وتوفي في آفيجتون بفرنسا عام 1873.

في نهاية القرن تقريباً كان الوضع الاجتماعي للصحفيين لا يزال مثار نزاع لأنها كانت فترة تتميز بالتغير المكثف في عملية تنظيم الصحافة والطباعة. يقول آلان لي: "لقد أدى الحجم المتنامي والتغيير الكبير في تنظيم وإدارة الصناعة إلى انفصال بين الصحفيين الذين يعملون والملاك إلى درجة أنه حتى في الثمانينيات في القرن التاسع عشر عندما تم إنشاء معهد الصحافة، كان الكثيرون في بعض الدوائر يشعرون أنه من غير المناسب للملاك أن يتمتعوا بحق العضوية. تسلم معهد الصحافة ميثاقه الملكي عام 1889 وكان الهدف منه الترويج للصحافة كمهنة، ولكن كمهنة ترتبط كثيراً بصحافة يومية جديرة بالاحترام إذ أن الوضع الخاص بالصحفيين كان يعتمد بصورة كبيرة على وضع الجماهير التي تشتري تلك الصحف. كان السير والتر باسانت – الذي أنشأ اتحاد المؤلفين عام 1884 لحفظ الحقوق، خاصة حق الطبع والنسخ – يعتقد أن الصحافة الوحيدة

التي تستحق التقدير من قبل السادة المحترمين أو من قبل المثقفين كانت عبارة عن كتابات القادة لصحيفة التايمز.

التكنولوجيا: السلسلة المتصلة للزمان والمكان

انتقلت التطورات التكنولوجية من مرحلة هامش الوعي لدى الصحفيين إلى مرحلة بؤرة الوعي لديهم، خاصة في النصف الثاني من القرن العشرين. فقد كانت الصحف الأولى تتطلب مجرد طابعة وصحفيين بأحذية سميكة للسير أو حصان. عندما تسارعت خطى الثورة الصناعية، حدثت تغيرات هامة ومؤثرة في طرق جمع الأبار. ففي عام 1837 قدم السير اسحق بيتمان نظام الاختزال الذي ترك علامة الممارسة الصحفية رغم أنه كان مجرد إبداع تكنولوجي بسيط. لقد تم اعتماد هذا النظام لأن التقارير والأحاديث- خاصة تلك التي كانت تخص البرلمان – يمكن تدوينها شفهياً وبكل دقة.

لقد وطدت الفترات الزمنية المتغيرة التي أدى إليها الإبداع التكنولوجي تلك العلاقة بين وسائل الإعلام الإخبارية وجماهيرها. فأثناء القرن التاسع عشر، كان ذلك هو القاعدة لنقل الأحاديث الشفهية من البرلمان لأنها كانت تعتبر أحاديث في غاية الأهمية. كان ذلك يشمل طباعة عدد هائل جداً من الكلمات. في بريطانيا عام 1890، ذكر جون بندلتون:

> أعلنت كل الصحف اليومية تقريباً أن "السيد جلادستون، الشخصية الأولى، سيدلي بحديث". قام حوالي 12 أو 16 أو 20 صحفياً بتمثيل بعض الصحف؛ والأدوار التي كان لابد أن تستغرق نصف ساعة تم تعليقها لمدة ثلاث أو خمس أو حتى عشر دقائق، وكان الصحفيون يعملون برشاقة وسرعة يداً تلو اليد وقسماً تلو القسم إلى درجة أنه عندما جلس السيد جلادستون على مقعده مرة ثانية تمام الساعة الثامنة مساءً،

ولأنه كان قد تحدث منذ الرابعة وخمس وثلاثون دقيقة بعد الظهر، تم إرسال كل حديثه تقريباً إما بالتليفون أو عبر الميسنجر، لذلك فقد نشر حديثه في صحف الصباح بلندن ثم انتقل بالبرق لباقي الأماكن في الدولة. لكن الحديث الذي كان يحتوي على 24700 كلمة كان تقريباً موجوداً بكامله في مطابع مانشستر وليدز وإدنبره قبل منتصف الليل ... وقبل أن يفرغ رجل الدولة الكبير وعاء الذهان المقوي للصوت ويذهب للنوم.

كانت السرعة هي الأساس والجوهر. فقبل ذلك بقرن من الزمان، وأثناء الثورة الفرنسية كانت الصحف تكتب بالريشات quills وتنتج على ضوء الشموع لأن الثوار كانوا يعملون ليلاً مستخدمين طابعات يدوية مصنوعة من الخشب. وبعد مرور قرن على "مثال" بندلتون، أثناء أحداث الشغب التي وقعت في باريس في مايو 1968، استخدم المتظاهرون من الطلاب الراديو للتواصل. وفي مانيلا أطاح الغوغاء الأذكياء بالرئيس إسترادا عام 2001 بتنظيم مظاهرات عبر الرسائل النصية والهواتف الخلوية.

شهد نفس العام الذي قدم فيه نظام الاختزال – 1837 – ظهور شفرة المورس Morse code التي اخترعها صمويل مورس لاستخدامها بالتلغراف الكهربائي. كلا الاختراعين زادا من سرعة ودقة جمع المعلومات ونشرها. في هذا العام أيضاً أنشأت صحيفة التايمز اللندنية أحد نظم البريد الطائر pigeon post من باريس وحتى بولونيا، وقام ويليام كوك وتشارلز ويتستون بتركيب أسلاك التلغراف الكهرومغناطيس على طول خط سكك حديد لندن وبيرمنجهام من إيوستون وحتى مدينة كامدن. كانت التايمز أولى الصحف التي استخدمت هذا الاهتراف، ولكن قبل مرور فترة طويلة كان التلغراف – الذي يعتبره تشارلز ديكنز الأكثر روعة بين العجائب الحديثة – قد أعاد تشكيل ما

نطلق عليه الآن اسم "وسائل الإعلام". لقد أفاد هذا الاختراع كل أنواع الأعمال بمساهمته في زيادة سرعة عملية الاتصال. فأجهزة التلغراف الحديثة مثلاً كانت تستخدمها أسواق القطن والذرة لجمع المعلومات عن الأسعار والعمليات التجارية المستقبلية، كما كانت تستخدمها أسواق الأوراق المالية لجمع المعلومات المالية، والحكومات في العمل بالإدارات المحلية وغير المحلية، وحتى الصحف لنقل وجمع الأخبار وتبادل الأفكار السياسية والثقافية.

إن التطورات التي حدثت في التلغراف والتكنولوجيا السلكية - بما أنها تتعلق بالاتصالات العالمية والدولية تعد أيضاً ذات أهمية في التوسع في جمع محتوى الأخبار وتوزيعه. رغم أننا سنناقش هذا الموضوع بالتفصيل في الفصل السادس، إلا أننا يمكن أن نطرح أحد الأمثلة على ذلك وهو مثال يدور حول وكالات الأنباء. فمثلاً كانت وكالة أسيوشتيدبرس في أمريكا ووكالة رويتر في بريطانيا نتاجاً للعمل بالتلغراف الحديث، وكان تأثيرهما على عمليات جمع الأخبار تأثيراً عميقاً للغاية. لقد كانتا تقومان باختيار ومعالجة الروايات التي كانت تعتبرها "أخباراً" أو أجندات إخبارية. ولأن هاتين الوكالتين كانتا تتعاملان مع مجموعة كبيرة من العملاء المختلفين، كان اهتمامهما ينصب على الحقائق والوقائع دون الاهتمام بالتعليق؛ وهذا ما أدى بالمهنة تدريجياً إلى التمييز بين الاثنين.

بالإضافة إلى التأثير في جمع الأخبار، كان التلغراف فعالاً في التأثير على دورة الأخبار على مدى 24 ساعة. فقبل اختراع التلغراف، كان لكل مدينة أمريكية توقيتها المحلي الخاص بها، لكن التلغراف جعل المنطقة الزمنية **time zone** أمراً ممكناً وضرورياً على حد سواء. وقد تم توحيد تلك المناطق الزمنية عام 1883 وحتى الآن، لذلك فقد أصبح الزمن "قومياً" ثم أصبح بعد ذلك "دولياً". في أول الأمر كان الاستخدام على المستوى القومي لأن الصعوبات الهندسية التي ينطوي عليها تثبيت الكابلات الضخمة تحت الماء كانت هائلة.

ورغم ذلك فقبل الثمانينيات من نفس القرن أصبح كل من الزمن والمسافة سلسلة أمكن التحكم فيها لأول مرة. فقد أصبح التلغراف والسكة الحديد يمثلان بنية تحتية للمواصلات القومية، ولذلك ساد بعض الدول الكبرى مثل الولايات المتحدة شعور بالشمولية inclusivity. الجدير بالذكر هو أنه في الولايات المتحدة، لم يؤد هذا التطور التكنولوجي الهائل إلى تدشين صحافة قومية قوية.

في بريطانيا، رغم أنها دولة أصغر بكثير، كانت نفس المقاييس الزمنية موجودة، وكان ابتكار السكك الحديدية والحاجة إلى جدول زمني موحد أدى إلى الاتفاق على خط طول جرينتش. على سبيل المثال، كانت بريستول تبعد عن لندن 120 ميلاً فقط، ومع ذلك فهي تبعد عن خط طول جرينتش بإحدى عشرة دقيقة، وذلك حتى وصل أول قطار إلى محطة تمبل ميدز في يونيو عام 1841. والساعة المعلقة وق سوق الذرة القديم تعد تذكاراً لهذا التغير. فلها عقربان للدقائق. يشير عقرب الدقائق الأسود إلى توقيت جرينتش والعقرب الأحمر يشير إلى توقيت برستول. ولقد قوبلت السكك الحديدية بترحاب كبير من قبل أصحاب الصحف حيث رحبوا من ورائها الكثير كما دون في سجلات التاريخ الرسمي لصحيفة التايمز؛ فقد تم توثيل 150 نسخة من التايمز، عدد 11 ديسمبر عام 1849 في تمام الساعة الواحدة والنصف مساءً في باريس وذلك في نفس يود إصدار العدد. لم يحدث أن حققت أية صحيفة إنجليزية مثل هذا الإنجاز من قبل. عادة ما كانت تصل الصحيفة ما بين الثانية عشرة ظهراً والواحدة بعد إصدار العدد بيوم واحد.

في نفس الوقت، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأت صحف الأحد تغزو "قداسة السبت المسيحي". فقد كانت طبعات يوم الأحد من الصحف اليومية تلقي قبولاً في الولايات المتحدة منذ أن انهزمت المعارضة السبتية Sabbatarian opposition في الأربعينيات من نفس القرن. قام جوزيف

بوليتسر بإنتاج صحيفة الصنداي وورلد كجزء من صحافته الصفراء حيث كان بينه وبين ويليام راندولف هيرست خصومة. في بريطانيا كان بيع الصحف يوم الأحد غير قانوني فقد لاقى القانون سخرية واسعة النطاق. وقد حدثت واقعة غريبة أثناء البيع في يوم أحد في عام 1899 عندما أصدر ألفريد هارمسوورث إحدى طبعات الديلي ميل يوم الأحد لمنافسه الطبعة الجديدة للديلي تليجراف المخصصة ليوم الأحد. عقد لقاءات عديدة في كل أنحاء الدولة للاحتجاج ونجحت الحملة في أن تم سحب الإعلانات بالكامل من الصحيفتين. كما لحق بكلتي الصحيفتين الخزي والعار لدرجة أنه قد تم سحبهما أيضاً من السوق. وقد ظهرت صحيفة الصنداي تليجراف في عام 1961 فقط كما ظهرت صحيفة الميل يوم الأحد من عام 1982.

كانت الرغبة في الحشد اليومي للأخبار هي ما يميز الصحافة بصورة واضحة خاصة أثناء النهار. ولكن مع ابتكار وسائل البث الإذاعي بدأت الأخبار تغزو الليل بصورة جدية. كما يحدث مع جميع أنواع التكنولوجيا الحديثة، فرضت قيود على حرية التعامل بها حتى يمكن أن تنظم ذاتها. ففي بريطانيا في بداية الحرب العالمية الثانية، تم تخفيض قنوات الإذاعة إلى قناة واحدة – وهي قناة الخدمة المنزلية – وتم إغلاق التليفزيون مدة الحرب. وبعد انتهاء الحرب استهلت هيئة الإذاعة البريطانية BBC عملها ببث ثلاث محطات – وهي الخدمة المنزلية والبرنامج الخفيف والبرنامج الثالث – بالإضافة إلى قناة تليفزيونية واحدة. هذه القناة بدأت البث كل يوم في الساعة الثالثة مساءً مع بث برنامج للمرأة لمدة ساعة. وكانت تنهي إرسالها بين الساعة الرابعة والساعة الخامسة مساءً. وبين الساعة الخامسة والسادسة كانت تبث برنامج للأطفال يليها إنهاء للبث حتى يبدأ جدول المساء الساعة الثامنة مساءً. عادة ما كان البث يتوقف ما بين الساعة 10,30 مساءً ومنتصف الليل. كانت عمليات إنهاء الإرسال استجابة لبعض الادعاءات بأن التليفزيون يبدد خلوة العائلة. كما أن التليفزيون كان بذلك يوفر

للأطفال وقتاً لتناول وجبة العشاء والذهاب إلى النوم.

انحسرت تلك القيود شيئاً فشيئاً مع بداية البث التجاري في عام 1955. ففي الولايات المتحدة كانت مواعيد التليفزيون أقل تنظيماً لأنه لم يكن هناك برمجة قومية للبث. ومعظم المحطات التليفزيونية بدأت البث على مدار الساعة في التسعينيات من القرن العشرين، وهذا ما انطوى على عدد وجود نماذج جديدة على الصحفيين. على سبيل المثال تطلبت برامج الإذاعة والتليفزيون الصباحية عمليات بحث وإعداد كانت تستمر طوال الليل؛ وقنوات البث على مدار أربع وعشرين ساعة كانت تطلب تحديثاً مستمراً للمزيد من الروايات حتى تكون تلك الروايات متجددة.

العامل الآخر الذي أبرزته وكالات الأنباء لأول مرة كان انفصال مراقب الحدث الإخباري عن منتج هذا الحدث كرواية إخبارية. أضف إلى ذلك أن وكالات الأنباء أعادت صياغة طرق عرض الروايات بغض النظر عن محتواها؛ هذا ما يجسد المقولة الشهيرة لمارشال ماكلوهان عام 1960: "الوسيلة هي الرسالة". لقد بلغ هذا الفصل وإعادة الصياغة أوجهما مع ابتكار تكنولوجيا الاتصالات الجديدة. فاليوم مثلاً يمكن إيجاد المعلومات دون تدخل بشري على الإطلاق. فقد تمت برمجة الكمبيوتر للاستجابة بالجمع بين مجموعات كبيرة من المعلومات بطرق متعددة بناءً على الطريقة التي يتم طلب عرض المعلومات بها. على سبيل المثال يمكن لتصفح المواقع الشبكية توفير كم هائل من المعلومات غير المطلوبة، وعادة ما يتم ذلك على شكل إعلانات اعتماداً على معايير البحث التي يتم استخدامها.

إذا كان الاتجاه العام يركز على الكمبيوتر لتوفير كم هائل من المعلومات في حين التلغراف الكهربي في بداية الأمر كان يختزل المعلومات إلى الكم الضروري فقط. لقد سلط نك ديفيز الضوء في "فلات إيرث نيوز" على المخاطر

التي تواجه الصحفيين وطموحاتهم المهنية وعلى العلاقة بين الأخبار والمجتمعات المحلية؛ فدائماً ما يقوم صحفي واحد فقط بتغطية الأخبار المحلية من خلال مراقبته لمجموعة من الروايات التي جمعت عن طريق الكمبيوتر ثم يقوم بقراءتها مرتين في الساعة.

إذا كانت تلك هي الحالة، إذاً فإن دور الصحفيين لابد أن يكون قد تغير فعلاً. فمن المؤكد أنهم - على جميع المستويات - كانوا سيشرعون في الاقتراب إلى العمل المهني، كما شرعوا في أن يكونوا أقرب إلى الموظفين، وأبعد ما يكونون عن مجرد أشخاص يدافعون عن الحرية، أو يبحثون عن الأخطاء. هل هذا ثمن يستحق الدفع، أم أنه ثمن لابد أن يُدفع؟ وهل من حق أصحاب النظرة التشاؤمية استنكار هذا التوجه أو شجبه لأنه يعد مثالاً على الضغوط التجارية التي تؤدي إلى ابتزاز القيم الصحفية؟ أم أن أصحاب النظرة التشاؤمية على صواب عندما وصفوا هذا التوجه بأنه صحافة جديدة لعصر جديد؟

الفصل السادس

صحافة جديدة لعصر جديد

من الواضح أن تاريخ الصحافة كان يغص بأنواع الصحافة الجديدة: فكان هناك الإثارة البشعة في صحف الآحاد في القرن التاسع عشر، والمجادلات المستمرة في الصحافة الصفراء، ثم النزعة الصحفية الجديدة في نهاية القرن، بالإضافة إلى النوع الآخر من الصحافة الجديدة التي استهلها كتاب مثل ترومان كابوت وتوم وولف وهانتر ثومبسون في الستينيات من القرن العشرين. كل تلك الأنماط من الصحافة إنما برزت كرد فعل للحاجة إلى خلق جمهور ثم الحفاظ عليه. ولكن ما لا يجب أن يذهب في طي النسيان هو دور الإبداع في الطباعة والأساليب الذي نشأ من خلال التكنولوجيا الحديثة التي أتاحت بدورها "إطارً" لكل نمط من أنماط الصحافة كما نشأ. هذا أمر طبيعي لأن مهنة الصحافة انتقلت من العصر الفيكتوري إلى القرن العشرين.

إعادة ابتكار التصميم والتخطيط

استطاعت الصحاف اليومية أن تحافظ على توزيعها على أساس بيع الاشتراكات والاكتتاب، وهي وسيلة للتمويل – كما أوضحنا في الفصل السابق – وصلت إلى ذروتها في الثلاثينيات من القرن العشرين. على النقيض من ذلك، اعتمدت المسائية على العناوين البارزة واللافتة للنظر في الصفحات الأول لجذب انتباه الركاب في عودتهم إلى منازلهم من العمل. لقد شهدت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين الطرق التي كانت تستخدم تقليدياً من قبل الصحافة المسائية وهي تغزو الصحف اليومية. في بداية الأمر، حدث ذلك في بريطانيا مع

الصحافة الشعبية، قبل ذلك بفترة وجيزة احتفظت صحيفتنا الديلي ميل والتايمز بالإعلانات المبوبة على صفحاتها الأولى بدلاً من الأخبار. ولقد رافقت الرواية المثيرة أسلوب العرض المثير الذي كانت تحفزه الحاجة الملحة إلى زيادة التوزيع وعوائد الإعلانات. كان هناك ثلاثة عوامل تحفز مثل هذا التغيير؛ أول تلك العوامل يتمثل في أن الكساد الاقتصادي جر كلاً من أمريكا وبريطانيا إلى رحى الحرب العالمية الأولى. والعامل الثاني إشعال المنافسة بين مالكي الصحف. والعامل الثالث يتجسد في التطورات الحثيثة في أسلوب الطباعة وطباعة الصور.

حدث الذعر المالي لعام 1893 بعد مرور عقد كامل على النمو الاقتصادي الاستثنائي الذي تم في الولايات المتحدة، وقد نتج هذا الذعر عن الإفراط والتوسع في تشييد خطوط السكك الحديدية واهتزاز الشئون المالية التي يقوم عليها هذا الإفراط وذلك التوسع. لقد أشهرت العديد من شركات السكك الحديدية إفلاسها بما فيها الشركات الشهيرة: آتشيسون وتوبيكا وسانتافي. وإجمالاً، أخفق ما يربو على 15 ألف شركة و500 بنك، والبطالة التي نتجت عن هذا الإخفاق - بالإضافة إلى فقدان المدخرات الخاصة بالمعيشة - حولت الطبقة الوسطى التي كانت آمنة في يوم من الأيام إلى طبقة لا تستطيع أن تتحمل أعباء حتى دفع إيجارات المساكن التي تقطن بها. وأدى الفساد إلى انخفاض أسعار تغطية الصحف وانخفاض معدل الإعلانات؛ وكان علاج مثل تلك الأحوال الاقتصادية المؤلمة هو أن يهب الجميع للعمل من أجل زيادة التوزيع، فوقع كل من جوزيف بوليتسر صاحب صحيفة النيويورك وورلد ووليام هيرست صاحب جريدة النيويورك جورنال بين فكي رحى معركة قاسية بهدف قاسية بهدف جذب قراء "النيويورك". لجأ كل منهما إلى نشر العناوين الجاذبة والملفتة، وخلفت المعركة بينهما الأسلوب الذي يدعو إلى الإثارة والذي يطلق عليه اسم الصحافة الصفراء. لقد تم اشتقاق هذا الاسم من اللون المعتاد لمسلسل كرتون يسمى "زقاق هوجان" Hogan's Alley كان ينشر بصحيفة بوليتسر "العالم" يروي عن طفلة تعيش

بأحد أزقة نيويورك، وكانت دائماً ترتدي قميص نوم أصفر.

سيرة ذاتية

جوزيف بوليتسر

ولد جوزيف بوليتسر **Joseph Pulitzer** بمدينة ماكو بدولة المجر عام 1847. وهاجر إلى الولايات المتحدة عام 1864 بعد أن رفضه جيش النمسا لسوء حالته الصحية. فأقام في سانت لويس وعمل في صحيفة ويسليتش بوست، وهي صحيفة ناطقة باللغة الألمانية. وفي النهاية، اشترى الصحيفة بمبلغ 3000 دولار. وفي عام 1883 – بعد أن أصبح ثرياً – اشترى نيويورك وورلد. ورغم أن تلك الصحيفة كانت تخسر الكثير من الأموال إلا أن بوليتسر استطاع أن يحول حالها إلى الأفضل حيث كان ينشر وجبة دسمة من الروايات التي تهم الجماهير، مع نشر العناوين المثيرة والصارخة.

عندما اشترى ويليام راندولف هيرست صحيفة النيويورك جورنال عام 1896 اشتعل الموقف بوقود حرب التوزيع التي تمخضت عن ما بات يعرف بالصحافة الصفراء. وفي عام 1892 منح بوليتسر جامعة كولومبيا بعض المال لتمويل إحدى كليات الصحافة. تم إنشاء الكلية في عام 1912 بعد وفاة بوليتسر بعام واحد. وقد أسس أيضاً جائزة بوليتسر التي منحت لأول مرة في عام 1917. كانت الجائزة تضم 21 فئة، كل فئة تقدر جائزتها بعشرة آلاف دولار. وقد توفي بوليتسر وهو على ظهر اليخت الخاص به بميناء هاربر في عام 1911.

يعرف الصحفي والمؤرخ الأمريكي "فرانك لوثر موت" الصحافة الصفراء في إطار خمس خصائص:

1. عناوين بسيطة وبارزة بحجم كبير في الطباعة، في أغلب الأحيان من الأخبار البسيطة.

2. الاستعمال المسرف في الصور، أو الرسوم الخيالية.

3. استخدام المقابلات المزيفة والعناوين المضللة والعلوم الزائفة واستعراض الثقافة المزعومة المأخوذة عن خبراء مزعومين.

4. الاهتمام بالملاحق الملونة بكاملها والتي تصدر في أيام الآحاد، وعادة ما تنشر تلك الملاحق مسلسلات الكرتون الفكاهية (وهو أمر يحدث الآن في الولايات المتحدة بصورة عادية).

5. التعاطف الفج مع "الفئة المستضعفة أو المظلومة" ضد النظام.

كانت صحيفة "وورلد" التي يمتلكها جوزيف بوليتسر مثلاً تنشر عناوين مثل: "كيف نطهو الأطفال" و"حرق الأطفال الذين يسقطون من فوق السطح" و"خطوط العربات الصغيرة". وكان ويليام هيرست يستخدم نفس الأساليب حتى قبل شرائه لصحيفة النيويورك جورنال. على سبيل المثال، بعد أن اشترى صحيفة سان فرانسيسكو عام 1887 بشهر واحد، نشر العنوان التالي عن طريق أحد الفنادق: "حرائق جائعة ومسعورة ... تقفز فوق سبلندد بالاس بجنون". لقد استخدم كل منهما الصور بأسلوب فج ومبالغ فيه حيث استطاعا استغلال التطورات في طباعة الصور المائية **halfton printing**. وأثناء الحرب الأمريكية الأسبانية في عام 1898 (وهي الحرب التي أشعلتها وسائل الإعلام) أذكت صحيفة "الجورنال" - التي يمتلكها هيرست - هستيريا الحرب بنشرها العناوين مثل: "يقوم الأسبانيون بتفتيش النساء الأمريكيات على ظهر البواخر الأمريكية"، ونشرت الصحيفة تحت هذا العنوان صورة لامرأة عارية يحيط بها مسئولون أسبانيون من الرجال. بالطبع لم يكن ممكناً تحري الحقيقة أو حتى

الوصول إلى فهم أن هناك صورة تم نشرها خصيصاً لإثارة الشعور المعادي للأسبان لدى قراء الصحيفة.

في بريطانيا ظهرت صحافة جديدة تميزت ببعض سمات الصحافة الصفراء. فقد كان اهتمام الصحافة مرتكزاً حول عرض الروايات المبسطة وسهلة القراءة رغم أن ألفريد هارمسوورث كان واضحاً في صحيفته الديلي ميل في تطرفه نحو الحرب "البوير" كما كان هيرست بالنسبة للحرب الأمريكية الأسبانية. كان أسلوب هارمسوورث في جمع ونشر الأخبار مرضياً ومقنعاً لبوليتسر إلى درجة أن هذا الأخير قد وجه إلى الدعوة لزيارة أمريكا للإشراف على تحرير العدد الأول من صحيفة النيويورك وورلد في القرن العشرين. كانت الصحافة الجديدة تدرك أن معظم الناس ينظرون إلى محتوى الصحيفة نظرة مختلفة تماماً عن نظرتهم لأي محتوى آخر للقراءة. فهم يرغبون في الاطلاع على جوهر الخبر أو الرواية منقحاً وموجزاً بقدر الإمكان. لذلك فرغم أن مبادئ الكتابة القياسية كان لابد لها من أن تسود المجال، كان كل من الوضوح والإيجاز هما السمتين الغالبتين علي الصحافة التي كان يروج لها هارمسوورث. وقد خلف هذا الإيجاز مساحة لوجود خليط أوسع بكثير من الكتابات والمقالات، كما أتاح مساحة كبيرة أيضاً للإعلانات خاصة وأن العروض الإعلانية أصبحت شكلاً جديداً لصفحات الجرائد، كما كانت مصدراً كبيراً للربح.

بقيت هذه التوجهات الجديدة في التخطيط والتصميم والصيغة هي السمة المميزة للصحيفة منذ ذلك الحين. فاستخدام الألوان والرسوم (الجرافيك) والصور ازداد، أما الصحف الشعبية علي وجه الخصوص فقد استثمرت عملها في استخدام العناوين الصارخة علي نطاق واسع جداً. وفي الفترة الأخيرة، تقلص حجم الصحيفة - حتى التايمز أصبحت صحيفة صغيرة الحجم جداً - ولكن ازداد عدد الصفحات وازداد تقسيماً مع الفصول بين الأخبار والمهام الأخرى

ونـشرها في أقـسام مختلفـة حـسب الاهتمامـات، فكـان منهـا أقـسام الرياضـة والمـال والعمـل والرحلات والسفر إلى غير ذلك. ظهر أيضاً توجه جديد نحو الروايـات الإخباريـة لتتخـذ الـصحف ذات الصفحات الكبيرة مكانـاً لهـا، ولتحـل بـذلك محـل مـواد التحريـر التـي تقلـصت كثـيراً. وفي بريطانيا كانت الـصحيفة الأولى العاديـة الـديلي اكـسبرس في الخمـسينيات مـن القـرن العـشرين تشتمل علي 15 رواية أو أكـثر في حـسن تـشتمل الـصحف ذات المقطـع الكبـير عـلي روايتـين إلى خمس روايات علي الأكثر في هذه الأيام.

الآن كلنا محترفون

يفتخر بعض الصحفيين بكونهم صحفيين مأجورين hackفي حـين يـصر صـحفيون آخـرون بـأنهم أعضاء في همل مهني. واليوم اختلط الأمر بين هذين القطبين المتعارضين وانخرط كل منهما فـيما يطلق عليه "العلاقات العامة" وصحافة المواطن citizen journalism.

ورغم ذلك لا نزال نستطيع أن نحدد الصحفيين المعاصرين ونعرفهم بأنهم مجموعة من الموظفين الذين يتمتعون بصورة ذاتية واضحة. فإجراءات العمل في جميع نواحيها لا تزال تتبع توقيتاً زمنياً محدداً لجميع الأخبار كأية وظيفة أخرى؛ من تلك الإجراءات: عقد المقابلات والانتقاء تم الكتابـة فالتسجيل فالتحرير وهكذا. ولا يزال افـضل الـصحفيين يـصرون عـلي رسـم الحـدود بـين الأخبـار "الموضوعية" وبين الكتابات "الذاتية" أو السمات الانفعالية. ومع ذلك فإن مثل تلك الخصائص لم تكن تغرض أو تملئ الصحفيين من جهات عليا أو "جهات دنيا"، وإنما نشأت اسـتجابة للتفـاعلات المعقدة الكامنـة في التكنولوجيـا والعـادات والتقاليـد الاجتماعيـة والثقافيـة والتعلـيم والتـصنيع والبيئات السياسية المتغيرة.

يذكر كيفين ويليامز أنه "قبل بداية القرن العشرين كان الصحفيون جزءاً من نظام (أدبي) مختلط ومشوه" وأعضاء في (جماعة مفككة وصوريه) من الكتاب الذين زاولوا مهنتهم من خلال مجموعة متنوعة من المنشورات. وبحلول الثلاثينيات من نفس القرن، توسعت كل أشكال وسائل الإعلان إلى درجة أن أولئك الذين كانوا يصنعون أنفسهم ككتاب أو محررين أو صحفيين ذاد عددهم ثلاثة أضعاف فيما بين أعوام 1891 و1931؛ وهو معدل زيادة يفوق – ست مرات – معدل تعداد السكان. إن سعي الصحافة الدؤوب إلى أن تصبح مهنة متميزة رفع مبدأ الموضوعية إلى مركز تلك المهنة، وخاصة فيما يتعلق بجمع ومعالجة الأخبار.

رغم ذلك فلا يزال هناك مجال لطرح سؤال عما إذا كانت تلك الخصائص يمكن أن تصف مصطلح "مهنة" **profession**. فلو أنك مهندس معماري مثلاً أو أخصائي مساحة أو محامي أو محاسب فما يقال عنك هو أنك تزاول مهنة وليس مجرد وظيفة. وبصفتك مهنياً أو محترفاً فإنك تحصل على ترخيص أو تسجيل بطريقة ما، وعادة ما يتم ذلك بعد إكمالك لأحد المناهج الدراسية الصارمة حتى تتمكن من أن تزاول مهنتك. ورغم أ عملاءك يدفعون لك إلا أنك لا يمكن أبداً أن تنحاز لهم لمجرد أنهم يدفعون لك. بمعنى آخر دائماً تضطر إلى أن تكون محايداً بين الطرف الأول من التعاقد – وهو الطرف الذي عينك – وبين الطرف الثاني. وفي العديد من المواقف دائماً ما تمتلك الصحفيين الرغبة في أن يلتزموا الحياد، وهذه الرغبة هي التي تدفعهم إلى القول بأنهم مهنيون محترفون.

لقد ظل هذا "اللقب" دائماً محل نزال، ومع ذلك فإنه – أي مصطلح المهنية – أبى إلا أن يبقى. ففي بريطانيا تم إنشاء معهد الصحافة **The Institute of Journalists** بقرار ملكي في عام **1890**. كان المعهد يضم "السادة العاملين

في المجال الصحفي" وقد تم إنشاؤه وافتتاحه "لتعزيز وتطوير المصلحة العامة للمهنة". وفي عام 1934 اقترح معهد الصحافة أنه لابد أن يكون هناك سجل صحفي كأي سجل خاص بأية مهنة أخرى. ومع ذلك، يذكر جوفري روبنسون المحامي الإعلامي: "أن الصحافة ليست مهنة. بل إنها ممارسة وظيفة الحق في حرية التعبير المتاحة لكل مواطن. وهذا الحق - حيث أنه متاح للجميع - لا يمكن سحبه من حيث المبدأ من أية فئة ولو قليلة من قبل أي نظام من نظم الترخيص أو التسجيل المهني". ورغم أن الدولة لم تصدر أي نوع من أنواع التسجيل إلا أن رغبة الصحفيين في تحقيق المهنية أدت إلى بروز أحد الشروط الأساسية لتحقيق المهنية؛ وهو عبارة عن مجموعة من أخلاقيات المهنية.

في بريطانيا القرن الثامن عشر، كانت الأخلاقيات عبارة عن رفاهية أو ترف يتمتع به القليل من رجال الصحافة. فرؤساء الوزراء - وهم على التوالي والبول، وبت، ونورث - قدموا مبالغ كبيرة من المال لاستقطاب رؤساء تحرير الصحف والكتاب المتعاونين معهم إما لنيل دعمهم أو لشراء صمتهم أو لشراء صمتهم. وأثناء السنوات التي عمت فيها اضطرابات الثورة الأمريكية، كان الموالون للصحف يميلون إلى تيار المعركة. وعندما أصبحت الصحف تعتمد أكثر على الإعلانات، وتعتمد بصورة أقل على المنح التي توفرها لهم المؤسسات الدينية أو السياسية أو غيرها، أصبحت كتابات الصحفيين غير مُسَيسة واعتمدت بصورة متزايدة على معايير مطردة للحياد والموضوعية.

كانت نتيجة ذلك توحد المنهج الصحفي كما قال لنكولن ستيفنز وهو يصف التدريب الذي تلقاه: "اضطر الصحفيون إلى نشر الأخبار كما كانت تحدث بالفعل، كالآلات، دون تصرف أو شكل؛ الكل سواء". ففي بريطانيا مثلاً، لم تنشر جريدة التايمز أية مقالة موقعة من كاتبها على صفحاتها حتى عام 1884.

طالما أن أصحاب الصحف كانوا على استعداد لقبول رشاوي رجال السياسة،

كان بالطبع من الصعوبة بمكان الحديث عن المهنية. ومع ذلك فمنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً انتشرت أحاديث وحجج ضد الصحافة المهنية لأن الجميع قد أدرك أن مالكي الصحف قد وقعوا في شراك أصحاب الإعلانات التجارية. في نفس الوقت واجهت ادعاءات ما يسمى بالموضوعية المبسطة للصحافة الواقعية - وهي ما يعبر عنها منهج جودكن Godkin - تحديداً كبيراً على يد فئة جديدة من الصحفيين الذين يمثلهم بعض لرؤساء التحرير مثل دبليوتي ستيد محرر صحيفة بول ميل جازيت، وهي صحيفة مسائية كانت تصدر في لندجن في تلك الفترة. في مقاله الانفعالي "مستقبل الصحافة" الذي نشره عام 1886، ذكر ستيد أن "الصحافة غير الشخصية imoersonal صحافة واهية ... فالعنصر الشخصي أمر حتمي لتطور الصحيفة". أما أوكونر فكان على يقين أكثر من ستيد إذ يقول: "أفهم أن الرغبة في التفاصيل الشخصية بالنسبة للجمهور من العامة أمر صحي وعقلاني وينبغي أن يسفر عن": أساس حكاية "المصلحة البشرية" التي كانت تبشر دائماً بانتصار وتغلب التجارة على المهنة؛ فلقد اتضح فعلاً أن فكرة الصحافة المهنية قد اختفت عن الأنظار تماماً. ويبدو أن مناصري تلك الفكرة قد ضلوا الطريق وسط البيئة الإعلامية التي لا تلقى بالاً للواقعية. وحيث أن هذا الاتجاه قد ازداد سرعة وانتشاراً، لذا فلابد من إظهار الإجلال "الإله" الموضوعية إذ أنها تعتبر اختبار حقيقياً لقبول أوراق الاعتماد للصحفي.

التقارير الموضوعية - المادة تسمو على الأسلوب

إذاً من الواضح أن مصطلح "الموضوعية" objectivity أصبح جوهرياً لحس الصحفي للمهنية، إذا لم يكن جوهرياً أيضاً للصحافة نفسها كمهنة. لكن من أين أتى هذا الحافز أو الدافع للموضوعية؟ إلام تنتسب؟ لقد كان هناك جدل واسع بين المؤرخين في مجال الصحافة حول وقت بروز بعض الاصطلاحات

مثل الموضوعية والاتزان balance، وحول ما إذا كانت تلك الاصطلاحات لها علاقة بالتنمية المهنية للصحافة. يدو أن الاهتمام المتزايد بالعلم في نهايات القرن التاسع عشر والاتجار (التسليع) المبكر لصحافة "القرش" penny press كانا يعتبران المحفز. لكن ما يبدو مؤكداً هو أن مفاهيم الموضوعية ترتبط بالأفكار الخاصة بالاستقلال. فالباحثة الصحفية باتريشيا دولي قد لاحظت مثلاً كيف سعى بعض الصحفيين لإثبات وجودهم كصحفيين عن رجال السياسة ويستقلون عنهم في زمن الثورة الأمريكية (1775 - 1783). لقد صرحت صحيفة التايمز اللندنية في عام 1854 أن توماس بارنز (المحرر) ضمن استقلالية التايمز بنجاحه في تكوين هيئة عاملين من مراسلي الأنباء من ذوي الخبرة في الداخل والخارج.

رغم ذلك فقد كان مفهوما الموضوعية والاستقلالية السمتين الأساسيتين والمخزون الذي تقوم عليه مؤسسات أخرى تعد جديدة نسبية؛ وهي وكالات الأنباء. كما لاحظت من قبل، كانت القارات الخمس كلها تتصل ببعضها البعض عن طريق الأسلاك مع نهاية القرن التاسع عشر ونشأت وكالات الأنباء جنباً إلى جنب مع مد الكابلات (الأسلاك). أنشأ تشارلز لويس هافاس وكالة هافاس في فرنسا عام 1835. أما وكالة الأسيو شيتد برس - وكالة الأنباء الرئيسية بالولايات المتحدة - فقد أنشئت كمؤسسة غير هادئة للربح في نيويورك عام 1849. والتغيرات في عملية جمع الأخبار والتي أحدثتها تلك الوكالات قيل عنها إنها عملت على تسارع تلك الوكالات نحو الخصائص والسمات الجديدة مثل الموضوعية والبساطة والإيجاز والواقعية. ومن المؤكد أن التلغراف كان ذا دور أساسي في تشكيل أسلوب وكالات الأنباء كما كان يمثل إرهاصاً لإنتاج المفاتيح الخاصة بالكمبيوتر.

أما الأسلوب الحالي في صياغة "الهرم المقلوب" في الكتابة - والذي ينتشر في

كل أنحاء العالم – فقد كان سمة أساسية أخرى تضاف إلى سمات أسلوب وكالات الأنباء، وخاصة أسلوب وكالة الأسيو شيتد برس. فهذا الأسلوب يتطلب تقديم الحقائق – يغلفها ما يطلق عليه الستة أحرف دبليو 6Ws وهي: من who وماذا what وحتى when وأين where ولماذا why وكيف how – في المقدمة للسماح لدور أكبر من العملاء بنسخ تلك الحقائق عن وكالة الأنباء. بعد ذلك، يستطيع العميل وضع "حبكته" أو بصمته على الرواية. بالطبع كان الأمر يتطلب من الصحفيين عدداً من المهارات المختلفة إذا كان هؤلاء الصحفيون يقومون بجمع الروايات من مواقعهم أو يريدون إلى التيقن من مصادرهم. كان لابد من منح الثقة لنسخ عن وكالة الأنباء أولاً وقبل كل شيء. وأحد الأجزاء الهامة من تلك الثقة كانت تتضمنه كتابة التقارير الموضوعية عن الأحداث.

رغم ذلك – حسبما أشارت الأبحاث التي أجراها هارلان ستنساز حول مستويات الموضوعية لدى الصحف الأمريكية اليومية – لم تنتشر الموضوعية بصورة كبيرة فيما بين أعوام 1865 وحتى 1874، وانتشرت ما بين أعوام 1905 إلى 1914 ثم أصبحت معيارية من عام 1925 وحتى عام 1984. علاوة على ذلك فقد وجد من خلال تحليله للمحتوى أن إجراء التحقيقات الموضوعية لم يتأثر كثيراً باستخدام التلغراف أو الخدمات السلكية. لقد أصبحت فكرة الموضوعية شكلاً من أشكال الدفاع الذاتي لهذه الصناعة؛ فقد كانت تمثل إعادة تأكيد وحدة المعايير في وقت كان فيه الفساد العام والصحافة الصفراء قد تورطا في أزمة أخلاقية في الولايات المتحدة على وجه الخصوص.

تطورت الفكرة أكثر من ذلك فيما بين أعوام 1900 وحتى 1915 مع إنشاء أولى المدارس الصحفية، مثل مدارس ميسوري وكولومبيا ونورثويسترن وإنديانا. كانت الآراء المهنية هي السمة المميزة للصحفي الموضوعي، وليست سياسة

المالك ولا أهواء أصحاب الإعلانات. في هذا الصدد، ابتكر والتر ويليامز - أول عميد لكلية ميسوري للصحافة ما يسمى "عقيدة الصحفي" The Journalist's Greed حيث ذكر مثلاً: "إنني أومن بمهنية الصحافة" وأيضاً: "أعتقد أن الصحافة التي تنجح بصورة كبيرة ... هي الصحافة التي تتمتع باستقلالية قوية". على الرغم من وجود قيود من هذا القبيل، ظلت أساليب الكتابة متأثرة كثيراً بالمجالات والسياقات التي كان تتم خلالها ولم تتأثر بالأفكار الغامضة التي كانت تتميز بها المؤسسات الأكاديمية الأولى. فخلال العشرينيات من القرن العشرين على سبيل المثال، عندما كان العالم لا يزال يتعافى من الحرب العالمية الأولى ومن تأثيرات ونتائج الثورة الروسية عام 1917، أصدر كل من والتر ليبمان الصحفي والمعلق السياسي وزميله تشارلز ميرز رئيس تحرير "نيوريبوبلك" ملحقاً من 42 صفحة بالعدد الصادر في الرابع من أغسطس من الصحيفة، كان يسمى هذا الملحق "اختبار للأخبار". فحص هذا الملحق أثر من 1000 طبعة من صحيفة النيويورك تايمز في تغطيتها للثورة الروسية. كان أحد الاكتشافات التي توصل إليها المحللون أن الصحيفة كانت تنقل الأحداث التي لم تحدث على الإطلاق، كما كانت تسيء نقل الأحداث التي كانت تقع بالفعل. وقد توصلوا إلى أن "رسائل شبه صحيفة" كانت ترسل مرتكزة على "ما يريد الناس أن يروه". على سبيل المثال، أكدت صحيفة التايمز للقراء في حوالي 91 حادثة أو مناسبة أن النظام الثوري على شفا الانهيار.

لذا كان يبدو أن علاج مثل هذه الصحافة التي تتسم بالانحياز والتي تقودها الآراء والأهواء هي الاستمرار بحماس أيديولوجي يسير على قدم المساواة مع منهج المدارس الصحفية الوليدة في التحقيقات الصحفية. وهنا ربما تظهر وجهات النظر المعارضة خلال التوازن الضروري باستخدام تصريحات متسقة وأيضاً من خلال تقديم كم معقول من آراء "الخبراء" من كلى الجانبين. في هذه الحالة يستطيع القراء التفكير بصورة منطقية في المسألة المطروحة. يذهب بعض

المتعصبين إلى ما هو أبعد من ذلك حيث يفضلون أسلوب "الهيكل المجرد" **bare-bones** الذي لا يترك مجالاً للتعليق إما باقتباس تصريحات الخبراء أو حتى من قل الصحفيين أنفسهم. لكن الخطورة التي ينطوي عليها هذا الأسلوب هي أنه يمكن أن يؤدي إلى ضيق شقة الخلافات الأيديولوجية لتنحصر في طرفين اثنين فقط، كما أنه رفع من نبرة الآراء المهنية ويهمل الآراء غير المعروفة.

أحد حلول مشكلة أسلوب "الهيكل المجرد" كان الخلط بين الخبر وتفسيره بهدف الشرح والتنوير. ففي رأي عالم الاجتماع الأمريكي مايكل تشودسون كان هناك رواج من الثلاثينيات فصاعداً لمثل هذه الصحافة "التفسيرية" من قبل الصحفيين المهنيين، وكان هذا يعني الحوارات الجادة حول التشريع قد أفسحت الطريق لكتابة التقارير الإخبارية المسلية، كما أصبح الصحفيون فئة تولي الكتابة لبعضها البعض وليس للأحزاب أو لرجال الأحزاب، وبذلك يسعون إلى تمييز عملهم عن أعمال وكلاء الصحافة، كما يزرعون هم أنفسهم عقيدة أو مبدأ تطبيق العلم وإقصاء الأعمال الحزبية. في واقع الأمر، بدأ التحقيق الموضوعي الذي كان يعتبر اتجاهاً في الانحسار منذ الحرب العالمية الثانية. ويرجع ذلك جزئياً إلى تدخل مالكي وسائل الإعلام، كما يرجع جزئياً إلى التعقيدات الشديدة للمجتمع الحديث الذي ينادي بالدولانية **statist**، ويرجع أيضاً إلى إخفاء الطابع الشخصي على أجندات الأخبار، وينكس هذا الانحسار في نشأة التليفزيون كمصدر أساس للأخبار بالنسبة للكثير من الناس. يذكر عالم الاجتماع جاي تتشمان أن الدعوة للتحقيقات الصحفية الموضوعية كانت مجرد مناورات تكتيكية يلجأ إليها الصحفيون لحماية أنفسهم من النقد. فقد كانوا يزعمون أن مهمة شرح أخطاء المتحدث ليست من شأن المحقق الصحفي، بل كانت تناط برئيس التحرير أو بالمحررين أنفسهم.

الصحفي كرجل حزبي

إذا كانت فكرة الموضوعية تنطوي على خطورة، إذاً فما هي الاحتمالات الأخرى؟ ثم حجج كثيرة ذكرت في هذا المجال من قبل دليو تي ستيد مثلاً يدعم بها صحافة أكثر "شخصنة" لكن خصوم ستيد دائماً ما يزعمون أن مصطلح "شخص" يعتبر ببساطة شديدة مرادفاً للصحافة الحزبية، كما أن ثمة حجة للموضوعية تؤكد أن الموضوعية في حد ذاتها بعيدة عن الحزبية. لكن الفرق بين ما هو حزبي وما هو غير حزبي تعد أمراً من البساطة؛ فعلى سبيل المثال، حاول كل من جيمس جوردون بينيت في صحيفته نيويورك هيرالد في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر وهوراس جريلي في صحيفته نيويورك تيبيون في الأربعينيات من نفس القرن استخدام أسلوب أقل في سماته الحزبية نحو شئون العامة من الجماهير لإجراء اختبار بتقديم سياق الأخبار دون الالتزام بخط سياسي محدد، لكن بالرغم من كل ذلك، لم تكن تلك المحاولات تتصف بالحيادية.

دائماً ما يتحدث المؤرخون عن الصحافة الحزبية كما لو كانت مرادفة للصحافة السياسية. ومع ذلك فإن العديد من الصحف كانت تساند الأحزاب لأسباب أخرى غير الأسباب السياسية. فالمؤسسات الدينية والمعتدلة في شرب الخمر مثلاً كانت ذات شهرة واسعة على جانبي الأطلنطي أثناء القرن التاسع عشر. ففي بريطانيا أوصت لجنة الصفوة للسكر **The Select Committee on Drunkenness** بإلغاء الضرائب المفروضة على الصحف على أساس أن العامل سيضطر إلى الإحجام عن اللجوء إلى المحلات العامة لقراء الصحف إذا لم يتم إلغاء الضرائب. وبطبيعة الحال تهرول الصحافة وراء مثل تلك الدعوات. دائماً ما كان يقال إن إغراءات السياسة كانت لا تزال تتمتع بالقدر الكافي من القوة حتى تستطيع أن تجذب عدداً هائلاً من رؤساء التحرير نحو

الأنشطة السياسية.

في الولايات المتحدة، وفي عهد جاكسون بالذات كانت الصحافة الحزبية في الذروة حيث كانت تهيمن على فترة الحرب، وتمخضت عن الحرب الأهلية الأمريكية. كان من بين المشاهير من رجال الصحافة أموس كيندول **Amos Kendall** رئيس تحرير صحيفة آرجوس أوف ويست أمريكا والذي كان يعمل أيضاً مديراً عاماً للبريد بالولايات المتحدة (1835 – 1840) أثناء حكم الرئيس جاكسون وفان بيرين. وفي نهاية القرن التاسع عشر كان هناك حوالي 325 صحيفة تصدر باللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية بالإضافة إلى الدوريات التي كان يصدرها ممولون من الحزب الاشتراكي ليوجين ديبس.

ملف حقائق

الدعوة إلى التعقل

في عام 1895 أسس يوليوس وايلاند **Julius Wayland** (1854 – 1912) صحيفة الدعوة إلى التعقل **Apeeal to Reason** كصحيفة اشتراكية. كان وايلاند قد تدرب من قبل أن يعمل طباعاً وموضباً بصحيفة "فرساي جازيت" في موطنه الأصلي فرساي، بالهند، وقبل عام 1874 كان قد ادخر أموالاً كافية فاشترى الصحيفة. دفعه نجاحه في صحيفته وتحوله إلى الاشتراكية إلى أن يصدر في عام 1893 صحيفته الراديكالية "الأمة القادمة" **The Coming Nation** في ببلو بولاية كولورادو. وبسرعة فائقة حققت الصحيفة مبيعات لحوالي 60 ألف نسخة وأصبحت الصحيفة الاشتراكية الأكثر شهرة في أمريكا. أما صحيفة الدعوة إلى العقل فكانت على وشك الانتهاء حتى مع النجاح الذي حققته من خلال نشر مزيج من المقالات والمقتطفات المأخوذة عن المؤلفات

الراديكالية التي كتبها المشاهير من أمثال فريدرك إنجلز، وكارل ماركس، وويليام مورس، وتوم باين، وجون روسكين.

في عام **1900**، عين وايلاند الشخصية السياسية الشهيرة في جناح اليسار فريدرك وارن محرراً مشاركاً. نجح وارن في استمالة العديد من الكتاب التقدميين البارزين - مثل جاك لندن، وستيفن كرين، ويوجين ديبس" وأوبتون ينكلير - للمساهمة في الجريدة. وقام وارن في عام **1904** كلف وارن الكاتب الشهير أوبتون ينكلير بكتابة رواية عن العمال المهاجرين الذين يعملون في محلات تعبئة اللحوم بشيكاغو. وأعطى وايلاند **500** دولار لسينكلير كقسط أول، وبعد سبعة شهور من البحث كتب سينكلير رواية "الغابة" **The Jungle**. ونشرت في الجريدة كحلقات مسلسلة، فساعدت على زيادة توزيع الصحيفة إلى أن وصل إلى ما يزيد على **175** ألف نسخة.

كلما ازداد نجاح الصحيفة، كلما ازداد الهجوم على المحررين المشاركين. ثم تحطيم مكاتب الصحيفة مراراً وتكراراً في محاولة للعثور على أدلة على أي نشاط إجرامي. وفي عام **1912** نشرت صحيفة لوس أنجيلوس تايمز تقريراً يذكر أن وايلاند متهم بالتغرير بفتاة يتيمة تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً وتوفيت أثناء إجراء عملية إجهاض لها بولاية ميسوري. على إثر إصابة واين بالاكتئاب بسبب وفاة زوجته وحملات التشهير المستمرة ضده انتحر في العاشر من نوفمبر عام **1912**. وكتب في ملاحظة له عن انتحاره: "لا يستحق الكفاح في ظل هذا النظام التنافسي بذل أي جهد". وبعد موت وايلاند انهالت الخسائر على أطفاله بشدة وخاصة بعد أن قاموا بمقاضاة الصحف واتهامها بنشر روايات تشهر بسمعة والدهم.

في الفترة من عام **1868** وحتى الحرب العالمية الأولى كان هناك ثلثا الصحافة

المحلية لا يزالان يضمان الصحف التي تحتفظ بالولاءات السياسية سواءً علناً أو ضمناً. وفي قارة أوروبا بالكامل أيضاً حيث كانت الصحف غالباً ما يمتلكها الروائيون ومشاهير الأدباء فقد بقيت الصحافة السياسية صامدة حتى خلال القرن العشرين. وعلى الرغم من أن اقتصاديات إصدار الصحف كانت لصالح الشركات التجارية الكبرى، فمن الخطأ أن نفترض أن المصالح التجارية تجاهلت السياسة تماماً. كانت صحيفة النيويورك تايمز - التي يمتلكها ويليام هيرست - دائماً ما تنشر أولويات وخيارات سياسية، كما تعطي الأولوية الكبرى للانتخابات البلدية. وكان روبرت ماكروميك رئيس تحرير جريدة شيكاغو تريبيون - وعضو جناح اليمين الشهير يكره الرئيس روزفلت إلى درجة أنه في عام 1936 وأثناء حملات الانتخابات الرئاسية، أعطى تعليمات لعامل غرفة التحكم بالاتصالات بالرد على أية مكالمة تليفونية قائلاً "صاح الخير، يشكاغو تريبيون، لم يبق سوى 43 يوماً (أو أقل) فقط لإنقاذ طريقة الحياة الأمريكية". ظهر هذا الأسلوب أيضاً في أحد العناوين الرئيسية بجريدة الصن Son في بريطانيا أثناء الإعداد للانتخابات العامة عام 1992 والتي رأت هزيمة حزب العمال ورئيسه نيل كينوك. ففي صباح يوم الانتخابات (9 أبريل) نشرت الصحيفة الأولى "إذا فاز كينوك اليوم فعلى الفرد الأخير الذي يرحل عن بريطانيا أن يطفئ الأنوار".

لقد انعكست الهيمنة التي لا ترحم للشركات التجارية الكبرى والتسليع خلال القرن العشرين على أجهزة الإعلام. وكانت عمليات الاندماج والاستحواذ نتاجاً واضحاً لقوى اقتصادية أكبر من أية توجيهات خاصة بالصحافة ذاتها. فقد اتجهت الميول السياسية الآن إلى أن تعكس الاهتمامات والمصالح التجارية لمالكي أجهزة الإعلام، لا إلى أن تعكس الموقف الأيديولوجي لهم كما كان يحدث في الماضي. لذا فإن شخصية **personality** المالك قد حلت محلها موضوعية **impersonality** مجالس إدارات التكتلات والمساهمين بها. لقد

شـهدت الولايـات المتحـدة مـوجتين مـؤثرتين مـن انـدماج الـصحف: حـوالي عـام 1900 وأثنـاء العشرينيات من القرن العشرين. عـلى سـبيل المثـال، أنـشأ ويليـام هيرسـت إمبراطوريـة صـحيفة هيمنت على الولايات المتحدة من الشرق إلى الغـرب فـيما بـين أعـوام 1887 و1934. وفي ذورتهـا تشمل حوالي 40 صحيفة بما فيها الصن فرانسيسكو إجزامنير، والنيويورك ميرور وغيرها. وقـد أدى إنطلاقه نحو سوق المجلات بأسماء كبيرة مثل كوزمو بوليتان وجـود هـاوس كيـنج إلى نـشأة أكـبر تجارة صحف ومجلات في العالم.

في بريطانيا، قبيل عام 1919، كان اللورد نورثكليف يمتلك سلسلة مكونة مـن 31 صـحيفة تـشمل التايمز والصنداي تايمز والديلي ميل والديلي ميرور والأوبزيرفر بالإضافة إلى ست مجلات وشركـات سلكية. في الولايات المتحدة انكشف النقـاب عـن التناقـضات الـصحفية التـي عززتهـا مثـل تلـك الاحتكارات وذلك من خلال عمل صحفيي التشهير (البحث عن الفضائح) أمثال إيدا تاربل Ida tarbell التي كتبت تقارير فاضحة مكونة من 12 جزءاً عن شركة أويل ستاندارد للبترول لصحيفة ماكلور. كان صحفيو التشهير يسعون دائماً إلى الكشف عن الفساد في كل من الحكومة والـشركات التجارية، كما كانوا يعتبرون جزءاً من حركة "التقدميين" في أمريكـا عنـد نهايـة القـرن العـشرين. كانوا يؤيدون الإصـلاح الاقتـصادي والليبراليـة الاجتماعيـة، وكـانوا دائمـاً يمثلـون "الاتجـاه الحـزبي الشعبي"، وهذا ما منحهم القوة والنفوذ.

رغم ذلك، فقبل بداية الحرب العالمية الأولى أصبحت صحف الولايات المتحدة التـي كانـت تنـشر مقالات لكبار صحفيي التشهير في يد رؤساء تحريـر محـافظين كجـزء مـن مـشروعات المؤسـسات والشركات الكبرى. وأصبحت الحركات الراديكالية تعاني من عدم تعاطف الصحافة الرسمية معهـا، أو عدم التغطية الصحفية والعادلة لها. كما كانت الحمـلات الـسلبية لمواجهـة إرهاصـات التقـدم

وأسبابه تعني أن الحصول على دعم ومساندة الجماهير مهم صعبة للغاية. رغم أنه في تلك الفترة كان أوبتون سينكلير كاتباً مشهوراً إلا أنه شهد لأول مرة تجربة التمييز وسوء الفهم والتفسير خلال الصحافة السائدة. بعد نجاح رواية "الغابة" The Jungle التي يرأس تحريرها ويمتلكها سينكلير في "الدعوة إلى العقل"، نش في كتاب في عام 1906. كانت الرواية تجسد إمكانية تشريع الصحافة التشهيرية إذ أنها صورت الأحوال الرهيبة في حظائر شيكاغو ومحنة العمال الفقراء في تلك الحظائر. وقد نتج عن ذلك بعض التحقيقات التي أسفرت بدورها عن إصدار قانون "الغذاء والدواء النقي" وقانون "تفتيش اللحوم".

رغم ذلك، فمن وجهة النظر الصحفية البحتة، أتاح كتاب سينكلير المسمى "فحص النحاس" Bress Check عام 1919 فقداً لاذعاً لقيود السيطرة التجارية على الصحافة والصعوبات التي تواجه الديمقراطية. ويشير عنوان الكتاب العاهرات اللاتي يستخدمن القائمون على بيوت الدعارة على أساس أن هذه المباغي تمثل مؤسسات تخدم الأغنياء وتهدر حقوق الفقراء. وفي هذا الكتاب عرض سينكلير تجاربة الشخصية ليصف من خلالها التغيرات الاجتماعية والثقافية التي أثرت في أسلوب المعيشة وفي المؤسسات التجارية وفي السياسة القومية والدولية عام 1919. كما بين الآثار الضارة لصناعة الإعلانات - من وجهة نره - على أجندات الأخبار والقيم الخاصة بها. وهذا الكتاب يجسد إيمانه الكامل بأن السياسة والصحافة والشركات التجارية الكبرى تعمل جميعها سوياً لخداع الجماهير وسلب العمل والعمال.

واجه كتاب "فحص النحاس" هجمات عدائية قوية بما فيها التهديدات برفع دعاوي التشهير. وقد رفضت الصحف كتابة أية مراجعات أو مقالات حول الكتاب، ولم تقبل صحيفة النيويورك تايمز حتى الإعلانات مدفوعة الأجر عنه. الأمر الذي يدعو إلى الغرابة هو أن الحالات التي كان يريد سينكلير عرضها

وانتقادها ثم علاجها – وخاصة مشكلة ظلم التعددية في أجهزة الإعلام الإخبارية واللامساواة في هيكلة صناعة الصحافة والنتائج الاجتماعية السلبية وتصميم الأجندات التي ترعى مصالح الطبقة البلوتوقراطية[1] **plutocractic** – كانت العوامل الأساسي التي أدت إلى الاختفاء الظاهري لكتاب "فحص النحاس" قبل منتصف القرن. ولكن أمل سينكلير في أن ينتشر الكتاب بين الأجيال القادمة على الأقل قد تحقق فعلاً. فقد تم إصدار طبعة جديدة منه في عام 2003 وهي متيسرة مجاناً على شبكة الإنترنت.

الحلقة التي لم يستطع الكتاب الكبار مثل سينكلير وإيدا تاربل والكتاب التشهيريين الكبار السيطرة عليها كانت تقع ما بين الدخل والتكليف. فقد أدرك مالكو الصحف أن بقاءهم يعتمد على عوائد الإعلانات أكثر من عوائد التغطية. وهذه العوائد مرتبطة بالأسعار التي يحددها كبار المعلنين والتي إما أنها ترتبط بإذعان رؤساء التحرير المعلنين أو على الأقل بناءً على طلباتهم.

[1] الطبقة الغنية (المترجم)

الفصل السابع

ذلك الذي يدفع للزمار

استغل اللورد بيفربـروك Beaverbrook صحيفة الـديلي إكسبرس كوسيلة للدعايـة لطموحاتـه السياسية الكبيرة. ورغم أنه أخفق في ذلك إلا أنه استطاع أن يـساعد عـلى تـدمير الحيـاة المهنيـة لرئيس الوزراء في ذلك الوقت ستانلي بالدوين. ففي مقالته الافتتاحية المنشورة في 16 مارس عـام 1931 ذكربيفر بروك:"تسعا صحيفتها الـديلي إكـسترس والـديلي ميـل إلى إقنـاع الـسيد بالـدوين للتقاعد وليفسح الطريق لخليفة". جاء رد بالـدوين في اليـوم التـالي في خطبـة شـهيرة ألقاهـا في كوينز هول بالعاصمة لندن. اعتقد بالدوين أن روديارد كبلنج المستشار السابق لليفر بـروك أنـه الذي كتب هذه الخطبة، ولذلك فقد ذكر أن صحف بيفربروك وروثرمير كانت:

> أدوات للدعايـة للـسياسات والرغبـات والأهـواء الشخـصية المتغـيرة باستمرار، كما أنها وسيلة للدعاية لما يرغب فيـه ومـا لا يرغـب فيـه كـلا الرجلين. ما هي أساليبهم؟ أساليبهم هي التزييف المباشر وسـوء العـرض وأنصاف الحقائق والتلاعـب بالمعـاني التـي يرمـي إليهـا المتحـدث وذلـك بتجزئه الجمل والعبارات وإخراجهـا عـن سـياقاتها... إن مـا يهـدف إليـه امتلاك تلك الصحف هو السلطة؛ لكن الـسلطة بـدون تحمـل المـسئولية إنما هي حق العاهرات على مر العصور.

لم ينـدهش أحـد مـن الحقيقـة التـي ذكرهـا بالـدوين في خطبتـه تلـك إذ أن

بيفربروك عندما اشترى صحيفة الديلي إكسبرس في عام 1961 قال:" كان هدفي أساساً هو أن أقوم بتأسيس صحيفة دعائية، ولم أتنازل قط عن هذه الهدف، ولم أنفصل عنه طوال هذه السنوات ولكن لكي أجعل الدعاية دعاية مؤثرة فعالة، فلابد أن تكون صحيفتي صحيفة ناجحة وليس ثمة صحيفة مميزة وناجحة في العملية الدعائية إلا إذا تمتعت بموقف مالي جيد". في القرن العشرين وفي عصر بارونات الصحافة كان مثل هذا الوضع المالي الجيد بتحقيق من خلال التوزيع الكبير أو م خلال الإعلانات التي تعتبر أكثر أهمية بكثير من ناحية العوائد والأرباح. ومع ذلك فإن العلاقة بين الإعلانات والسياسة وفكرة أن الصحافة هي السلطة الرابعة (بمعنى أن لها دوراً في المجتمع الديمقراطية) إنما هي علاقة معتقدة ومثيرة للجدل إلى حد كبير.

الإعلانات والسياسة والديمقراطية

في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين كانت ثلاثة أرباع دخل الصحف القومية اليومية في بريطانيا تأتي من الإعلانات، ولآن المعلمين كانوا يزيدون من إتاحة المزيد من العوائد للصحف، فقد كانت لهم القدرة على إحكام شيء من السيطرة على المحتوى الصحفي. في رأي العديد من المؤرخين الإعلاميين كان الصحفيون يتخلون عن أحد دافعي الإعلانات من أجل آخر. فبارونات الصحافة في تلك الفترة اتوقراطيين تماماً مثل الحكام فكانوا على استعداد لأن تتأقلم أفكارهم وآراؤهم مع الموضوعات الجديدة ثم ينشرنها على صفحات جرائدهم على ألأقل لئلا ينالوا سخط أصحاب الإعلانات. كانت الولايات المتحدة تمر بمثل تلك المواقف أيضاً. فقد ازدادت عوائد إعلانات الصحف إلى ثلاثة أضعاف في الفترة عام 1915 وحتى عام 1929، فزادت من 275 مليون دولار إلى 700 مليون في حين ازداد عدد السكان بنسبة الثلث فقط من 92 مليون إلى 122مليون نسخه تلك الزيادات في عوائد الإعلانات أدت إلى تنمية قدرة الصحف

على تحديد القراء الأكثر ثراء والتعامل معهم. ففي واقع الأمر كانت الصحف تبحث عن " المستهلكين الأثرياء الذين تتراوح أعمارهم بين 18الى 49عاماً ... من العائلات ذوي الدخول فوق المتوسطة". في حين أنه لا يعد من الخطأ أن تعتمد الصحيفة في توديعها على فئات تخضع للعمر أو الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية إلا أن ردود أفعالها نحو تلك المعلومات قد تصنع ذات أهمية إذا ما طرح

السؤال التالي : كيف يمكن لأجهزة الإعلام الجماهيرية الوصول إلى هؤلاء الناس؟

يذكر الناقد الصحفي بي باديكيان:" إن العلاج الناجح لمشكلة التركيبة السكانية السيئة أمر في غاية البساطة: غيروا محتوى الصحف، أو املأوا كل الطبعات أو البرامج بالمواد إلى تجذب الزبائن الذين تسعى إليهم شركات الإعلانات".

ملف حقائق

الإعلانات والطبقات وصحيفة الديلي هيرالد

عانى تعدد التقارير السياسية في المملكة المتحدة خلال القرن العشرين خاصة مع توقف صحيفتي الديلي كرونيكل والديلي نيوز اللتين اندمجتا تحت مسمى الديلي كرونيكل في عام 1930. هذه الصحيفة أصبحت الأكثر ليبرالية في فليت ستريت، وكان بيعها في نهاية الأمر في عام 1960 للورد الثاني روثرمير- رغم التوزيع اليومي لها الذي كان يصل إلى 1116000 نسخة – عبارة عن ضربة قاسية لسياسة جناح اليمين. لكن روثرمير استوعب تلك الضربة في صحيفة الديلي ميل.

في عام 1964 توقفت أيضاً صحيفة الديلي هيرالد. كان اتحاد

نقابات العمل يتملك فوائد بنسبة 49% من فوائد الصحفية التي كانت تدعم حزب العمال بقوة أثناء صعود المحافظين لفترة طويلة في فترة الخمسينيات. هي "على فراش الموت" كان لا يزال توزعها يصل إلى مليون و 165000 نسخة. وكان هذا يعادل خمسة أضعاف توزيع صحيفة التايمز، واليوم تجحظ عيون رؤساء تحرر العديد من الصحف في فليت ستريت إزاء هذا الرقم. رقم ذلك كان قراءها من نوع الذي لا يحفز عوائد الإعلانات، ورغم أن نصيبها من التوزيع القومي كان حوالي 8% فقد كان نصيبها من عوائد الإعلانات القومية لا يتجاوز 3.5%

كان من الواضح أنه في حين كانت الطبقات المتوسطة تنفق أموالاً تكفي لاتخاذ الصحف العديد من المواقف السياسية المختلفة إلا أن سوق الطبقة العاملة لم يستطيع أن يجعل الصحيفة تعول على التوزيع فقط. في الفترة مابين أعوام 1960و 1972 شهد فليت ستريت اختفاء كل من أخبار الإمبراطورية، والديلي سكتش، والصنداي جرافيك، والصنداي ديسباتش. كانت كلها صحفياً تتمتع بقراء من الطبقة العاملة وبنسب توزيع بسيطة. لذلك فقد وقعت تلك الصحف بلين فكي رحى؛ فلم يكن لديها كم القراء ولا قراء متميزون من الناحية الاجتماعية بحيث يمكنها جذب الإعلانات التي تكفيها للبقاء وسط نظام اقتصادي غير منتظم.

في بريطانيا كان هناك مثال صارخ لإساءة استخدام السلطة يتمثل في محاولة أباطرة أجهزة الإعلام لاستغلال مؤسساتهم كوسائل بديلة عن الأحزاب السياسية أو الأحزاب المصغرة الخاصة بهم. وهذا المثال ينطبق على كل من اللورد بيفربروك واللورد روثرمير الأخ الأصغر للورد نورثكليف فقد قاما بتحويل

صحفهم إلى أدوات للحملات الدعائية ضد قيادات حزب المحافظين في مسألة "التجارة الحرة للإمبراطورية". فقد قاما بالترشح للانتخابات (بأسلوب فاشل)، بيفربروك عن " حملات الإمبراطورية الصليبية" وروثرمير عن "حزب الإمبراطورية المتحدة" الخاص به. كتب بيفربروك عن سلطة الصحافة قائلاً بأن تلك السلطة"عندما يتم استغلالها بمهارة في اللحظة النفسية المناسبة لا يمكن لأي سياسي أن يقاومها". أما روثرمير فيؤكد على قوة المالك؛" ينبغي على كل صحفي أن يعبر آراء ووجهات نظر المالك قل هذا التعبير أم كثر. فنورثكليف وأنا وأنت (يقصد بيقربروك) نعبر عن آرائنا عن طريق أي فرد بلا حدود". وبحلول عام 1936 كانت الديلي إكسبرس تبيع أكثر من 2.25 مليون نسخة يومياً؛ وهو ما يعد أكبر توزيع على مستوى العالم لأنه – كما قال بيفربروك بعد ذلك – أثناء استخدام إحدى وسائل الدعاية، تعتبر الوسيلة أكثر أهمية من الدعاية ذاتها.

بالنسبة لجوزيف بوليتسر ومنافسه اللرود ويليام هيرست يعتبر السعي لتحقيق الأهداف السياسية وسيلة بسيط وهو يتم عن طريق التواصل مع القراء الذين يشتركون في نفس الأفكار، كما يعلنون في الصحف التي يمتلكانها. فالصحفيون العاملون لدى هيرست مثلاً كانوا يتسلمون قائمتي تضمان أسماء الشخصيات العامة؛ قائمة لتنال التأييد الأخرى لتنال السخط والشجب. علاوة على ذلك، اتهم كل من بوليتسر وهيرست بالتورط في جر أمريكا نحو الحرب الأسبانية الأمريكية (898) في ذلك الوقت التعليق الذي قيل إنه قد أبرقه لصديقة الفنان فريدريك ريمنجتون الذي كان ذائع الصيت في كوبا آنذاك وقبل بداية اشتغال العداء. أبرق هيرست:" من فضلك ابق كما أنت. انته من الصور ريثما انتهي من الحرب". من الواضح تماما للعديد من بارونات الصحافة على جانبي الأطلنطي أن التوزيع والربح يأتيان في المقدمة.

ملف حقائق

إلى الأمام يا إيطاليا

أعيد إحياء ظاهرة المؤسسات الإعلامية كبديل للأحزاب السياسية - كما يمثلها بيفربروك وروثرمير في بريطانيا خلال الثلاثينيات من القرن العشرين - في إيطاليا على يد سيلفيو برلسكوني وحركته الشهيرة إلى الأمام يا إيطاليا **Forza Italia** التي تركت أثراً كبيراً على الانتخابات العامة في عام **1994**. بعد برسكوني رجل أعمال شهيراً وناجحاً يمتلك ثلاث محطات تليفزيونية ومجموعة أخرى من المشروعات التجارية. وحركة "إلى الأمام يا إيطاليا" كانت حزب يمين الوسط وكانت تهدف إلى جذب الناخبين اللبراليين المعتدلين الذين لم يتم توجههم سياسياً حسب قول برلسكوني.

استغل برلسكوني قنواته التليفزيونية للترويج لأفكار الحزب ولنفسه وفازت حركة إلى الأمام بالانتخابات العامة عام **2001** لتبقى في الحكم لمدة خمس سنوات. وقرب نهاية عام **2008** تم حل الحزب رسمياً ثم أعيدت تسميته" شعب الحرية". من الواضح أن امتلاك أجهزة الإعلام يؤدى الى الفساد في العملية السياسية. لقد لا حظ العديد من المعلقين أن الإيطالي هو الذي ينبغي أن يتهم بالفساد وليس الأجنبي. يسلط الصحفي ورائد التكنولوجيا الأمريكي آلان موتار الضوء على الآثار السلبية المحتملة للامتلاك غير المسئول لأجهزة الإعلام في تأملاته التي نشرها في مدونته نيوزوسور:

مع ازدياد عدد الصحف في السوق دفعة واحدة فلابد أنها تصدر بأقل

الأسعار،

ولذا فسيشتري بعض الناس البعض منها. لكن لا تعول كثيراً على المشتبه بهم. بدلاً من ذلك فكر جيداً في المشترين المحتملين (غير التقليديين) وكأنهم صناديق تمويل متعددة الملايين أنشأتها دول مثل سنغافورة أو مشايخ دولة الإمارات العربية المتحدة.

حسب رأي موتار، يمكن لامتلاك مجموعة من دور النشر الصحفية الكبرى داخل الولايات المتحدة أن تمنح دولاً مثل دولة الإمارات العربية المتحدة عائداً إضافياً يمثل رصيداً قوياً تؤكد من خلاله نفوذها السياسي والتجاري.

رغم ذلك فإن "استقلال" الصحف لم يكن ليتحقق دون تكلفة. فبما أن الإعلانات قد أصبحت المصدر المهيمن للدخل، فإن اقتصاديات الصحف التي تدعمها الإعلانات أنشأت حاجزاً أمام الصحف الصغرى، ما جعل دخول تلك الصحف إلى هذا المجال يكاد يكون مستحيلاً كما جعل فرصة الصحف التي تصدر في أسواق الطبعة العاملة للبقاء أمراً في غاية الصعوبة. ومع ذلك ففي سنوات الحرب بالولايات المتحدة كان هناك حوالي100 من رؤساء التحرير الذين تدعمهم القوى العاملة، حتى في صحف المحافظين. وهذا كان ينعكس مثلاً في التغطية الواسعة للإضراب بالاعتصام في "فلنت" الذي استمر من عام 1936 إلى عام 1937. لقد أصبح هذا الإضراب رواية قومية هامة حيث نجح مصانع السيارات الخاصة بشركة "جنرال موتورز" في مصنع فلنت بولاية ميتشجان في الحصول على اعتراف الاتحاد ما أدى إلى توحيد صناعة السيارات وإنشاء اتحاد العاملين بمصانع السيارات. لم تعد اليوم هناك تغطية للعمال، بل هناك توجه نحو السياسيين والعملية الديمقراطية.

الكفاح من أجل قضية نبيلة

كان مفهوم الصحافة المهنية أيضاً مرتبطاً بالفكرة المخادعة التي تتلخص في أن " الأسواق الحرة " ترادف الديمقراطية بطريقة ما. ومع ذلك يمكن القول بأن نفس العوامل التجارية التي تسعى إليها صناعة الصحافة قد أعاقت فعلاً استخدام الوسيلة الإعلامية لتحقيق المزيد من الديمقراطية. في واقع الأمر يعتبر مسعى تحقيق نموذج السوق الحرة – في العديد من النواحي – مثالاً مريعاً لما يطلق عليه " الحد القاطع"، والآن تكافح الصحافة من أجل قضية نبيلة وهي بقاؤها. كما أن المؤسسات الإخبارية في جميع أنحاء العالم تسعى إلى استبعاد العديد من المحررين العاملين في عدة صحف، كما أن العديد من الصحف داخل الولايات المتحدة الأمريكية تدنو كثيراً من إشهار إفلاسها. كيف ترى الصحافة نفسها وهي هذا الوضع؟ لابد أن هناك ثلاثة عوامل هامة تكمن داخل العمل: التكتل الصناعي وشدة التركيز، وتطور وسائل البث الإذاعي والإعلامي، والتقدم الحثيث والمتواصل في مجال الكمبيوتر والتكنولوجيا الرقمية.

كان القرن العشرين هو قرن الشركات الإعلامية المدمجة والاحتكارية. ورغم ذلك فقد ازداد التوزيع الإجمالي للصحف في بريطانيا من واحد يشتري الصحف من بين أحد عشر فرداً عام **1910** إلى فرد واحد من بين ستة أفراد في عام **2009**. أما إجمالي المبيعات الخاصة بالصحف اليوم وصحف الآحاد فقد تضاعف خلال نفس الفترة في حين ازداد عدد السكان حوالي **50%** فقط. وهذا يشير إلى أن الإعلام صناعة نابضة بالحياة. لكنك هذه الأرقام تخفي وراءها عاملين اثنين؛

أولهما: أن أعلي نسبة توزيع للصحف كانت في الواقع في عام 1955 عندما زادت نسبة التوزيع والمبيعات اليومية على 16 مليون بالمقارنة مع نسبة مبيعات تعادل 10 ملايين في عام 2009.

ثانياً: تخبرنا نماذج الملكية بقصة مختلفة تماماً. ففي بريطانيا عام 1910 كان هناك ثلاثة مالكين يسيطرون على 67% من صحافة الصباح اليومية، وأربعة لكن يسيطرون على 81% من صحافة الأحد. ومع ذلك، فمن بين هؤلاء الملاك كان هناك مالك واحد فقط - وهو نورثكليف - يظهر على القائمتين الاثنتين. وهل عام 2009 سيطرت أربعة تكتلات على كل من 85% من الصحف اليومية و89% من صحف الآحاد.

في الولايات المتحدة يروى لنا توزيع الصحف نفس الرواية؛ فقد ازداد التوزيع بنسبة 56% أثناء النصف الأول من القرن ثم انخفض إلى 44% في النصف الثاني منه. واليوم يبلغ مجموع مبيعات المائة صحيفة الكبرى حوالي 37 مليون دولار بما يعادل مشترياً واحد من بين ثمانية أفراد. وعلى كلي الجانبين من الأطلنطي كانت فترة الخمسينيات من القرن العشرين تشهد أعلى نسبة مبيعات ففي ألمانيا مثلاً انخفض عدد الصحف إلى 122 صحيفة عام 1976 وهي نسبة أقل من نصف ما كانت عليه بعد فترة الحرب. وبالطبع تزامنت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية مع بدايات البث التليفزيوني الشعبي الذي كان يشتمل أيضاً على النشرات الإخبارية. وفي الولايات المتحدة أصبح العديد من الصحف جزءاً من التكتلات الإعلامية التي كانت تمتلك أيضاً المحطات التليفزيونية والمجلات والكثير من المواقع على شبكة الإنترنت. وفي بريطانيا كانت نفس الشركات المدمجة أقل تميزاً نوعاً ما أساساً بسبب الموضع الشاذ الذي كانت تتمتع به هيئة الإذاعة البريطانية BBC التي تعتبر في حد ذاتها كتلة إعلامية رغم أنها شركة يتم تمويلها شعبياً. من ناحية أخرى تتمتع مؤسسة نيوز إنترناشيونال التي يملكها

روبرت موردوخ بمكانة مهنية في الإنتاج الصحف حيث تتحكم في 38% من الصحف اليومية وصحف الأحد بالإضافة إلى امتلاكه لتلفزيون "سكاي" SKY الذي يشترك لاستقبال بثه حوالي عشرة ملايين مشترك

تتجه أية وسيلة جديدة لنشر المعلومات والتسلية نحو قلقلة نظم الإعلام الموجودة. فقد كانت الإذاعة (من العشرينيات في القرن العشرين) أول وسيلة تكنولوجية جديدة شكلت خطرً حقيقياً على الصحافة. فلم تستطع مسايرة النماذج السائدة التي تميز الإعمال الروتينية للصحف والقيم الإخبارية والأجندات الإخبارية. وبالطبع شكلت تحديداً – منذ البداية – للعلاقة التاريخية بين الخدمات السلكية والصحف، ولكن على الفور بدأت الوسيلة الجديدة في استعراض عضلاتها. وكانت المناوشات الصحفية الإذاعية أولي الوسائل التي تميزت المشهد الإعلامي في القرن العشرين. لذلك كان ينظر إلى الإذاعة على أنها تشكل خطورة في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا. ففي الولايات المتحدة أصبحت ملكية وسائل الإعلام العابرة Cross-media منتشرة بصورة كبيرة لآن مساحة الدولة الشاسعة كانت تعمل على عزل الأقاليم داخلها بعضها عن البعض الآخر، وكان هذا أحد عوامل ضعف المنافسة. ورغم تلك القيود ففي عام 1939 رفعت وكالة أسيوششيتد برس حظرها عن إتاحة ما يسمى موجز الأنباء للمحطات الإذاعية.

في بريطانيا لم ترض الصحافة بملكية وسائل الإعلام العابرة. ففي عام 1922 كان هناك حوالي 100 طلب مقدم لإنشاء محطات للبث. لكن عدم توفر موجات الأثير كان يعني ضرورة توفر نوع من السيطرة، وهذه السيطرة - باستثناء السيطرة الحكومية - حدثت من خلال إقناع أصحاب الصناعات الذين يتنافسون مع بعضهم البعض على الاستثمار المشترك في محطة واحدة صغرى للبث الإذاعي. وهي هيئة الإذاعة البريطانية BBC.حصلت إذاعة بي بي

سي على قانون ملكي في عام 1927 لتتحول من شركة إلى مؤسسة يتم تمويلها مـن القطـاع العـام. وكان هدفها دائماً أن تكون محطة بث إذاعي قوميـة، وبـذلك كانـت تنـافس الـصحافة القوميـة. يذكر اللورد ريث **Reith** أول مدير عام للإذاعة البريطانية **BBC** أن من طبيعة تلك الوسيلة أن تكون متيسرة ومتاحة للجميع لأنها تسير عكس قانون الطبيعة؛ أي أنك إذا أخذت كل شيء فلـن يبقى لغيرك شيء.

بالطبع مثل تلك التصريحات كان لابد أن تثير مخاوف العـاملين بالـصحافة إذ كانـت قنـاعتهم أن الأخبار لابد أن تبقى الأولوية الأولى التي يتميزون بها. في أمريكا انقـسم المعارضـون بـين فئتـين؛ فئة تحتضن الوسيلة الجديدة،والفئة الأخرى ترى فيها لعبة للتجارب فقط. رغـم تلـك التوجهـات المتباينة، كانت هناك محاولات من كلى الجانبين من الأطلنطي لتفويض الميزة الـصحفية المتأصـلة في الإذاعة وهي السرعة الآنية أو الفورية بالسعي إلى منع المذيعين مـن إذاعـة الأخبـار العاجلـة. ورغـم وجـود مثـل تلـك الحـالات الغريبـة بالإضـافة الى الطـرق المختلفـة التـي نـشأت خلالهـا الإذاعة بهدف الخدمة العامة في بريطانيا وتوجه قوى نحو التجـارة في الولايـات المتحـدة، كانـت الاستجابة نحو الإذاعة وتكاتيكات الدفاع عن الذات التي استخدمها الصحافة مماثلة. ففـي كلتـي الحالتين، ففي حين خسرت الصحف حجتها وجدالها، لم يؤثر الإذاعة عـلى مبيعـات الـصحف بـأي حال من الأحوال،على الأقل لم يكن لها تأثير مثل تأثير التليفزيون في فترة ما بعد الحـرب العالميـة الثانية.

في إحدى المحاولات لإحباط حدوث "حرب" شاملة، عقـد ممثلـون عـن الـصحف وعن الوسائل الإذاعية بالولايات المتحدة مؤتمراً في فنـدق"بـالتيمور" في نيويـورك في ديـــسمبر عـــام 1933. كانـــت اتفاقيـــة بـــالتيمور – المعروفـــة أيـــضاً باســـم خطة الإذاعة والصحافة **the Press-Radio Plan**- عبارة أساساً عن اتفاقية عـلى

أساسها لا تقوم المحطات الإذاعية. بجمع الأخبار من تلقاء نفسها وعوضاً عن ذلك فإنها تتلقى نشرات إخبارية مدتها خمس دقائق يومياً من الأخبار التي تتيحها لها المؤسسات الصحفية. في واقع المر لم يتم تفعيل الاتفاقية لأنها لم توقع من أي طرف لآن المحطات الإذاعية المستقلة لم توافق على برنامج الاتفاقية. وهكذا دبت الانقسامات بين من يساندون الصحافة ومن يناصرون الإذاعة وبين حقوقهم"لأن الإذاعة لا تؤدي إلى الربح الوفير... ومن يرد أن يستثمر شخص ماله فيها فهو بذلك لا يبغي له الربح".

لقد أتاح وضع الأقلية التي لا تعمل من أجل الربح وقطاع إذاعة الخدمة العامة في الولايات المتحدة حقل اختبار للوسائل التكنولوجية التي يعرف عنها أنها غير مربحة؛ فنشأت إذاعة راديو AM في العشرينيات وراديو FM في الأربعينيات، ثم البث التليفزيوني على موجات UHF في الخمسينيات والستينيات. ومع أولى نفحات الربحية بدأت الشركات التجارية العملاقة تسيطر على الوضع. كان العصر الذهبي للإذاعة - الذي بلغ عدد جمهور المستحقين فيه ذروته - قد بدأ في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات وقبيل عام 1935 كان الراديو قد دخل ما يربو على 22 مليون منزل في الولايات المتحدة، كما كانت السيارات تباع وبداخلها الراديو. وأثناء تلك الفترة صرح ضعف هذا العدد من الأمريكيين بأنهم سيمتنعون عن شراء الصحف قبل تعاملهم مع الإذاعة. في تلك الأثناء بدأت إذاعة الخدمة العامة في بث حركة الإصلاح الخاصة بها وروجت لجملة للإعلان عن عنصر الخدمة العامة في النظام الجديد، وكانت حملة قد حالفها النجاح في نهاية الأمر.

ملف حقائق

حركة الإصلاح الإذاعي 1928-1935

في الثلاثينيات من القرن العشرين كانت إذاعة أمريكا التجارية تمثل البنية الحقيقة للصناعة الوليدة التي كانت تهيمن عليها محطات إذاعيتان؛ هما سي بي سي CBS وإن بي سي NBC. حسب رأي المؤرخ الإذاعي روبرت ماكشسني، كان نظام الإعلام الأمريكي نتاجاً لقوانين وتواعد منظمة بالإضافة إلى الدعم المالي العام ومنح تراخيص التشغيل، وكل ذلك كان يتم بأسلوب يسيطر عليه الفساد وراء أبواب مغلقة ودون موافقة الجماهير.

جاءت حركة الإصلاح الإذاعي لتمثل تحدياً لتلك الهيمنة وفرضت قطاعاً غير تجاري، لا يحل محل المحطات التجارية، بل ليمثل بديلاً ومصدراً واضحاً ومحدداً للأخبار والأفكار والتسلية. بين عام 1928 وعام 1935 سعت حركة الإصلاح إلى تمرير قانون لإنشاء قطاع إذاعي غير تجاري. ورغم أن الإصلاحيين كانوا يفتقرون إل قاعدة جماهيرية إلا أنهم كانوا يهتمون بدعم حرة الكلمة من خلال ديمقراطية ترددات البث الإذاعي. وقد اعتمد الكونجرس تشريعاً للتنظيم الدائم في كل فترة من عام 1927 وحتى صدور قانون الاتصالات العامة في عام 1934. والقانون يلزم المحطات التجارية بتوفير وقت كاف لبث برامج الخدمة العامة، ولذلك لم يكن هناك حاجة إلى شبكة عامة تجب حمايتها.

أدت هزيمة الإصلاحيين إلى تعزيز تقبل فكرة أن تكون البث التجاري ديمقراطياً، ويتم تطبيقه في الولايات المتحدة. يوضح ماكشسني أن القوانين الغربية تسمح للإعلانات بأن تشطب فتات النفقات التجارية لتعزيز النزعة التجارية التي كانت تهيمن على أجهزة الإعلام والمجتمع يقول ماكشسني أيضاً إن قانون الاتصالات

الصادر عام 1995 يمثل استمرارية منطقية لمثل هذا النوع من التفكير لأنه يؤكد على أن "عصمة" السوق – وليست السياسة العامة – هي التي ستمدد الاتجاه الذي ستتخذه شبكة الإنترنت.

في بريطانيا كان لأخلاقيات الخدمة أثر عكسي أدى إلى كبح القطاع التجاري حتى السبعينيات قبل تلك الفترة حل التليفزيون محل الراديو كوسيلة أكثر شهرة وشعبية للبث الإذاعي واستجابة لذلك أطلق بث أول محطة إذاعية تجارية(ITV) عام 1955. بعد تسع سنوات تقريباً سعت إذاعات (القرصنة) – وخاصة راديو كارولين – إلى كسر احتكار إذاعة البي بي سي. ثم بث إرسال راديو كارولين من سفينة صغيرة تبحر في المياه الإقليمية وتبعد عن ساحل سافوك حوالي ثلاثة أميال. وقيل إن اسم ذلك الراديو تم اشتقاقه من اسم كارولين كينيدي ابنة الرئيس الأمريكي. ورغم أن هذا الراديو لم يفعل شيئاً غير قانوني، كان رد فعل الحكومة تمرير قانون الانتهاكات البحرية Marine Offences Act عام 1967 يخطر تأسيس محطات قرصنة. بعد ذلك - وفي نفس العام -عرف الجميع راديو بي بي سي وبدأت القناة الإذاعية الأولى بث موسيقى البوب بنفس أسلوب محطات القرصنة. ورغم ذلك ففي عام بدأت المحطة الرضية التجارية 1973 LBC (شركة لندن للبث الإذاعي) بالتعاون مع شركات افعلانات بثها في بريطانيا. واستغرق الأمر حوالي خمسين عاماً حتى تستطيع إذاعة إخبارية أخرى أن تنافس هيئة الإذاعة البريطانية في هيمنتها على موجات الأثير.

الصور المتحركة – كيف سطا التليفزيون على الأخبار

حسب الإحصاءات الحديثة يقضي نصف سكان العالم الآن أوقات فراغهم في مشاهدة التليفزيون وهو نشاط لم يصل الكمبيوتر إلى منافسته حتى الآن.

لكن - على نفس درجة الأهمية - وفرت بني صناعة البث الإذاعي نموذجاً لصناعة التلفزيون الوليدة. كان التليفزيون يتميز بالعددية والديمقراطية على عكس افذاعة التي كانت تعكس في بريطانيا هيمنة وانفراد بدير عام هيئة الإذاعة البريطانية في بدايات الخمسينيات من القرن العشرين ذكرت صحيفة الطبعة العاملة " الديلي ميرور" في بريطانيا أنه:" بمجرد أن تسمح للتليفزيون بدخول منزلك، لن تصبح حياتك كما كانت من قبل". ورغم أن الشخصيات كبار الدولة كانوا على استعداد لتقبل إذاعة البي بي سي فإنهم قد عارضوا التلفزيون التجاري بشدة واتخذوا مواقف قوية لمحاولة منع تمرير أية تشريعات أو قوانين لازمة له. وقد استخدام التلفيزيون الأمريكي كمثال يظهر كل عيوب وأخطاء البث التجاري. ولكنهم استشاطوا غضباً عندما اكتشفوا أنه" في الولايات المتحدة عرض حفل تتويج الملكة إليزابيث الثانية - عام 1953 – تتخلله مشاهد لشمبانزي الإعلانات بتليفزيون NBC". "ج فريد مجز" وهو يبيع الشاي. كما عرض إعلانات عن العطور قبل طقوس التنصيب مباشرة.

لقد تضح أنه في دولة صغيرة مثل بريطانيا خلف التلفزيون إحساساً بالوحدة القومية لأن الجميع كانوا يجلسون في وقت واحد لمشاهدة نفس البرنامج. وقد أثار هذا السلوك نوعاً من روح زمن الحرب تساعد الناس على تقاسم خبرة مشتركة حتى لا يشعر بالعيش في حياة مشتتة.

وقد تكونت شخصيات داخل غرف المعيشة بدلاً من دور السينما؛ هذه الشخصيات أصبحت أكثر واقعية بحيث "تشبهنا تماماً" وهذا ما ساعد على تعزيز سلطة وقدرة تلك الوسيلة على الخداع والتشتيت. وفي هذا الصدد يذكر جيمس كوران أنه حتى مع بث الأخبار والأفلام الوثائقية إلا أن الضغط يتزايد لبث البرامج المسلية وإعطاء الجماهير الحق في المشاهدة والاستمتاع، كل هذا يوضح أي اعتبار. علاوة على ذلك فقد شارك التليفزيون في إيجاد أسماء

وشخصيات جعلها تحظى بـشهرة واسعة في النـصف الثـاني مـن القـرن العـشرين مثـل ريتـشارد ديمبلبي في بريطانيا وإدوارد مورو ووالتر كرونكايت في الولايـات المتحـدة، فقـد اسـتهلوا حيـاتهم المهنية بالعمل في الإذاعة ثم انتقلوا إلى التليفزيون.

في الستينيات والسبعينيات تطورت المحطات الإذاعية لتصبح شركات إعلامية كبرى بسيطرتها على المحطات المنافسة لها وافتتاح أفرع لها في مجالات أخرى. ومع ذلك فإن الـصناعة الوحيـدة التـي نمت وتطورت بعيداً عن تلك المؤسـسات هـي صـناعة الكمبيـوتر. فـشركات مايكروسـوفت وآبـل وجوجل وهيولت باكارد منفصلة ومختلفة إدارياً وعملياً عن التايم وارنـر وديـزني ونيـوز كـورب. وكل صناعة منها الآن تشرع في أن تسبق الأخرى وتتجاوزهـا. إذاً فعـلى المـستوى الفـردي عنـدما يصبح الكمبيوتر موجوداً في كل مكان ويستغل الأداء المزيد والمزيد من المهـام وخاصـة لمـشاهدة محتويات الفيديو، فربمـا ينظـر إليـه عـلى أنـه مرحلـة مـن مراحـل تطـوير الـصورة المتحركـة ولا يستخدم كفاية في حد ذاته. من وجهة نظر ميتشيل ستيفنز أن الثورة الحقيقيـة التـي نـشاهدها الآن ستكون ثورة الصورة المتحركـة. ويوضـح أنـه حتـى سـتيف جـوبز الـشريك المؤسـسي لمحـرك البحث آبل Apple قال في عام 1996 إنه يعتقد أن تأثير الكمبيوتر لن يكـون عميقـاً كـما حـدث عندما شـاهد النـاس التليفزيـون لأول مـرة. فانتـشار التليفزيـون وصـل إلى نـصف عـدد المنـازل الأمريكية خلال ثمـاني سـنوات في حـين اسـتغرق الأمـر مـع الكمبيـوتر حـوالي 16 عامـاً ليتـصاعد انتشاره من 8% عام 1984 إلى 50% عام 2000. وبحلول عام 2004 كان بأمريكا وبريطانيا حوالي 62% من المنازل التي يوجد بها أجهزة كمبيوتر، في حين يمتلك 99% من المنازل بالولايات المتحدة و96% من المنازل بدول الاتحاد الأوروبي توجد بها أجهزة تليفزيون.

حرب الطباعة الباردة للصحف

بـالطبع تفهـم القلـة القليلـة مـن النـاس حـرب الطباعـة البـاردة – وهـي في واقـع الأمـر

الاستخدام الأول لتكنولوجيا الحاسبات الآلية الحديثة في الصحافة - عملت على تحرير الصحف ليس فقط من تأثير ونفوذ اتحادات الطباعة بل أيضاً من الشرنقة الوقائية التي كانت تضمن آنئذٍ الاستقلالية كمنابر للأخبار. فقدرة الكمبيوتر على إعادة جمع وتخزين وتحليل المعلومات كانت تعني أنه لأول مرة استطاع الصحفيون ضبط مخطط الصفحة جاهز للطباعة إلكترونياً إلى درجة إنتاج المزيد من الطبعات رخيصة الثمن، كما استطاعت مكاتب التحرير عن ورش الطباعة. إذاً فقد انخفضت تكاليف الطباعة وهذا ما كان يعد خبراً ساراً بالنسبة للصحف ذات التوزيع الضعيف. لكن التغيير الشامل والتحول من التركيز على الطبقة العاملة إلى التركيز على رأس المال كان يعد خبراً سيئاً بالنسبة للعاملين بالطباعة إذ أن عدداً كبيراً من الوظائف خرجت عن أيدي أولئك العاملين وسط مناخ يسيطر عليه الصراع الصناعي والاضطرابات بين العمال. أما الآن فالتكلفة المبدئية تعد منخفضة في المملكة المتحدة بالقدر الذي يكفي للسماح لتشغيل الصحف على أيدي فئة جديدة من رجال الأعمال. ففي الفترة التي تلت عام 1986 مباشرة كان هناك عدد كبير من الجرائد القومية مثل ""بلانيت أون صنداي" و"كورسبوندانت" و"البوست" و"توداي" و"الإندبندنت" وغيرها. لم تستخدم أية صحيفة من تلك الصحف مادية إخبارية ضخمة من أجل الوصول إلى فئة قليلة من القراء! ولم تبق أية صحيفة من تلك الصحف لما يزيد على عام واحد عدا صحيفة الإندبندنت.

الآن تواجه الصحافة ضربة قوية من القلق التجاري، وهي ضربة تمثل تحدياً لاستقلاليتها، إذا لم تكن موجهة لوجودها أساساً. فالكمبيوتر والتكنولوجيا الرقمية شرعا في تقويض الاتزان الهش بين تكاليف إنتاج الصحف والعوائد. ففي بريطانيا تستشعر الصحف المحلية والإقليمية هذه السخونة، أما في أمريكا فتواجه الصحف البارزة والموقرة مثل هذا المؤخرة مثل هذا الموقف؛ فالنيويورك تايمز تواجه دفعات متتالية من انخفاض العوائد، ولوس أنجيلوس تايمز أصبح

لديها نصف عدد الغرف الإخبارية التي كانت تمتلكه من قبل في عام 2001، وشيكاغو صن تايمز أصبحت مدينة الآن بحوالي مليار دولار. وأما بالنسبة لشركة تريبيون، فقد قام مالكو صحف شيكاغو تريبيون وبالتيمور صن ولوس أنجيلوس تايمز بتقديم طلبات لحمايتهم من إشهار إفلاسهم في ديسمبر عام 2008. تلك المذبحة الشاملة تمخضت عن فقدان 15000 وظيفة بالصحافة في عام 2008، وحوالي 9000 وظيفة في منتصف عام 2009.

في كل الأحوال تبقى أسباب تلك الصعوبات هي ذاتها دون اختلاف؛ القليل من القراء وقلة عوائد الإعلانات. فثمة عدد قليل من القراء بسبب تغير العادات الثقافية، وفقدان الشعور بالجماعة اللذين عملا على تقويض كل من الصحف المحلية والصحف الإقليمية ورفعا من شأن شبكة الإنترنت كمصدر للأخبار له نفس فوائد البث الإذاعي في فوريته وآنيته وفي سهولة طباعة أخباره، وتيسيره لعملية القراءة، ثم إعادة القراءة في أوقات الفراغ. أحد ردود الأفعال لهبوط عوائد التوزيع والإعلانات يتمثل في نشأة الصحافة المجانية. الهدف الأساسي من تلك الصحافة هو اتساع دائرة توزيعها من حيث أنها توزع بالمجان وفي مقابل ذلك فإنها تجذب إعلانات مربحة جداً. وهي بذلك تسير وفق نموذج اقتصادي تقليدي فيما عدا سعر التغطية الفعلي. لقد كانت هناك حروب من أجل التوزيع في كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة في استخدام الهدايا المجانية freebies.

لكن حتى الصحافة المجانية لم تنج من الواقع الاقتصادي. فقد أغلق روبرت موردوخ صحيفة لندن نيوزبيبر في 18 سبتمبر عام 2009 بعد ثلاث سنوات من إصدارها تقريباً، وبعد أن سجلت خسارة تعادل 12,9 مليون جنيه دون دفع الضرائب عن هذا العام. وأما شركة أسيوشيتد نيوز بيبرز قد أغلقت صحيفة لندن لايت في 13 نوفمبر عام 2009 لنفس الأسباب. وفي نفس الوقت تحولت الصحيفة المدعومة الوحيدة في صحف لندن المسائية وهي صحيفة إيفننج

ستاندارد التي استمرت حوالي 180 عاماً إلى صحيفة مجانية بدءاً من شهر أكتوبر عام 2009.

بالطبع كان الجميع يفهمون ويدركون قوة الإنترنت وشبكة المعلومات الدولية تماماً لكن - عاماً بعد عام - يقل استخدام التليفزيون ليحل محله استخدام الكمبيوتر. على سبيل المثال، في الولايات المتحدة حوالي 2% من السكان يستخدمون شبكة الإنترنت للدخول على الأخبار في عام 1996 في حين ارتفع العدد في عام 2008 إلى 37%. وفي نفس الفترة انخفض عدد الذين يقرأون الصحف بانتظام من 50 إلى 34%. وفي نفس الوقت كان يعتقد 37% من القراء أن شبكة الإنترنت أكثر فائدة في مقابل 20% يؤيدون التليفزيون. وحوالي 49% ذكروا أن شبكة الإنترنت توفر لهم مساحة كبيرة من التحكم في الأمور في مقابل 22% يضفون تلك الميزة على التليفزيون. ومع ذلك ففي نهاية الأمر يحدث التقارب بين كل وجهات النظر إذ أن الجائزة الكبرى هي التحكم في قنوات الاتصال التي لا تجلب الربح فقط، بل تجلب القوة الكافية لتشكيل الأجندة الثقافية والرأي العام وطبيعة الخطاب الاجتماعي. يعتبر تكتل وسائل الإعلام العالمية أحد مظاهر مثل تلك القوة لكن لابد أن تكون طريقة استخلاص واستغلال الصحفيين لتلك الوسائل الإعلامية الجديدة طريقة مختلفة تمثل تصحيحاً للتجاوزات التي تكمن في احتكار الشركات المهيمنة.

الفصل الثامن

سلطة تستحق الكفاح من أجلها

في عام 1952 ورث روبرت موردوخ المؤسسة الصحفية التي كان قد أسسها والده السير كيث موردوخ. كانت الصحيفة الشعبية "الأخبار" The News هي أكبر أصول المؤسسة. وكانت أولى الصفقات الصغيرة التي عقدها موردوخ هي شراء صحيفة سان أنطونيو إكسبرس نيوز في عام 1973. ومنذ ذلك الحين كان قد أنشأ "مؤسسة الأخبار" وحولها إلى مؤسسة عالمية تدر ربحاً يعادل 5,4 مليار دولار. من ناحية أخرى كان قد تم تأسيس شركة محرك البحث جوجل في عام 1998 فقط واشتهرت في عام 2004. وفي عام 2009 حققت أصولاً عامة بما يعادل 32 مليار دولار بالإضافة إلى دخل فعلي يعادل 6,6 مليار دولار. تصف وكالة الأبحاث ميلوورد براون "جوجل" كأقوى شركة في العالم. فهي كمراهق سحب البساط من تحت أقدام أجداده الكبار دون أي نوع من الكفاح.

من الواضح أن مؤسسات مثل مؤسسة الأخبار News Corporation والتايم وارنر وشركة والت ديزني – رغم حجمها الكبير وثروتها الضخمة – ظلت فترة تحبو على أعتاب استخدام التكنولوجيا الرقمية وتقوم الآن بشراء الشركات التي تعمل عبر الإنترنت مثل شركة ماس سبيس في محاولة منها للصعود على متن القطار الرقمي. لكن هل تأخرت تلك المؤسسات كثيراً؟ وهل من الممكن أن تكون قد ارتكبت خطأً فادحاً حيث افترضت أن الاتصالات الرقمية ما هي إلا مجرد تكنولوجيا أخرى؟ بالطبع يعلمنا للتاريخ غير ذلك. كان الكثير من الناس يعتقدون أن السير بسرعة أكثر من 25 ميل في الساعة مع قضبان

السكة الحديد حديثة التركيب يمكن أن يسبب انفجار لأجسادنا جراء تأثير الرياح عليها. لكن لم يكن الحديث عن السكة الحديد حديثاً عن السرعة. فقد غيرت السكة الحديد المشهد الثقافي بطريقة لم يكن يتخيلها مبتكروها أنفسهم. وبالمثل كان التلغراف لا يقض من ورائه السرعة فقط، برغم ذلك كان يمد أحد أسباب انتشاره السريع. فقد غير طرق الصحفيين في كتابة رواياتهم، وغير أساليبهم في جمع الأخبار، كما غير أيضاً شكل وتصميم ومحتوى الصحيفة. ومع ذلك، ففي نهاية الأمر أدى إلى تغيير طريقة "تفكير" الصحفيين في وظيفتهم.

بالمثل يؤدي عصر التكنولوجيا الرقمية إلى تحول المشهد الإعلامي ومحتوياته الأيديولوجية إلى ثقافة ومجتمع أكثر اتساعاً. وهذا التحول تم في بادئ الأمر عبر التكنولوجيا بصورة واضحة، لكنه يطرح عدة تساؤلات حول: كيف يمكن تحويل صفحة الويب إلى "نقود"، وغير ذلك. وصفت حملة أوباما الرئاسية بأنها انتخابات الفيسبوك **Facebook**، وهذه الحملة كانت مسئولة - حسب قول النقاد السياسيين - عن الإقبال الكبير من شباب الناخبين وفوز أوباما بنسبة 70% من أصوات الشباب من ذوي الفئات العمرية الأقل من 25 سنة. ولكي نفهم ونقدر علم نفس المؤسسات الإعلامية و"صدامها" مع الكمبيوتر والتكنولوجيا الرقمية، نرى أنه من المفيد أن نقوم بفحص الإسراع نحو إلغاء قيود التنظيم والتوحد بعد الحرب العالمية الثانية، وكيف أدى ذلك إلى وجود شركاء مزعجين في العمل الصحفي، وكيف أدى إلى تعزيز الرأسمالية العالمية.

التحرر من القيود والمضاعفة

ظلت العولمة والتحرر من قيود التنظيم **globalization and deregulation** من القضايا الكبرى في بريطانيا أكثر منها في الولايات المتحدة أو الدول التي تفتقر إلى مبدأ البث الإذاعي القوي للخدمة العامة. قبل

ابتكار التليفزيون كانت المؤسسات الإعلامية تعتمد أساساً على الطباعة بصورة مختلفة ومتباينة، وكان في بريطانيا عدة محاولات للحفاظ على تعددية الصحافة رغم الحقيقة التي كانت معروفة عن أن السوق كان يسير خلاف ذلك. فكانت حكومة حزب العمل التي كان يقودها هارولد ويلسون مهتمة بهذا الشأن إلى درجة أن توني بن وزير الدولة للصناعة أصدر قراراً في عام 1975 تقديم الدعم المالي لصحيفة سكوتيش ديلي نيوز وهي صحيفة عملت كوسيلة معاونة للعمال بعد أن قامت مؤسسة بيفربروك الصحفية بإغلاق سكوتيش ديلي إكسبرس ما وفر قوى عاملة زائدة عن الحاجة. وفرت الحكومة 1,2 مليون جنيه، لذلك استطاعت الصحيفة شراء المبنى القديم لبيفربروك في جلاسجو. ومع ذلك لم تزد المبيعات واستمرت الصحيفة لمدة سنة أشهر فقط. كانت هناك تصريحات عديدة بأن الصحيفة التي تدعمها الحكومة مالياً لا تنال الثقة بأي حال من الأحوال وأنها دائماً ما تنشر الأجندات الدعائية ولا تنشر الأخبار الموضوعية. هذا المثال يؤكد على أن الصحافة البريطانية التي قضت القرنين السابقين أو أكثر في التخلص من نير الحكومة ومن أدوات التحكم الأخرى لا يبدو من المحتمل أن تحقق أي نجاح في هذه الأيام على الرغم من إعادة إعدادها وإنتاجها، حتى لو كانت نواياها محمودة.

رغم ذلك لم يكن الأمر هكذا مع وسائل البث الإذاعي. ففي أمريكا كان الوضع الطبيعي الذي يحكم التوسع الإعلام يتفق مع الحلول يسوقها السوق **market-led solution** بصورة مختلفة في حين أنه في بريطانيا – بسبب سلطة هيئة الإذاعة البريطانية الكبيرة – اتجهت مبادئ وأفكار الخدمة العامة (حتى عهد قريب) نحو المزايدة على الحلول الموجهة نحو السوق **market-oriented solution**. في عام **1985** تم تشكيل "اللجنة بيكوك" **Peacock Committee** لتحويل البث الإذاعي بقرار من حكومة المحافظين حينئذٍ، ورغم أنها توصلت إلى نتائج تأتي لصالح إيجاد سوق حرة للبث الإذاعي، إلا أنه

لم تكن هناك فكرة واضحة عن طريقة وكيفية تحقيق هذا الأمر. ورغم ذلك، كان من الواضح حسب رؤية لجنة بيكوك أن مستهلكي البث الإذاعي يجب عليهم هم أنفسهم أن يقرروا ما يريدون بالإضافة إلى السعر الذي يرغبون في تحديده.

من المؤكد أن القمر الصناعي والتكنولوجيا السلكية – في بدايتهما وعندما أدلى بيكوك بذلك – قد حققا هذا الهدف إلى حد ما رغم أن وضع هيئة الإذاعة البريطانية BBC في عالم الإعلام الجديد لا يزال حتى الآن غامضاً أو مجهولاً. فالمستهلكون البريطانيون يجب عليهم أن يدفعوا رسوم ترخيص الاشتراك في القنوات الإذاعية الخاصة بهيئة الإذاعة البريطانية بالإضافة إلى دفع رسوم الاشتراك في هيئة الإذاعة نفسها إذا رغبوا في مشاهدة أية قنوات يبثها تليفزيون سكاي مثلاً أو أية قناة خاصة بشركة فيرجين أو غيرها. ومع ذلك فلا يزال هناك نظام للبث يكفي لعدد يحصى من القنوات كما يتخيل بيكوك.

أحد الشروط الأساسية لمثل هذا النظام الخاص بالبث هو وجود مؤسسة إعلامية ذات خبرة عملية كافية لخلق هذا النظام بالإضافة إلى ثروة كافية لإرسال البث، بمعنى آخر سيكون الحل هو الحل الموجه نحو السوق. في نهايات عام 1965 لم يكن هناك الكثير من شركات الإعلام بين أكبر مؤسسات عالمية وعددها 300 مؤسسة. ولكن في نهاية القرن، كان هناك تسع أو عشر شركات اعتماداً على طريقتك أنت في تحديد قيمتها. ساعد على هذا النمو والازدياد التخلص من قيود التنظيم على إثر أول موجه من موجات التكنولوجيا الرقمية. أما مؤسسة روبرت موردوخ الإخبارية التي تمتلك تليفزيون سكاي في بريطانيا وتليفزيون فوكس في أمريكا فتجسد مثالاً على طريقة الشركات التجارية الكبرى في السيطرة على الصحافة العالمية من ناحية، كما تترك نفسها عرضة لأي انقضاض مفاجئ لموجه ثانية من المخترعات العالمية الرقمية من

ناحية أخرى.

لقد أعطت بريطانيا كل هذا التعزيز لقطاع الإذاعة وذلك للوضع الفريد الذي تتميز به هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي. ومع ذلك يمكن القول إن البي بي سي تشكلت كنتيجة لأول "تعزيز" للبث الإذاعي في عام 1922 عندما أقنع المدير العام لهيئة البريد المنافسين في الصناعة بالاستثمار المشترك في إحدى المحطات الإذاعية الصغيرة الواعدة، وهي هيئة الإذاعة البريطانية. ورغم تاريخها الطويل، لم تتمتع البي بي سي بالحصانة ضد آثار العولمة لأنه - في بريطانيا كما في أي مكان آخر من العالم - يتلقى الناس صور التليفزيون إما عبر الوسائل السلكية أو الأقمار الصناعية، أما الآن فقد أصبحت القنوات الأرضية التي تبث وتلتقط من خلال الهوائي تعد قليلة جداً. منذ فترة وجيزة (في عام 2009) أدت اقتراحات الحكومة بفرض شريحة أعلى من الرسوم على التراخيص ومنح جزء من الضريبة المفروضة للشركات التجارية إلى حملات استنكار ومقاومة حتى داخل هيئة الإذاعة البريطانية ذاتها.

في الولايات المتحدة، حسب مشروع امتياز الصحافة الذي نفذه مركز بيو Pew للأبحاث في عام 2006، تسيطر عشرون شركة الآن عل 78% من توزيع الصحف اليومية الأمريكية، وثمة عشرون شركة أخرى تقوم بتشغيل أكثر من 20% من إجمالي محطات الإذاعة و30% من محطات التليفزيون المحلية، وكلها محطات تمتلكها عشر شركات. كان عدد المنازل التي تتصل بالنظام السلكي 28 مليوناً في عام 1982. وبحلول عام 2006 اشترك أكثر من 77 مليون فرد (تقريباً 25% من إجمالي عدد السكان) بالتليفزيون السلكي و79% من إجمالي استقبال البث التليفزيوني كان عن طريق البث السلكي أو الأقمار الصناعية. وهذا ما يتناقض مع ما كان يحدث في بريطانيا حيث اشترك 3,5 مليون فرد (حوالي 6% من السكان) في التليفزيون السلكي وحوالي 32% فقط

من إجمالي استقبال البث التليفزيوني كان يتم عبر الكابلات أو الأقمار الصناعية. في الولايات المتحدة شهدت الشبكات الرئيسية الثلاث ABC وCBS وNBC انخفاض عدد مشاركات جمهورها بصورة مثيرة. فرغم أن الشبكات الثلاث ظلت مهيمنة إلا أنها قد تأثرت بالوسائل الإعلامية الجديدة. معظم الدول الأوروبية كانت عبارة عن نسخة مكررة لتلك الإحصاءات الأمريكية - بغض النظر عن بريطانيا وإيطاليا - فالإحصاءات والأرقام الخاصة ببريطانيا تعد مثالاً واضحاً لطريقة تأثير البث الإذاعي العام والبي بي سي عن طريقة استهلاك التليفزيون. فالمساحة الصغيرة نسبياً للدولة - والتي تساعد على تنفيذ تغطية قومية جيدة من خلال الهوائيات التقليدية - ساعدت على توطيد هيمنة هيئة الإذاعة البريطانية.

ملف حقائق

شبكة الأخبار السلكية و"أثر السي إن إن"

تأسست شبكة الأخبار السلكية Cable News Network المعروفة باسم السي إن إن CNN عام 1980 على يد تيد تيرنر. وكانت أول شبكة تبث تغطية إخبارية على مدار 24 ساعة لسبعة أيام أسبوعياً. وتصل إلى ما يزيد على 93 مليون منزل أمريكي، كما تصل السي إن إن الدولية International إلى أكثر من 212 دولة وإقليم.

تتمتع السي إن إن بتاريخ يروي عن تفوقها على منافسيها. ففي 28 يناير عام 1986 كانت السي إن إن هي الشبكة الوحيدة التي تقوم بالتغطية المباشرة لإطلاق مكوك الفضاء تشالينجر ثم انفجاره. انفجر المكوك بعد إطلاقه وأدى إلى مقتل أفراد الطاقم السبعة بما فيهم كريستا ماكوليف التي تعمل في هامبشاير والتي كان من المفترض أن تكون أول معلمة تصل

إلى الفضاء. وفي 14 أكتوبر عام 1987 سقطت طفلة رضيعة تسمى جيسيكا ماكلور في بئر في ميدلاند بولاية تكساس. كانت السي إن إن في مكان الحادثة فوراً، وهذه التغطية ساعدت في انتشار اسم الشبكة.

في حرب الخليج الأولى عام 1991 لمع اسم شبكة السي إن إن. دفعت هذه الحرب السي إن إن إلى الأمام قدماً لتصبح في مقدمة الشبكات الأمريكية الثلاث الكبرى لأول مرة في تاريخها. فكانت هي الشبكة الوحيدة التي تتابع الحرب وترسل تقاريرها من داخل أرض العراق وبالذات من داخل فندق الراشد في العاصمة بغداد. واليوم السي إن إن جزءاً من التكتل الإعلامي تايم وارنر، وتكافح من أجل الحفاظ على مشاهديها بعيداً عن إغراءات منافسيها مثل قناة فوكس الإخبارية والديلي شو غيرهما. في الولايات المتحدة، تعتبر السي إن إن هي الشبكة الثانية في الترتيب بعد شبكة فوكس.

إما التقارب أو الهلاك

يمكن أن يفسر التقارب convergence بطرق عديدة ومختلفة. تعرض سونيا ديو وزملاؤها الاحتمالات التالية: مشاركة المحتوى الإخباري مع المؤسسات الإخبارية الأخرى، مشاركة المحتوى الإخباري مع وسيلة أخرى في نفس المؤسسة، أو المشاركة في هيئات العاملين والترويج للوسائل الأخرى التي يتم تلقي المحتوى فيها والتي يرسل المحتوى إليها. إحدى الدراسات التي ترى الغرفة الإخبارية الخاصة بصحيفة تامبا تريبيون أنها تتكامل مع القناة التليفزيونية WFLA وموقع TBO.com الشبكي توصلت إلى نتيجة مفادها أن التقارب لا يؤدي إلى إنتاج تقارير مشتركة بل يعمل على نشر ثقافة تقاسم المعلومات بين الوسائل الثلاث.

لقد أصبح التقارب خياراً وحيداً للتطور، كما أنه باعث قوي على النمو وأدى إلى التوسع من خلال التكامل الرأسي والأفقي. والتكامل الرأسي هو اكتساب عناصر مختلفة لعملية الإنتاج، على سبيل المثال، تمتلك مؤسسة نيوز كورب ستوديو السينما وصناعة الأفلام "فوكس القرن العشرين" ووسائل توزيع منتجاتها باستخدام اسطوانات الدي في دي **DVD** والأقمار الصناعية والبث السلكي. أما التكامل الأفقي فهو اعتماد الشركات على نفس مستوى المراحل في إنتاج سلسلة معينة. على سبيل المثال اعتمدت مؤسسة نيوز كورب عدداً من الصحف في المملكة المتحدة وفي الولايات المتحدة. ومن ثم تسعى المؤسسات لرفع الحد الأقصى لاحتمالات الربح.

على عكس ذلك، تعتبر الصحافة والأمور العامة أقل جذباً إلا إذا قامت بخدمة المصالح التجارية أيضاً. فكما ذكر جون بيلجر: "لقد شهدنا توسع وانتشار التكنولوجيا لكن أجندة أجهزة الإعلام انحسرت كثيراً". ومع ذلك فما يدعو إلى الاستغراب هو أنه في حين ازداد نمو العديد من تلك الصناعات إلى مدى يتجاوز سيطرة الدول عليه إلا أن التكنولوجيا التي ساعدت على انتشار العولمة – وخاصة الأقمار الصناعية والعلوم الرقمية **0** ساعدت أصوات الأقلية أيضاً على أن تصل إلى آذان العالم وعلى أن تجد لها جماهير من خلال إمكانيات الدخول التي وفرتها تلك التكنولوجيا للجميع.

لقد أصبح التقارب على مستوى التفاعل الشخصي مع تلك التكنولوجيا واقعاً ملزماً لكل العاملين. بالصحافة. فحزم الترددات **broadband** المتكاملة و"نظم المعلومات السريعة" **information superhighways** التي تعد اصطلاحات جديدة توفر الفرصة لإنتاج الصحفي ليعاد طرحه وعرضه إليكترونياً مع بعض التغييرات البسيطة على العديد من الوسائل المختلفة والساحات المتباينة مثل صفحات الويب والمواقع الشبكية والمدونات والصحف

والمجلات والإذاعة والتليفزيون وحزم التليفزيون وهلم جرا. ثم بعد ذلك يتم عرض كل ذلك ونشره في جميع أنحاء العالم. إن التقارب هو الرابطة المقدسة التي تربط كل تلك الساحات التي توفر لها التكنولوجيا الرقمية المدخل الميسر.

العودة إلى المستقبل

استخدمت كلمة "التكنولوجيا" لأول مرة في السنوات الأولى من القرن السابع عشر. أما كلمة "صحفي" فتكت صياغتها نحو نهاية نفس القرن. ومنذ ذلك الحين أصبحت الصحافة والصحفيون من بين أولئك الذين يستفيدون من التكنولوجيا. إذا ما كانت السكك الحديدية (أسرع وأكثر موثوقية في عملية التوزيع) والمطابع البخارية "كوينج" (طباعة أسرع للوفاء بعمليات التوزيع المتزايدة) والمطابع الدوارة rotary press (الشكل النهائي للطباعة الصحفية التقليدية) والكابلات الكهربائية والتلغراف (آنية الصوت والصورة المرئية) وأخيراً الأقمار الصناعية والتكنولوجيا الرقمية التي وحدت العالم الذي نعيش فيه اليوم, كل تطور تكنولوجي ينتج عنها جميعًا تم استغلاله وتعديله من قبل مهنة الصحافة لخدمة هدف واحد أعلى وهو توصيل المعلومات من نوع معين.

رغم أن الصحافة مندمجة مع التكنولوجيا إلا أنه ليس من الضرورة أن تعمل التكنولوجيا على تحديد طبيعة الصحافة. من المؤكد أن فهمنا لأجهزة الإعلام الحالية يؤثر كثيراً على طريقة تفكيرنا في أجهزة الإعلام في الماضي, لكن التكنولوجيا في حد ذاتها يمكن أن تعيق فهمنا بدلاً من أن تعمل على تعزيزه. يقول برايان وينستون: "تهب عاصفة التقدم بشدة إلى درجة أنها ضللت رؤيتنا لما يحدث". وحتى الإنترنت وشبكة المعلومات الدولية – وهما شبكتان تنتشران في جميع أنحاء العالم اليوم – كانتا أساسًا تعتبران تكنولوجيا "النخبة". فطاقتهما الراديكالية – خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الرأسمالي الذي يتلخص في أ, كل شيء له ثمن – تسبب الهلع لذوي المصالح الخاصة في إيجاد معايير ثقافية

واجتماعية.

تخلق التكنولوجيا الجديدة أيضاً جواً من الخوف، والصحفيون أيضاً لا يتمتعون بالحصانة من هذا الخوف. ثمة توجه نحو "مقاومة التقدم"[!] Luttide يختفي داخل عقل الشخص التقدمي – الارتياح للمعروف والخوف من المجهول – يسبب حالة من الريبة والإحجام عندما تضطرب نماذج العمل التقليدية. يعتبر النزاع بين الإذاعة والصحافة عام 1933 في الولايات المتحدة حلقة من حلقات مثل هذا المسلسل. وفي عام 1980 عقد اتحاد الصحفيين السويديين اتفاقاً مع أصحاب أجهزة الإعلام بأن يكون للصحفيين الحق في رفض استخدام الكمبيوتر والاحتفاظ بالآلات الكاتبة القديمة.

على مستوى الصناعة هناك ثلاث أفكار متناسقة تم استعراضها في هذا الجزء، وهي أفكار فرضت نفسها على البيئة الظاهرة لأجهزة الإعلام كما نراها الآن. أولاً، كان يقصد بالملكية المتعارضة cross-ownership أنه لأول مرة يتم إنتاج الأخبار عن طريق شركات عملها الرئيسي ليس الصحافة بل التجارة، وهي شركات تؤمن بأن الأخبار يمكن استبدالها بنظام التسليع وعرضه كأخبار. في القرن العشرين، كانت وكالة رويترز للأنباء تبث المعلومات المالية ثم تنتقل إلى أسعار سوق الأسهم المالية بالإضافة إلى عملها الأساسي وهو إذاعة نشرات الأخبار. ومع ذلك فإنها لم تقم بشراء شركات الكهرباء أو منافذ بيع التجزئة أو المزارع مثلاً إذا دائماً ما يكون هناك صراعات حول المصالح حيث تتعارض المبادئ الصحفية مع المصالح التجارية لشركات التجارة. تتضح أيضاً الملكية المتعارضة في الطريقة التي استطاعت من خلالها الشركات الحديثة أن تتسع نحو أجهزة إعلام مختلفة.

[!] Luttide تخوف الشخص من الجديد فيعمد إلى مقاومة التطور التقني أو التكنولوجي. وهذا المصطلح كان يطلق على شخص أو مجموعة من العمال عمدت إلى إثارة الشغب وتحطيم ماكينات الأقمشة (1811 – 1886) لاعتقادهم أن استعمال الماكينات سيقضي على فرص العمل (المترجم).

ثانياً، أدت تكنولوجيا الأقمار الصناعية والإنترنت إلى تغيير مفاهيمنا عن الزمان والمكان وأوجدت بيئة إخبارية محمومة وتنافسية. فعندما تنتج هيئة الإذاعة البريطانية رواية إخبارية مثلاً فلابد من تعبئتها للإذاعة والتليفزيون، ثم يُعاد صياغة أهدافها لتناسب الموقع الشبكي خلال خمس أو ست دقائق من إذاعة الرواية ويتم تزويدها بالصور والمواقف المناسبة سواءً المسموع منها أو المرئي. ربما أيضاً تكون البودكاست ومدونات الصحفيين أمراً ضرورياً لاستكمال عرض الرواية. إن الخطورة في الاعتماد على وسائل الإعلام الإلكترونية دون سواها تتمثل في أن أي شيء أو أي فرد خارج نطاقها لا يتم تجاهله فقط بل يبدو غير ظاهر بالمرة. قبل استقلال غانا صحيفة الجولد كوست إندبندنت واحدة من الصحف الموقرة وكانت تركز على الأنباء التي تصلها من غرب أفريقيا إما عن طريق السفن الصغيرة أ عن طريق الرحلات الحافلة بالمخاطر داخل الغابات والأحراش. كانت تلك الأعمال روتينية عادية لجمع الأخبار وكانت تأتي بمزيج منتقى من الروايات الصعبة والخفيفة. والخطورة الحقيقية هي أننا خلال كل تلك المخاطر ننسى أن هناك روايات هامة أو مدهشة لا تزال تحتاج إلى "سفينة" تجرها إلى داخل أضواء أجهزة الإعلام. ثالثاً، لم ينكر الرواد الأوائل في تلك المساحة الهامة التي تتمتع بها أعمال أجهزة الإعلام في هذه الأيام. فاليوم لم يعد هناك أحد لا تطاله يد الإعلام.

إن شركات الإعلام على استعداد لأن تستثمر، بل لأن تخسر، المزيد من الأموال في سبيل هيمنتها على شكل الوسيلة الإعلامية التي تختارها حتى وإن كانت عبارة. فشركة سوني مثلاً استثمرت الملايين في ابتكار صيغة "بيتاماكس"[1] للفيديو لمجرد إلحاق الخسارة بشركة جيه في سي JVC ونظام VHS الخاص بها. أما روبرت موردوخ فيصف نفسه بأنه "المهاجر الرقمي" digital

[1] في تلك الفترة اختفت شرائط الفيديو VHS كبيرة الحجم من السوق تماماً وحلت محلها شرائط نظام البيتاماكس صغيرة الحجم (المترجم).

immigrant وعرض ذلك كأحد مبررات إخفاقه في الانضمام إلى عالم الإنترنت. ونتيجة لذلك دفعت شركة نيوكورب 580 مليون دولار ثمناً لشراء ماي سبيس في عام 2005 لدعم أصولها بشبكة الإنترنت ولتأكيد وتعزيز مشروعيتها داخل مجتمع الشبكة. ومع ذلك ففي عام 2009 حول أوين فان ناتا الرئيس التنفيذي للشركة 720 موظفاً إلى عاملين بلا وظيفة وتراجعت قيمة ماي سبيس.

رغم تلك الإخفاقات، كان النصف الثاني من القرن العشرين يعتبره فترة مكاسب وأرباح لصناعة الصحف وذلك يعود إلى النمو الاقتصادي وزيادة عوائد الإعلانات. ومع ذلك، شيئاً فشيئاً بدأت ضغوط خيارات المستهلك عبر التليفزيون والإذاعة في التأثير على المبيعات وبالتالي على عوائد الإعلانات. على سبيل المثال، بدأت لندن فترة ما بعد الحرب بإصدار ثلاث صحف مسائية: أخبار المساء Evening News وستار وإيفننج ستاندارد. وبحلول عام 1980 بقيت منهم الصحيفة الأخيرة فقط. في عام 1994 كانت 16 مدينة فقط داخل الولايات المتحدة تمتلك صحفاً يومية مجانية، وهذا العدد يمثل 1% فقط من إجمالي عدد الصحف بالولايات المتحدة. وقد علق أحد المعلقين الصحفيين على ذلك بقوله: "تلك بنية تجارية تم التخطيط لها لتقلل عدد القراء، حتى في أفضل الأحوال. لا يحتاج المرء إلى تفكير شيطاني ليرى ذلك". ربما تشجع المؤسسات الاحتكارية عمليات البيع، لكن العديد من القراء يفقدون عادة القراءة اليومية عندما لا يكون أمامهم سوى خيار واحد، في حين تزداد مستويات الجماهير إذا كانت هناك عدة خيارات مختلفة.

دائماً ما تسيطر التكنولوجيا الحديثة على الصحافة؛ فقد تحولت الإذاعة من الأفلام إلى الفيديو، ومن الشرائط إلى العمليات الرقمية؛ وتحولت الطباعة من المعدن "الساخن" إلى تصوير النماذج ومنه إلى تكنولوجيا التصميم عن طريق

الكمبيوتر. حتى الصحفي الذي يستخدم الإنترنت لابد له من أن يتأقلم بصورة مستمرة مع الأجهزة والبرامج. جميع الصحفيين إنما يسعون إلى الإسراع في عمليات الإنتاج وإلى ضبط المواعيد لتلك العمليات. والعاملون الجدد يفهمون جيداً أنهم لابد أن يتمتعوا بالمرونة وتعدد المواهب، وعليهم أن يكنوا الولاء - لرؤسائهم أو أصحاب الأعمال - لكن لوظيفتهم كصحفيين. لأن العقود قصيرة الأجل والعمل التطوعي المجاني أصبحا نموذج الاختيار أمام العديد من أصحاب الأعمال، فإن الصحفيين يعتبرون ذلك تهديداً أو يرون فيه فرصة للتخطيط لمهنتهم بأسلوب أفضل. إن المادة الإخبارية والصحفية، بالإضافة إلى القدرة على نشر الحقيقة، يعتبران سلطة أو قوة جديرة بالكفاح من أجلها.

الباب الثالث

آداب وأخلاق المهنة

مسألة إصدار الحكم

يقول أحد الصحفيين لآخر : "إذا رأيت رجلاً يغرق وكان بإمكانك أن تنقذه أو أن تصور الحدث ... فما نوع الفيلم الذي ستستخدمه؟"

(مقولة مجهولة المصدر)

إن التعود على عدم الاعتقاد بأن شيئًا ما خطأ يضفي على هذا الشيء نوعًا من الصدق الظاهري.

(توماس باين)

الفصل التاسع

سري للغاية

من البديهي أن يعتمد عمل الصحفيين على النقل، ولهذا فإنهم ينقلون المعلومات من مصادر محددة. والمطالب الثقافية تستلزم أن تكون المعلومات التي ينقلها الصحفيون معلوماً "حقيقية" ويمكن التثبت منها، بل ومتوازنة. لذلك، فمن الناحية التاريخية اعتاد مستهلكو الأخبار على الاعتقاد بأن ما يقرؤونه أو يشاهدونه أو يستمعون إليه هو الحقيقة. لكن تلك الحقيقة معرضة للخطر والمساومة باستمرار. على سبيل المثال، ربما يعلم مستهلكو الأخبار أن الصحف غالباً ما تبدو أقل جدارة بالثقة من أجهزة البث الإعلامي في نقل الحقيقة؟ أو أن البث التجاري في الولايات المتحدة لا يميل إلى الحيادية كما يتبناها بث الخدمة العامة في بريطانيا؛ أو أن الرأي أو الظن يمكن إخفاؤهما في طيات ما يبدو وكأنه رواية إخبارية صريحة.

على المستوى الظاهر للمعنى، ربما تكون المعلومات المنقولة عن طريق الصحفي حقيقية، لكن أساها الأيديولوجي محجوب. دائماً ما يتم سرد الروايات من وجهة نظر معينة، فمثلاً؛ تميل وسائل الإعلام الغربية إلى أن تكون مؤيدة للرأسمالية وتتميز باتجاه أمريكي أوروبي. مثل تلك الآراء ووجهات النظر، أو أطر أجهزة الإعلام، هي عبارة عن أسس ومبادئ الاختيار والتركيز والعرض التي تتألف من نظريات ضمنية بسيطة بشأن ما يوجد وما يحدث وما الذي يعتبر ذات أهمية. حسب رأي عالم الاجتماع تودجيتلين، تقوم هذه الأطر أنماطاً مستديمة للمعرفة والتفسير والعرض والاختيار والتركيز والإقصاء والتي من خلالها يحدد مستخدمو تلك الرموز نوع الخطاب سواءً كان شفهياً أو مرئياً.

كما يقوم الصحفي – كنمط محدد من معالجة الرموز – بترتيب الحقائق والوقائع، كما يقرر كيف يعرض الرواية وما لذي تتضمنه روايته وما الذي يعمل على استبعاده وإقصائه، وبذلك فإنه يؤثر بطريقة ما على ما يتصوره الجمهور كحقيقة. لاحظت دونا نالبر في بحثها عام 2009 عن الرقابة في البث الإذاعي كيف كان مثل هذا "التأطير" معروفاً منذ عام 1922 عندما اتهم الإذاعي والتر ليبمان وزملاؤه في الصحف والمحلات بخلق "بيئة كاذبة" من خلال طريقتهم في عرض وتقديم التفسيرات كحقائق خلال التبسيط الشديد والإثارة والمبالغة بحيث تكون النتيجة النهائية هي تضليل الجمهور. وأثناء تلك الفترة، كانت أخبار الإذاعة في واقع الأمر وسيلة يسيرة الاستخدام وميسرة للمستخدم؛ حتى الأمي من الجماهير كان يمكنه الاستماع إلى الأخبار كل يوم، وبذلك يصبح أكثر عرضة لإيجاد البيئة الكاذبة.

مع ذلك يري الفلاسفة من أمثال أمبرتو إيكو أن خطورة مثل هذا الإيمان الأعمى بالمصادر الإخبارية لا ينتهي عند هذا الحد. فتلك "الرسائل" مهما تم فيها من تشويه على يد "المرسل" مثلاً معرضة بصورة واضحة لما يسميه إيكو "التفسير الخاطئ" aberrant decoding من جانب "المستقبل". هذا هو الاصطلاح الذي يستخدمه إيكو لتفسير أحد النصوص باستخدام شكل مختلف من الترجمة عن الشكل الذي تم به إدخال النص. ومن المؤكد أن مثل هذا التفسير الخاطئ يشكل خطورة عالية على "الحقيقة" الأساسية والجوهرية داخل الرسالة. على سبيل المثال، ربما يكون استخدام أحد الصحفيين للسرية أمراً ضرورياً للرواية ولكن ربما أيضاً يُساء فهمها أو ربما تهمل بالكامل من جانب بعض الأفراد من الجمهور، خاصة أولئك الذين ينتمون إلى ثقافة مختلفة. ونفس الشيء غالباً ما "يهول" التفسير المثير من حجم الحدث إلى درجة اتجاهه نحو الصدق يتعرض للخطر من بداية عملية نقله. ومع ذلك فمن وجهة نظر آرثر سكوبنهاور (1788 – 1860) – الفيلسوف الذي يؤمن بأن الفن وليس العلم

يعد جوهر الفعل الإنساني – أن المبالغة من أي نوع ضرورية جداً للصحافة كما هي *ضرورية جداً لفن الدراما إذ أن هدف الصحافة هو نقل الأحداث على أبعد مكان ممكن. ولذا فإن جميع الصحفيين "مزعجون" في طبيعة عملهم وكتابتهم، وتلك هي طريقتهم لإخفاء عنصر التشويق على ما يكتبون.

رغم ذلك، ففي أسوأ الأحوال هناك عقد "فاوستي" **Faustian** بين الصحفي والجمهور بالتغاضي عن هذا التوجه المزعج الذي يلح إليه سكوبنهاور. وبذلك فإن هذا الاتفاق محصن ضد الأكاذيب العرضية وعدم التوازن أو الانحياز، خاصة إذا ما أتاحت المؤسسات الإعلامية وسائل لمراجعة تجاوزاتها السيئة. لكن هذا الاتفاق (الصفقة) أيضاً أن ينهار بسبب عمليات التشويه والانحياز والكذب وامتلاء أجندات الأخبار بالزيف والكذب.

ومع ذلك فإن الصحافة على وجه الخصوص قد امتلأت على مدى تاريخها بالعديد من الأمثلة التي تتطلب البحث في نزاهة أعمالها الروتينية العادية. ورغم أن القانون ربما يكون هو المرجع الأخير لإثبات عدم الشرعية إلا أنه ليس محل ثقة فيما يخص النزاهة. لذا فقد نشأ عبر مرور الزمن إحساس بأن الصحافة عمل تجاري يتمتع بالتنظيم الذاتي، حتى وإن ظل البعد الأخلاقي بها مضللاً. ورغم أن كلمة الأخلاق **ethics** ظهرت أثناء مناقشات تمت في عام **1850** إلا أنها ظلت نادرة الاستخدام خلال الثمانينيات من القرن التاسع عشر. كان الكتاب بوجه عام يستخدمون كلمة مغزى **moral** للإشارة إلى أحد السلوكيات الصحفية المرغوب فيها.

هذا الفصل والفصل الذي يليه سنذكر فيهما بعض الأمثلة وبعض دراسات الحالة، وهما يعتبران محاولة لشرح الأساس المقلقل للتفكير الأخلاقي على مدار الزمن بالإضافة إلى الآراء السائدة حول مسألة المشهد الإعلامي الحديث. لذلك نرى أنه من المناسب جداً أن نبدأ بطرح سؤالين أساسيين: ما هي أخلاقيات

الصحافة؟ وكيف يمكن أن تساعدنا الأمثلة التاريخية على فهم الممارسة الحالية؟

أخلاقيات من ؟

إحدى الإجابات البسيطة على المستوى البرجماتي تقول إن أخلاقيات الصحافة يمكن وصفها بأنها مجموعة من القواعد التي ترشد إلى سلوكيات الصحفيين عند مواجهتهم لأية مشكلات مثل تعارض المصالح والسرية وحماية المصادر. إذا ما كانت الصحافة ينظر إليها كمهنة أم لا - وهذا أمر لا يزال يمثل مسألة مختلفاً عليها ومثار نزاع - وتلتزم بمجموعة من القواعد (إن شئت أن تسميها الرموز الأخلاقية) حتى وإن كانت عملاً تطوعياً، فهي في النهاية تحفل بالعديد من الصعوبات ومع ذلك يبدو الأمر لأول وهلة بسيطاً نوعاً ما. فالصحفي لديه مجموعة من الأخلاقيات ويقوم بتطبيق تلك الأخلاقيات يومياً دون خوف أو انحياز. لكن - بنفس الدرجة - يعتبر الصحفيون عرضة على الأقل لخمسة ضوابط أخلاقية مختلفة وربما تكون متناقضة بصورة يومية. وكل ضابط من تلك الضوابط يمكن أن يساير أو لا يساير المغزى الخاص بالصحفي أو الرموز المقبولة أو السلوكيات الخاصة بالمؤسسة الإعلامية.

لذلك فالأمر الأول هو أن يتم إرشاد الصحفي من خلال معاييره الأخلاقية الخاصة به والتي نشأت وتطورت للتفاعل المعقد بين التربية والعقيدة الدينية، أو الافتقار إليهما معاً، والخبرة الشخصية أو الانتماءات السياسية إن وجدت والتكيف الثقافي والاجتماعي. بالطبع ليس من المحتمل أن تتكرر مثل تلك المعايير لدى الآخرين، كما أنها قد تكون أكثر صرامة، أو ربما تكون أكثر تساهلاً بكثير مما تتطلب القيود القومية أو المحلية.

ثانياً، غالباً ما يرتبط الصحفي - إما بقوة أو بضعف - بالمعايير الأخلاقية

لرئيس التحرير. ومن الصعوبة بالطبع قياس أخلاقيات رئيس التحرير. فمثلاً عندما عمل دونال ماكلينتاير كمراسل لصحيفة الصنداي تايمز البريطانية واجه معركة عنيفة دارت حول تقاريره الصحفية عن إضراب عمال المناجم (1984 – 1985) فقام رئيس التحرير بالضغط عليه لكي يلتزم بموقف أقل انتقاداً تجاه المجلس القومي للفحم وتجاه الحكومة. وفي نهاية الأمر اضطر إلى أن يترك الصحيفة بحثاً عن ظروف أكثر مواءمةز

ثالثاً، على المحررين الصحفيين أن يضعوا في اعتبارهم المعايير الأخلاقية لمالك الصحيفة. وتلك المعايير ربما تختلف وتتنوع، فتختلف مع معايير الصحفي الأخلاقية ومع معايير رئيس التحرير أيضاً. في تعليقه على صحف بيفربروك في عام 1977، ذكر فيكتور ماتيوس مقولته الشهيرة: "على الهموم، سيتمتع رؤساء التحرير بالحرية التامة طالما يتفقون مع السياسة التي أضعها". والفشل في وضع تلك العقيدة في الحسبان سيكون له نتائج خطيرة. فروبرت ماكسويل – الذي يعرف الجميع أنه مالك صحيفة الديلي ميرور من عام 1984 وحتى وفاته في عام 1991 – كان يعرف عنه أيضاً استخدام أسلوبه الشخصي وإدارة ملكيته. في بداية حياته المهنية عام 1975، استثمر بعض أمواله في مجموعة صحف اسكتلندية كانت "تحتضر"، وأصدر صحيفة جديدة أطلق عليها صحيفة سكوتيش ديلي نيوز. فشلت الصحيفة لكن خلال عمرها القصير وعد ماكسويل بتوفير المزيد من الدعم المالي طالما رفع العمال إنتاجهم إلى الضعفين ليستحقوا مثل هذا الدعم. كما دون جوهاينز في السيرة الذاتية التي كتبها ماكسويل: "قرر عمال مطابع الاتحاد القومي للصحفيين أن هذا ليس سوى خصم من مرتباتهم. وزاد العداء عندما اشترك ماكسويل بكتابة عمود للصحيفة فأبلغت لجنة المطبعة رئيس تحرير الصحيفة بألا يقوم بطبع أية إسهامات أخرى من هذا الرجل الذي يعتبر مالكاً ولكنه ليس صحفياً". وبعد عشر سنوات كتب ماكسويل مقالة افتتاحية في صحيفة الديلي ميرور بعنوان

"شارع فليت. انتهى الحفل". وقـرر فعـلاً أن يقـوم بتخفـيض عـدد الأيـدي العاملـة في مجموعـة صحف ميرور للحد من الخسائر التي منيت بها الصحافة. شاء القدر أن تم طبع وإنتاج الصحيفة على يد العديد من العمال الذين كان ماكسويل قد قرر الاستغناء عنهم. ومـع ذلـك، ففـي هـذه المرة لم تجر أية محاولة لكبح جـماح "المالـك" سـوى أنـه كـسب الجولـة مـرة أخـرى بلعـب دور الصحفي. كان ماكسويل من قبل قد حكم إمبراطوريته بمزيج من الخوف والرعاية.

رابعاً، في محراب "الشراك" الأخلاقية هناك تقدير – إن لم يكن فهم – لطريقة اسـتجابة الـشركات المعلنة بصحيفة ما للرواية. فتصنيع الصحافة كان يعني أن رأس المال الضخم المطلـوب لاسـتهلال أية صحيفة ولتوفير النجاح لها لابد من دعمه بعوائد معقولة من الإعلانات . رغم أنه من الظلـم أن نقول إن المعلنين دائماً ما يتدخلون في خيارات عمل هيئة التحرير، إلا أن هناك دلـيلاً عـلى أن الحساسيات والضرورات التجارية للمعلنين لابد أن توضع في الحسبان.

دونالد تريطفورد كان رئيس تحرير صحيفة الصنداي أوبزيرفـر في بريطانيـا عنـدما كتـب مقالاً في أبريل عـام **1984** يـذكر فيـه أن القـوات المـسلحة لـدول زيمبـابوي كانـت تقـوم بتعـذيب وقتـل المـواطنين في إقلـيم ماتابيليلانـد المنـشق. وهـذا وضـع مالـك صـحيفة الأوبزيرفر "رولاند الصغير" في موقف صعب. فشركته "لونرو" لهـا مـصالح تجاريـة كبـيرة في زيمبابوي فأخذ رولاند صديقه تريلفورد أن يـسحب مقالتـه. رفـض تريلفـورد وسـانده أعضاء هيئة التحريـر والعـاملين ولكـن يـم يكـن أمـام رولانـد أدنى خيـار سـوى التراجـع عن موقفه. ورغـم أن تريلفـورد – كـرئيس تحريـر – "كـسب هـذه الجولـة"، كـان ذلـك بالفعـل عـلى حـساب عوائـد الإعلانـات. فـشركات الإعلانـات – دون شـك – يحجمـون عـن تصنيف محاولاتهم لتصحيح قيم الأخبار بناءً على وجود بُعد أخلاقي، لكن بالنسبة للصحفي مـن الـصعوبة لديـه أن يقـوم بنـشر الروايـة التـي تـدعو مبـاشرة إلى التـشكيك في نزاهـة

المعلن.

وأخيراً، على كل الصحفيين مـن كـل حـدب وصـوب أن يفهمـوا جيـداً أن جماهـيرهم مـن القـراء والمستمعين والمشاهدين مشاركون في الفرضيات الأخلاقية التي تتضمنها أية رواية إخباريـة. فكـل الروايات تتضمن مجموعة مختارة من التفسيرات الممكنة (والمقبولة) التي يتمخض عنها حـدث اجتماعي ما. هذه المجموعة المنتقاة حتماً تسيطر عليها عمليات إعلامية إرباك صورة مـا يـسمى بالموضوعية والانحياز وحتى الحقيقة ذاتها. لذلك، إذا كان القراء على استعداد مثلاً لتوجيه اللـوم لإحدى الصحف لنشرها رواية معينة أو صورة ما بطريقة تسبب لهم الانزعـاج، فلابـد أن يكونـوا على استعداد بنفس القدر لتوجيه اللوم لأنفسهم لأنهم قد "استهلكوا" هـذه الروايـة والجريـدة، وذلك لأنه لا توجد رواية تكتمل عملياً حتى يتم تفسير المعنى الـذي ترمـي إليـه؛ أي حتـى يـتم "استهلاكها"، وذلك بقراءتها.

السلوك والممارسة – فهم الرموز

في حين تعتبر نظم الانضباط **codes of conduct** ظـاهرة كبـيرة تـرتبط بـالقرن العـشرين، إلا أن سيطرة الصحافة على وجه الخصوص – سـواءً منهـا الـسيطرة العلنيـة أو الـسيطرة الخفيـة – لهـا تاريخ طويل يناهز تاريخ الصحافة نفسها. فقبل عـام 1695 كانـت الـصحف والـدوريات في كـل أنحاء بريطانيا تخضع لرقابة الدولة، من خلال غرفة "ستار" في أول الأمـر، ثـم مـن خـلال قـانون "تنظيم الترخيص" عام 1643. تحت مسمى هذا القانون، يتم تدوين أسـماء المـؤلفين والنـاشرين وأصحاب المطـابع في "مجمـع الـصحفيين" **Stationers' Hall** وكـل مـنهم معـرض للقـبض عليـه وسجنه إذا ما اعتبرت كتاباته مناهضة للحكومة.

تحت وطأة اتساع مساحة الحريات في عصر الإحياء، انتهى الأمر بقانون التراخيص إلى أن يتوقف العمل به في عام 1695. كانت الصحف والدوريات منذ ذلك التاريخ تدار وتنظم بقوانين التشهير التي تطبق على الجميع، بالإضافة إلى قوانين التزييف والازدراء والمجون والعصيان. على سبيل المثال تم استخدام قانون التشهير ضد رواية "أقصر الطرق للمنشقين" لدانييل ديفو Daniel Defoe في عام 1702. تشتمل القيود المفروضة على الإعلام في الوقت الحالي على قوانين تجريم إفشاء الأسرار الرسمية، والمجون (السكر) والعصيان وازدراء الأديان، بالإضافة إلى القوانين المدينة الخاصة بالتشهير وانتهاك السرية.

في الولايات المتحدة استطاع التعديل الأول للدستور الحفاظ على حرية الصحافة. ولكن - كما كان في بريطانيا - كانت الصحف الأمريكية تخضع للقانون العام للدولة. انتهاك الخصوصية مثلاً يمكن أن يعتبر إهانة أو ارتكاب خطيئة أو تنصتاً: لقد كلت المحاكم في الولايات المتحدة من التورط المستمر لها في اتخاذ قرارات تخص ذوق الصحفيين ولياقتهم وتحشمهم، وبوجه عام لا يسمح لنا بالتعدي على حقوق الصحفي التي نص عليها التعديل الأول بحيث نكتب عن أي شيء يمكن أن يستغل ضد مصلحة الجماهير. في بريطانيا يستطيع الفرد أن يثير أحد القيود السابقة للحصول على أمر من قاضي أية غرفة من الغرف ليمنع وسائل الإعلام من نشر رواية معينة.

على عكس الاتجاهات السائدة في كل من الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، حرص العديد من الدول الأوروبية إلى حماية الحرية والخصوصية بنوع من الغيرة. فكان أول قانون خاص بحرية المعلومات في العالم هو قانون "حرية الصحافة" الذي أصدره البرلمان السويدي "الريكسداج" The Riksdag عام 1766. أما التقصير في مسئولية الحفاظ على الحياة الخاصة (الخصوصية) فقد عُرف في فرنسا لأول مرة عام 1858. كما كانت السويد أيضاً من أوائل الدول الأوروبية

في إعداد قانون ومجموعة أحكام تغزز هذا القانون. هذه الدول - التي تنتمي الآن إلى الاتحاد الأوروبي - ضمنت الاتفاقية الأوروبية بشأن حقوق الإنسان عموماً في تشريعاتها الداخلية. وقد قامت الحكومة البريطانية بذلك في عام 1998 وأصبح الاتفاق قانوناً وتم تفعيله بذلك في المحاكم البريطانية في أكتوبر عام 2000. تضم الاتفاقية ثلاث مواد تتعامل مع الخصوصية من ناحية، ومن ناحية أخرى مع حرية التعبير. تذكر المادة الثامنة أن "كل فرد لديه الحق أن ينال الاحترام لحياته الخاصة والعائلية، ولبيئته ومراسلاته". وتذكر المادة العاشرة في جزء منها أن "لكل فرد الحق في حرية التعبير. وهذا الحق يشمل حرية إبداء الرأي واستقبال وإرسال المعلومات والأفكار دون تدخل السلطات العامة بغض النظر عن الحدود".

نظم الانضباط والسرية (الخصوصية)

لو قبلنا أن الخبر - كما قال اللورد نورثكليف - "هو ما يتمنى شخص ما في مكان ما أن يعيقه ويمنعه، وأن كل شيء فيما عدا ذلك يعد إعلاناً" إذاً فإن انتهاكات الخصوصية السرية والأساليب "الإجبارية" الأخرى في جمع الأخبار يمكن أن تعتبر جوهر الصحافة الجيدة. ورغم ذلك فحتى الصحافة الجيدة تحتاج إلى أن تمارس بالاجتهاد والمبادئ. ففي "أخلاقيات أجهزة الإعلام والتنظيم الذاتي" يذكر كريس فروست أن "انتهاك السرية هو مسألة تهم الناس بوجه عام". وبما أن الأمر كذلك، فهي مسألة تعتبر حديثة نسبياً ازدادت حدة في النصف الثاني من القرن العشرين بسبب الهوس الإعلامي الشديد بحياة المشاهير وقصص الحب المثيرة لديهم. وبالطبع لا يمكن أن ننكر أن مفاهيم الخصوصية تعد مفاهيم عزيزة على قلوب "الفيكتوريين".

كتب الفيلسوف والشاعر الأمريكي رالف والدو إميرسون في "إنجليش تريتس" البريطانية: "إن الدافع والغرض من تجارتهم وإمبراطوريتهم هي حماية

الاستقلالية والخصوصية لبيوتهم". هذا الولع بالحياة المنزلية تتضمنه الحكمة القائلة: "إن منزل الرجل الإنجليزي هو قلعته". في بريطانيا أثناء العصر الفيكتوري أصبحت فكرة الصحافة كأداة لانتهاك الحياة الخاصة جزءاً من الوعي العام. على سبيل المثال، أثناء التحقيق في جريمة قتل بشعة لأحد الأطفال في ويلتشاير عام 1860، تسلل أحد الصحفيين العاملين بصحيفة باث كرونيكل إلى داخل روود هيل هاوس (المكان الذي ارتكبت فيه الجريمة) في ملابس بوليس سري، وقام بتدوين ملاحظاته عن الوضع. بعد ذلك بخمسة أيام نشر بالصحيفة مسودة غير صحيحة. فلم يكن هناك أية تسجيلات لاتخاذ أي إجراء ضد الصحفي أو ضد الصحيفة. أما اليوم تتطلب نظم السرية والانضباط أن يعرض رؤساء التحرير مبررات عمليات التطفل على حياة الناس الخاصة دون موافقة الجهات المختصة.

إذاً لماذا أصبحت الحياة الخاصة مسألة "ساخنة"؟ هناك إحساس بأن الصحفيين العاملين بالصحافة المطبوعة على وجه الخصوص أساءوا استغلال موقعهم لعدة سنوات عند قيامهم بجمع الأخبار من الحصول على أية معلومات من طريدتهم إما "بالانتظار أمام الباب" - أي الانتظار على عتبة الباب من أجل الحصول على مقابلة أو لقاء أو صورة - لاستدراج معلومات من الشخص المنشود مع ادعائهم أو تقمصهم لشخصيات غير شخصياتهم أو بارتداء ملابس للتنكر.

ملف حقائق

ضوابط الخصوصية في الولايات المتحدة الأمريكية

توجد بالولايات المتحدة ضوابط أكثر مما يمكن أن تتخيل. فالافتقار إلى الصحافة القومية التي تضم جميع الأطياف قد أدى بالصحف إلى إيجاد الضوابط الخاصة بها بعدد يفوق الضوابط في بريطانيا أو أية دولة أوروبية

أخرى. ومع ذلك فنظرة خاطفة على الضوابط الرئيسية توضح أن القليل منها يتعلق بمسائل الخصوصية. فمثلاً لا يحتوي كتاب والتر ويليامز "عقيدة الصحفي" على أية عبارة بشأن الخصوصية. ومع ذلك ففي عام **1910** تشتمل "مدونة كناس لقواعد السلوك" التي اعتمدتها جمعية كناس للتقرير الصحفي عبارة في النهاية وعنوانها "حدود النشر"، تقول تلك العبارة: "إن اسم الشخص أو سيرته من ملكيته الخاصة وتعتبر الجمعية هي المسئولة عن تحديد نقطة تحولهما من الحالة الخاصة على الحالة العامة". ولكن حتى في حين فهمنا لفكرة الخصوصية لا يزال هذا الضابط متناقضاً مع معناه الحقيقي وخاصة النقطة التي يتحول فيها الخاص إلى العام.

أصدرت الجمعية الأمريكية لمحرري الصحف "شرائع الصحافة" **Canons of Journalism** في عام **1923** - تمت مراجعتها وإعادة طباعتها في عام **1975** - وهي أحد الضوابط القليلة التي تشير إلى الخصوصية. تذكر المادة السادسة تحت عنوان "اللعب النظيف" **Fair Play** أن الصحفيين ينبغي عليهم احترام حقوق الجماهير التي تتعامل مع الخبر".

أصدرت جمعية الصحفيين المهنيين "ضوابط الأخلاق" **Codes of Ethics** في عام **1973** واعتمدت النسخة المراجعة منها في عام **1996**. وهي تشتمل على فقرة تعترف بأن "الجماهير لها الحق في السيطرة والتحكم في المعلومات الخاصة بهم أكبر من الحق الذي يتمتع به الموظفون العموميون وأصحاب السلطة أو النفوذ أو الاهتمام. والضرورة العامة الملحة فقط هي التي تعد مبرراً للتدخل في الحياة الخاصة لأي فرد".

بالمثل، تتيح الضوابط التي تتعلق بالبث الإذاعي القليل جداً من التوجيهات نحو مسألة الخصوصية. أحد التوجيهات التي يمكن ذكرها هو "مدونة

ضبط الأخلاق والممارسات" Codes of Ethics and Practices التي تم تفعيلها في عام 2004. في الفصل الثامن "السلوك الأخلاقي في تغطية الأخبار"، تذكر الفقرة السابقة: "على الصحفيين توخي الحرص عند التفكير في الحدود بين المتابعة الصحفية وحق الفرد في الحياة الخاصة".

إن لاعبي دوري كرة القدم الممتاز، والأساقفة، والممثلين، ورئيس هيئة أركان الدفاع، والرياضيين، وأعضاء البرلمان، والقضاة، ومذيعي النشرات الإخبارية بالتلفزيون، وكبار ضباط الشرطة، وصغار المشاهير، وكل هؤلاء قد لجأوا إلى المحاكم وفي جعبتهم العديد من القوانين المختلفة يسعون بها إلى حماية أنسفهم مما يرون أنه صحافة شعبية Tabloid Press جشعة وخارجة عن السيطرة. ولكن رغم الكم الهائل من السخط خلال الخمس عشرة سنة الماضية تقريباً تبنت الحكومة الأمريكية وجهة النظر بأن تشريع قانون للخصوصية ليس هو الحل. ويمكن القول نوعاً ما بأن عدم وجود دستور مكتوب في بريطانيا كان يعني أن حرية الصحافة ذاتها تبقى "بساطة فكرة؛ مجرد فكرة، ولكن لم تكن أبداً قانوناً في بريطانيا". فلا عجب إذاً إذا ما كانت مفوضية الشكاوي من الصحافة مثلاً قد أصدرت 245 قاعدة منظمة في عام 2007؛ حوالي 20% من إجمالي القواعد تم إعلانها في ذلك العام وما تلاه، ثم 14% منها في عام 1996.

ملف حقائق

ضوابط الخصوصية في بريطانيا العظمى

تنظم الصحافة البريطانية بضابطين رئيسيين هما: مدونة ضبط السلوك للاتحاد القومي للصحفيين التي تمت صياغتها لأول مرة عام 1936 ومدونة ضوابط الممارسة الخاصة بمفوضية الشكاوي من الصحافة التي وضعت

أطرها عام 1991. تشمل مدونة الاتحاد القومي للصحفيين 14 فقرة. تتعلق الفقرة 6,5 بالخصوصية. تذكر الفقرة الخامسة: "يحصل الصحفي على المادة الإعلامية بالوسائل الأمنية الواضحة والعلنية باستثناء التحقيقات التي تتعلق بالصالح العام والتي تشمل على أدلة لا يمكن الحصول عليها بالوسائل الواضحة". وتذكر الفقرة السادسة: "لا يقوم الصحفي بالتدخل في حياة الفرد الخاصة – سواءً في الحزن والضيق – إلا إذا دعت الضرورة ذلك للصالح العام".

في عام 1989 شكلت الحكومة البريطانية "لجنة الخصوصية" يرأسها ديفيد كالكوت استجابة "للاهتمام العام بالتدخل في حياة الأفراد من جانب أقسام معينة من الصحافة". وأوصى تقرير اللجنة في يونيو عام 1990 بعدم إصدار أي قانون يخص مسألة الخصوصية. ومع ذلك فقد تبنى كالكوت في ورقته المقدمة في يناير عام 1993 عن مراجعة التنظيم الذاتي للصحافة وجهة نظر ترى أن التنظيم الذاتي للصحافة قد فشل فعلاً، فأوصى بأنه "على الحكومة أن تعطى أولوية لتقديم مجموعة قوانين جديدة لخرق الخصوصية". لكن في عام 1995 ذكرت حكومة المحافظين برئاسة رئيس الوزراد جون ميجور أن "الحكومة ليست لديها أية خطط حالية لتقديم أي ما يخص مسألة الخصوصية".

كانت مدونة ضوابط الممارسة الخاصة بخصوصية الشكاوي تسير على نمط مقترحات لجنة كالكوت تقريباً، وتتعلق المادة 3 على وجه الخصوص بمسألة الخصوصية:

1. كل فرد له الحق في أن ينال احترام حياته العائلية الخاصة وبيته وصحته ومراسلاته، بما فيها الاتصالات الرقمية. ويطلب من رؤساء التحرير إيجاد المبررات لأية تدخلات قد تتم في حياة أي فرد

دون موافقته.

2. لا يقبل تصوير أي فرد في الأماكن العامة دون موافقته على ذلك.

كان لإذاعة البي بي سي – كإذاعة خدمات عامة] أي حكومية [ضوابطها الأخلاقية الخاصة بها ويطلق عليها "التعليمات الإرشادية للبي بي سي" BBC Guidelines. والمؤسسات الإعلامية البريطانية بوجه عام تنظم عن طريق هيئة حكومية شبه مستقلة (وهي أوفكوم Ofcom) تم إنشاؤه كمؤسسة متكاملة بقانون هيئة الاتصالات في عام 2002. وهي تتمتع بمسئوليات عبر التليفزيون والإذاعة والاتصالات عن بعد وخدمات الاتصالات اللاسلكية.

ويتم تنظيم هيئة الإذاعة البريطانية بصورة منفصلة من جانب هيئة صندوق البي بي سي. إذاً فالصحفيون العاملون بالبث الإذاعي يعملون في ظل نظام قانوني للضبط يعكس بصورة فاعلة مبادئ الخدمة العامة بغض النظر عما إذا كانت أجهزة الإعلام تجارية أو عامة. أما العقوبات فهي مجرد غرامات أو – في أسوأ الحالات – الحرمان من الترخيص بالبث.

خاص وسري

الكتابة نع الناس هي جوهر مهنة الصحفي. ومع ذلك فإن أدوات التعريف المحددة – بغض النظر عن السياق المتعلق بتلك الأدوات مثل السن أو الوظيفة – نادراً ما تمثل جزءاً من الأعمال الروتينية التقليدية لجمع الأخبار. لذلك كان هناك ضمان لمستوى معين من السرية أو عدم الكشف عن الهوية بشأن من يشمله الخبر من الناس. من ناحية أخرى حطت إعادة إنتاج الخبر أو الصورة مثل هذه السرية بضربة واحدة. كما أنها أدت إلى بدء التغيير في العلاقة بين الشخص الذي يشمله الخبر والصحفي والقارئ. فلأول مرة أصبح الفرد كياناً

معترفاً به. فقد أضافت الصور اللحم إلى العظام، وخلال تلك العملية - بنوع من القدرة السحرية - أسبغت على بعض أفراد معينين لمحة أسطورية. واليوم، نعرف هؤلاء الناس كمشاهير، وربما تصدق إن قلنا بأننا قبل ظهور الصحافة كنا نستطيع أن نتخيل بسهولة عادات المشاهير كما نضفي عليهم سمات لم تكن موجودة. وليس من سبيل المصادفة أن استخدام كلمة "المشاهير" **celebrity** لتعني "الأشخاص الذين ينالون الشهرة" وإصدار أولى الصحف والمجلات المصورة يرجع تاريخها إلى منتصف القرن التاسع عشر. وبمجرد أن برزت الصورة كجزء أساس في وليمة الأخبار، اتضح على الفور أن نشر صورة لأي فرد من المحتمل أن يعد تطفلاً على خصوصيته أكثر مما تعد الكلمات المجردة من الصورة في حد ذاتها.

كانت أولى الصحف المصورة التي ظهرت في بريطانيا تسمى "أخبار لندن المصورة" **Illustrated London News** وصدرت عام 1842. وأول صحيفة يومية مصورة كانت "الصحيفة المسائية المصورة" **The Evening Illustrated paper** التي ظهرن عام 1881. كانت الصورة الأولى عبارة عن نقوش خشبية، وأولى الصور الإخبارية كان لابد من حفرها ونقشها قبل أن يتم طباعتها. وكانت صحيفة النيويورك ديلي جرافيك أول صحيفة تنشر أول إعادة إنتاج كصور مائية **halftone** لصور إخبارية عام 1880 وبحلول عام 1887 أمكن طباعة الصور المائية في الصحف التي تطبع بالمطابع عالية السرعة. كانت صحيفة الديلي ميرور - الذي استهلها ألفريد هارمسوورث (المعروف فيما بعد باسم اللورد نورثكليف) عام 1903 - أول صحيفة يومية صباحية تثني على نفسها بأنها صحيفة الصور. ولقد مرت بعدة تغييرات وتعديلات قبل أن يجد نورثكليف الشكل الصحيح لها. فإحدى صفحاتها الأولى المبكرة مثلاً كانت تشتمل على نص إخباري وصورتين من الحجم الكبير، واحدة لأحد الخونة وأخرى لإحدى الممثلات.

ظهر أيضاً أو الأفلام في نفس وقت ثورة صحف نورثكليف وأولى دور العرض السينمائي الدائمة. فتم افتتاح دار العرض نيكوديون في بيتسبيرج بولاية بنسالنانيا عام 1905. وبحلول عام 1912 بدأ الممثلون يتلقون عروض الأفلام، وظهر نظام "النجم" السينمائي الذي أتاح فرصة لتوفير العديد من الصور التي بدأت الصحف بدورها في نشرها على صفحاتها. أحد الأفلام المتميزة وهو فيلم "ميلاد أمة" **The Birth of a Nation** ظهر في عام 1915. وكان عبارة عن عمل درامي يدور حول الحرب الأهلية الأمريكية، وأخرجه دي دبليو جريفيث وأصبح أول "معشوق" في هوليود رغم أن الفرنسيين كانوا قد عملوا في صناعة السينما قبل الحرب العالمية الأولى. وبالطبع لم يتوان الصحفيون عن استغلال حب الجمهور للسينما باستخدام صور النجوم. وفي عام 1912 أتاحت الصور السلكية الفرصة لبث مثل تلك الصور بنفس سرعة بث الخبر. في نفس الوقت أصبحت "أخلاقيات إعادة الإنتاج" **ethics of reproduction** – أي الطريقة التي تنتج بها الصحيفة صورها – مثاراً للقلق لأنها عملت على نشلا الأخبار المختلطة لأول مرة. فعلى النور قامت الصحف بنشر صور المجرمين وذوي السمعة السيئة والأجسام الغريبة، وخاصة في بريطانيا كانت تعش الصحف نشر صور العائلة الملكية.

انتهاك الخصوصية

إن طريقة نظر الصحفيين إلى مسائل الخصوصية قد تأثرت إلى حد ما بموقف الحاكم من الانتهاك المفترض للخصوصية. على ما يبدو أنه كانت هناك مجموعات مختلفة من القواعد الخاصة بالأفراد العاديين من الجمهور بالمقارنة مع المشاهير. ولكن حتى المواطن العادي الذي يمكن أن يكون واثقاً في قدرته على أنه يكون شخصاً خاصاً أو هاماً لا يمكنه أن يعول على الصحفيين في احترام خصوصيته. إن غالبية روايات انتهاك الخصوصية يمكن الاعتراض عليها بناءً

على المعايير وأصول اللياقة والأخلاقيات.

أحد الشخصيات المبكرة التي يوضح استعراضها الخط الفاصل الدقيق بين التعامل المختلف مع المواطنين العاديين عن المشاهير هي شخصية ويليام سيديس. فسيديس كان يتمتع بعبقرية لا نظير لها فقد حصل في اختبار معامل الذكاء IQ على درجات ما بين 150 إلى 300، وكان يتحدث أكثر من 200 لغة، كما كان يستطيع أن يتعلم أية لغة في يوم واحد. وقد التحق بجماعة هارفارد وهو في سن 11 سنة ولكنه اكتسب سمعة سيئة عندما قبض عليه في عام 1919 لاشتراكه في استعراض "عين مايو" بولاية بوسطن. ولذلك أصبح شخصاً منعزلاً ولكن في عام 1937 نشرت صحيفة النيويوركر مقالاً عنه - كتبه جيمس ثندر باسم مستعار - كجزء من سلسلة مقالات تدور حول الاستفسار عما حدث للأشخاص الذين يشتهرون لفترة محدودة، وكان عنوان سلسلة المقالات "أين هم الآن؟"

رغم أنه لم تتم أية محاولة للاتصال بسيديس إلا أن المقالات وصفته بأنه يعيش في شقة قذرة في أسوأ منطقة بساوث إند بولاية بوسطن. كما صورته السلسلة بأنه محب للعزلة وقد فشل في أن يعيش أو يشعر بشبابه. رفع سيديس دعوة قضائية على المجلة يتهمها بانتهاك خصوصيته، وادعى أن المقال كان يمتلئ بالأخطاء والأكاذيب. كانت المقالة الفرعية "أبريل الغريب" تفسر ما رأته الدائرة الثانية لمحكمة الاستئناف من إساءة للسيد سيديس. وركزت المجلة على "الطرق الغريبة" التي استعرض سيديس عبقريته من خلالها مثل ولعه بجمع مواعيد تنقلات الترام (وكان قد كتب بحثاً من 300 صفحة عن هذا الموضوع تحت اسم مستعار هو فرانك فالوبا بالإضافة إلى العديد من الكتب الأخرى). ذكر الدكتور أبراهام سبيرلنج الذي كتب مقالاً عن سيديس عام 1945 بعنوان "قصة عبقري" عن سيديس: "إن التفكير في أن يصبح سيديس شخصية

عامة مستبعد تماماً لديه، فقد رفض كتابة اسمه على أية كتابات له، كما خفض الكثير من عروض المبالغ المالية الكبيرة التي عرضها عليه الناشرون الذين لم يوافقوا على استخدام اسمه المستعار. في عام 1930 حصل سيديس على براءة اختراع بعد ابتكاره لأسلوب التقويم السنوي الدوار الذي يراعي السنوات الكبيسة. وبعد ذلك، من خلال اختبار حياته العملية تبين أنه مصاب بالتوحد. ورغم أن المقال الذي كتب عن سيديس كان مقالاً ظالماً ويحتوي على العديد من التفاصيل غير المرغوب فيها، إلا أن دعواه رفضت. يذكر سيجيل أن المحكمة أيدت مبدأ حرية الصحافة وفضلته على حق الأفراد الاحتفاظ بالخصوصية، وكانت أسباب واهنة نوعاً ما.

كتب القاضي سوان: "أحياناً ما تهيمن المصلحة العامة في الحصول على المعلومات على رغبة الفرد في الاحتفاظ بالخصوصية"ز ومن المؤكد أن تلك قضية - كما قال القاضي - تملك فيها مجلة النيويوركر الحق للرد عل سؤال في غاية الأهمية وهو هل سيديس عاش ليحقق طموحه ويفي بوعوده؟ إن الإجابة على هذا السؤال لا تحل شيئاً بل تمثل صعوبات إزاء السياسة العامة. فبعد كل ذلك، كيف يمكن أن نحدد ما إذا كان تعامل المجتمع مع المواهب الإعجازية للطفل أكثر نفعاً من البحث في حياته عندما يبلغ الرشد.

ربما تعتبر حجة القاضي سوان في هذه الأيام مراوغة لأنه من الصعب القول بأن سيديس قد تخلى عن حقه عن طريق أي فعل من أفعاله. صحيح أنه ابتعد عن المجتمع ليعيش حياة هزيلة واضعاً في اعتباره أن سنوات "شهرته" قد انتهت منذ زمن بعيد. لقد أصبحنا بالطبع على دراية بسمة "أين هم الآن"؟ التي تتسم بها الصحف والمجلات الحديثة. أصبحت الصحافة أكثر اجتهاداً في عملية البحث، ودائماً ما تضطر إلى التفاوض مع العملاء ممثلي العلاقات العامة بالإضافة إلى

المشاهير أنفسهم.

الخصوصية وخرق السرية والشهرة

مشكلة سيديس الحقيقية هي أنه كان شخصية "شهيرة" celebrity ومن المعتاد أن المحاكم كانت تصر على أن الذين يعيشون بفضل الشهرة لابد أيضاً أن "يموتوا" بواسطة الشهرة. مثل هذه المقولة حتماً تظهر للعيان الفرق بين "الشخص المشهور" والمواطن العادي. وفي حالة ما إذا كانت الخصوصية هي القضية المنشودة فإن الشخص المشهور سيشعر بأنه قد وضع في موضع صعب. في عام 1964 على سبيل المثال، نظرت إحدى المحاكم في ولاية ألاباما قضية عن صورة كانت صحيفة ديلي تايمز الديمقراطية لامرأة (فلورا بيل جراهام) كانت تيارات الهواء الصناعية في أحد العروض المحلية قد رفعت تنورتها وهو ما يعد انتهاكاً لخصوصيتها. حكمت المحكمة بأن الصورة – التي كشفت عن سروالها الداخل – لا تستند إلى نص قانوني يجعلها خبراً مشروعاً يهتم به الجماهير. ولذلك أصدر حكماً بمكافأة المدعية بمبلغ 4166 دولاراً لانتهاك خصوصيتها. هل كان من الممكن أن يختلف القراء عن ذلك إذا ما كانت فلورا بل جراهام شخصية مشهورة؟

في رأي البعض، يصور القانون الإنجليزي الخصوصية كنوع من السرية confidentiality. والأمثلة على تلك السرية كثيرة، فمنها مثلاً المعلومات التي تتداول بين المحامي وموكله، وبين الطبيب والمريض، وبين الزوج والزوجة (أسرار زوجية)، وبين القسيس والتائب، وبين صاحب العمل والموظف. وفي مثل تلك الحالات يمكن أن يؤدي نقل مثل تلك المعلومات دون إذن مسبق إلى طرف ثالث (كصحفي مثلاً) إلى اتخاذ موقف قانوني. مثل هذا الموقف عبارة عن "معالجة مدينة توفر الحماية ضد استخدام أو الكشف عن المعلومات التي لا يطلع عليها الجمهور ونالت الثقة والسرية في ظروف تفرض ألا يكشف عن تلك

الحقائق دون إذن الشخص المضطلع بها".

عندما أقامت عارضة الأزياء الأولى ناعومي تشامبل دعوى قضائية على صحيفة الديلي ميرور في عام 2002 بعد أن نشرت الصحيفة مقالاً حول حضورها جلسات "المدمن المجهول" لتتخلص من عادة إدمان المخدرات، كسبت القضية التي كان يطلق عليها في ذلك الوقت "قضية الخصوصية الشهيرة". كانت الصحيفة قد نشرت صوراً لتشامبل خارج العيادة. ومع ذلك قال القاضي بأنه رغم أن الصحيفة تتمتع بحق الكشف عن إدمان عارضة الأزياء للمخدرات إلا أنها قد انتهكت سريتها بالفعل عن طريق نشر تفاصيل علاجها بالذات؛ بمعنى آخر رأت المحكمة أن المعلومات التي تتعلق بعلاج عارضة الأزياء كعملية اتصال - ينبغي ان تكون سرية - بين الطبيب والمريضة.

عندما ألغت محكمة الاستئناف هذا الحكم، انتقلت تشامبل بالقضية إلى مجلس للوردات الذي أصدر بدوره حكماً لصالحها. كان منطوق الحكم ما مؤداه انه حتى الشخصيات العامة تتمتع بحق الخصوصية التي تتضمن معلومات سرية. إن المحاكم الأمريكية غالباً ما تتعامل مع الخصوصية كمسألة "شخصية الفرد المنيعة" وليس كمفهوم للسرية "وتوسم الثقة في العلاقات" التي يضمنها القانون الإنجليزي. فحكم المحكمة الخاصة بفلورا بل جراهام وسروالها الداخلي يمثل ذلك التوجه. كانت تبدو المحكمة وكأنها تقول إن قضية الانتهاك لخصوصية جراهام - بما تشتمل عليه من ألوان البذاءة، وفي حين أنها كانت مقتضبة - كانت تشتمل على معلومات إيضاحية؛ فقد اكتسبت جراهام خصوصية أكثر مما اكتسبت أية شخصية شهيرة أخرى.

في بريطانيا يمكن للمحاكم أن تتضارب في استجابتها لمسألتي الخصوصية والإعلام. ففي أبريل عام 2003 كسب كل من مايكل دوجلاس وكاثرين زيتا قضيتهما ضد مجلة "هيلو" Hello! لطبعها صوراً "رخيصة ومبتذلة"

لزواجهما بفندق بلازا في نيويورك في نوفمبر عام 2000، ومع ذلك خسرا دعواهما بانتهاك الخصوصية ضد المصورين الصحفيين لأن القاضي "السيد جوستيس ليندساي" أصدر حكماً يقول إنه لا يوجد قانون للخصوصية بالمملكة المتحدة. وقال القاضي إن "السرية التجارية" للعروسين هي التي انتهكت لأن الصور الرسمية التي التقطت لمجلة "أوكي" !OK تتمتع بقيمة تجارية تؤكد على أن تكون تلك الصور في طي الكتمان. ورغم قول القاضي إنه لا يوجد في بريطانيا قانون للخصوصية، فإن ثمة قضايا كثيرة تتعلق بادعاء التطفل – خاصة بشأن الصور التي تظهر المشاهير من النساء وهن عرايا أو شبه عرايا على الشاطئ – قد كسبها أصحابها في المملكة المتحدة وذلك بالتعويض عن الأضرار طبقاً للمادة "الثامنة من قانون حقوق الإنسان".

إن مسألة الخصوصية، وكيف نجد لها تعريفاً، وعلاقتها بحرية الكلمة، كل ذلك يشكل أحد المخاوف الرئيسية في الصحافة الحديثة. فهل خصوصية الفرد آمنة بين أيدي الصحفيين مع مثل تلك الضوابط الأخلاقية غير الملزمة؟ وهل هي سلعة غالية الثمن ولا يحافظ عليها سوى القانون؟ لقد زادت التكنولوجيا الرقمية – وخاصة شبكة الإنترنت – من صعوبة تلك المشكلة. ومن المستحيل تقريباً أن نفكر ملياً في مبادئ الخصوصية على مستوى العالم. فشبكة الإنترنت عالم بلا حدود لا يمكن خلاله تحديد أصل أية رواية إخبارية. لذلك، فإذا أراد أي فرد أن يتخذ إجراءً قانونياً فمن سيكون صاحب السلطة القضائية؟ هل يمكن أن يتضمن أي قانون نصاً ذا فروق للتفرقة بين المشاهير والجماهير العادية؟ في النهاية، إننا جميعاً مضطرون إضطراراً – شئنا أم أبينا – أن نصبح من المشاهير لنحقق نبوءة آندي وارهول في عام 1968: "في المستقبل سيكون كل فرد مشهوراً عالمياً لمدة خمس عشرة دقيقة".

الفصل العاشر

الوهم والخلاعة

في شتاء عام 1990 عانت بريطانيا من أسوأ حالة من حالات الطقس كانت تعرف باسم "عاصفة ميلاد بيرنز"، فقد هبت العاصمة في يوم 25 يناير الذي يوافق عيد ميلاد الشاعر الاسكتلندي روبرت بيرنز وقتلت حوالي 100 فرد وتسببت في خسائر بلغت حوالي ثلاثة مليارات دولار. بلغت سرعة الرياح ما يزيد على 100 كيلو متر في الساعة. كان من ضمن الضحايا الممثل جوردن كاي الذي اشتهر بالعمل في العرض التليفزيوني "آلو! آلو!" فقد أصيب بإصابات خطيرة في رأسه عندما اصطدمت إحدى الدعامات الخشبية بالنافذة الأمامية لسيارته. وفي المستشفي وضع على جهاز الإنعاش بغرفة العناية المركزة. وعندما بدأ يتماثل للشفاء إثر عملية جراحية أجريت له بالمخ، وكان تقريباً شبه فاقد الوعي، قام الصحفي روجر أورديش ومع المصور بارتداء معطف الأطباء واتجها صوب غرفة كاي حيث قاما بالتقاط صور له وسعيا إلى عقد لقاء معه. اكتشف أمرهم إحدى الممرضات فقامت بإخراجهما من الغرفة.

سعى وكيل أعمال كاي إلى استصدار أمر قضائي بمنع صحيفة صنداي سبورت من نشر مثل هذا السبق الصحفي. كانت الصحيفة مشهورة بأسلوبها العاهر وصورها شبه الإباحية، ولكن رغم ذلك، رفض القاضي جلايديول طلب وكيل الأعمال معللاً ذلك بقوله: "من المعروف جيداً في القانون الإنجليزي أنه لا يوجد هناك حق خصوصية، وبناءً على ذلك لا يوجد حق لاتخاذ إجراء قانوني ضد انتهاك خصوصية أي فرد". ومع ذلك، فإن القاضي يُلمح إلى أن البرلمان ربما يرغب في تمرير مثل هذا القانون.

تقديم الزيف

إن العبارة البديهية التي اتفق عليها الجميع "إنه مزيف" **Faking it** تعتبر خيانة للثقة. لكن كيف تتعلق عبارة "إنه مزيف" فعلاً بمسألة الثقة؟ في القصة التي نشرتها صحيفة صنداي سبورت عن جوردن كاي، أخفى الصحفيان شخصيتهما الحقيقية وتظاهرا بأنهما طبيبان. والرواية الحقيقية وتظاهرا بأنهما طبيبان. والرواية الحقيقية التي كتباها كانت في معظمها رواية حقيقية ولكن لا يقع علينا للوم إذا ما قمنا بشجب الطريقة التي حصلا بها على المعلومات بغض النظر عن الواقع الفعلي الذي يوحي بأنهما لم يرتكبا أية جريمة. إذاً فهل ثمة ظروف معينة يمكن فيها تقبل فكرة تنكرك وإخفاء حقيقة أنك تعمل صحفياً؟ ولو كان الأمر كذلك، فما هي تلك الظروف؟ وما هو المعيار الذي يصدر الصحفيون بناءً عليه حكماً على سلوكهم؟ في الواقع إذا قبلنا بأن - حسب رأي إيان هارجريفز - المبدأ الأخلاقي للحقيقة والدقة في صميم قواعد السلوك الخاصة بالصحافة، وأن تلك القواعد السلوكية لا يمكن فرضها من خلال الضبط التربوي إما عن طريق القانون أو عن طريق الضوابط المهنية؛ إذاً فسنعود إلى الصحفي كخط أول للدفاع وكحكم أخير.

تفترض معظم ضوابط السلوك أن حالات الزيف غالباً ما ترتكب عن طريق الخطأ وليس عن عمد وبمجرد أن تكتشف "يمكن أن يتم تصميمها فوراً وبالأهمية التي تستحقها" كما نصت على ذلك المادة الأولى (الفقرة الثانية) من قانون ضوابط الممارسة الصادر عن مفوضية شكاوي الصحافة. لكن من المفيد أن نختبر مدى ما إذا كانت الصحف - والإذاعات حديثة العهد - قد وقعت في شراك الخداع أو أنها شوهت الأحداث بصورة صارخة لخدمة أجندتها السياسية مثلاً، أو لخدمة توزيعها وجمهورها. إن القانون عادة ما يكون أداة عمياء عندما يتعامل مع مثل تلك الأحداث والضوابط - كما رأينا من قبل - كما أنه عاجز

بدرجة كبيرة عن أن يمنع حدوث مثال تلك السلوكيات قبل أن تظهر الحقيقة ويعالج الأمر بعد ذلك. إذا لم يكن لدى الصحفيين ضمير، فلن يبقى سوى الخزي والخسارة المادية، كما حدث لإحدى الحالات الشهيرة كما سنرى.

أقمار وبالونات ونجوم وشموس

شهدت بدايات القرن التاسع عشر صحافة "قرش" أمريكية جديدة تجمع بين الصحافة الجادة والتسلية. لكن أحياناً ما كان يُضحى بالحقيقة عندما يقل الاهتمام بالمعايير وسط سباق التوزيع لتعويض تكلفة عملية التغطية. والمثال الواضح على ذلك صحيفة "خدعة القمر" **The Moon Hoax** التي يمكن أن توصف بأنها صحيفة "مخبولة". ففي حين أن معظم الصحف الخداعية يمثلها أحد الصحفيين كمرتكب للجرم بحيث يمكن التعامل معه بسهولة عند اكتشافه، إلا أن الأمر ليس من البساطة عندما يكون مرتكب الجريمة نفسه هو الصحيفة ذاتها. هنا يمكن أن تتعرض الثقة في الصحيفة للخطر طوال الوقت. حدث هذا الموقف في صحيفة النيويورك صن في غضون الأسبوع الأخير من عام 1835 عندما ظهرت أول مقالة من سلسلة مقالات على الصحيفة الأولى تحت العنوان لرئيس " الاكتشافات الفلكية العظيمة التي قام بها السير هيرستشل وزملاؤه في رأس الرجاء الصالح". واستهلك سلسلة المقالات – التي استمرت كل يوم لمدة أسبوع – باستعراض قائمة تضم طفرات مذهلة في علم الفلك كان قد قام بها عالم الفلك الإنجليزي السير هيرستشل "باستخدام تليسكوب ضخم ومتعدد الأبصار واستخدام أسلوباً جديداً تماماً". وذكر المقال أن السير هيرستشل ابتكر نظرية جديدة لظاهرة المذنبات كما اكتشف كواكب أخرى في النظم الشمسية الأخرى. واستطاع "أن يحل أو يصحح كل المشكلات الهامة التي تواجه علم الفلك الحسابي تقريباً".

تم إعادة طبع تلك المقالات من جانب صحيفة إدنبره للعلوم دون علم هيرستشل

نفسه. بالطبع كانت الرواية بكاملها مجرد محض خيال، وأيضاً كانت مجرد خدعة ارتكبتها الصحيفة عن عمد. ومع ذلك فقد أثار نشرها نوعاً من الإثارة الشاملة في أمريكا، وبالطبع استطاعت الشركة بيع آلاف النسخ قبل أن يكشف الجمهور أنه قد تم خداعه. وفي عام 1844 نشرت صحيفة الصن رواية بعنوان "عبور الأطلنطي في ثلاثة أيام" وهي ما عرفت بعد ذلك باسم "خدعة البالون" وكتبها إدجر آلان بو. ذكر في الرواية أن بالوناً مملوءاً بالغاز أقلع لمدة 75 ساعة فقط لعبور المحيط الأطلنطي يقوده قائد البالون الأوروبي الشهير مونك ماسون. جلبت القصة إثارة كبيرة لدرجة أن احتشدت جماهير غفيرة أمام مكتب صحيفة النيويورك صن في محاولات منهم لشراء نسخ من الصحيفة. كتبت تلك القصة بشيء من الحقيقة ولكن تم خداع رئيس تحرير الصحيفة. ورغم أن الصحيفة قامت بسحب الرواية بعد يومين اثنين،، ظل هذا الأسلوب معتمداً من جانب الصحافة الصفراء وأصحابها من أمثال ويليام هيرست وجوزيف بوليتسر حتى نهاية القرن التاسع عشر.

الأمر الأكثر خطورة وجدية بالنسبة لصحيفة الصن – وربما للصحافة بوجه عام – هو رواية فضيحة الشريط الوهمي لديانا عام 1996 والذي دفعت الصحيفة غرامة مالية بمبلغ من ستة أرقام بسببه. كان عنوان الصفحة الأولى "فضيحة فيديو التجسس على ديانا" والعنوان الفرعي "صور لها بحمالة الصدر والملابس الداخلية وتمرح مع هيويت" (صحيفة الصن عدد الثامن من أكتوبر عام 1996). أساس القصة هو شريط فيديو "لعشيقين" وهما يداعبان بعضهما البعض في "هايجروف" المنزل الريفي الخاص بالأمير تشارلز. كان كل من الرجل والمرأة يشبهان الأميرة ديانا ومدرب الخيل السابق وحبيبها جيمس هيويت. قام أحد المحامين الأمريكيين بالمعروفين بشراء الشريط لكن الأميرة ديانا أنكرت أن الصورة تخصها. اضطر رئيس تحرير صحيفة الصن "ستيوارت هيجنز" لنشر اعتذار لقرائه وللأميرة ديانا ذاتها. كان يجب على أقل تقدير أن توضع مهارات

وإجراءات صحفية الصن موضع المساءلة. لقد رفضت بعد ذلك العديد من الصحف فرص شراء مثل تلك الادعاءات "الحصرية". ورغم ذلك ظل ستيوارت هيجنز محتفظاً بوظيفته.

مذبحة مدينة الإمبراطورية

لم توضع مهارات مارك توين **Mark Twain** الصحيفة موضع مساءلة على الإطلاق وخاصة عندما قام في عام **1863** بتلفيق رواية كاملة لصحيفة تيريتوريال إنتربرايز **Territorial Enterprise** في مدينة فرجينيا بولاية نيفاداه لقد وصف الرواية بعد ذلك بأنها "رواية ساخرة لأقصى درجة، ومفتعلة بعبقرية فذة". يشتهر مارك توينز بكتابة الروايات العالمية مثل رواية "مغامرات توم سواير" و"مغامرات هاكلبيري فن" لكن في بداية حياته كان يعمل صحفياً. لكنه لفق لصحيفة تيريتوريال إنتربرايز عن وفاة أسرة وكارثة بصورة ملحمية. وفي عام **1863** أفردت صحف سان فرانسيسكو صفحات كثيرة تنتقد فيها الشركات العاملة في التنقيب لأن "تطبخ" كتبها، وكانت نفس الصحف تشجع المستثمرين على استثمار أموالهم في شركات المرافق العامة بسان فرانسيسكو. لكن اتضح أيضاً أن تلك الشركات يقوم العديد منها بطبخ كتبها أيضاً.

روى توين حكاية رجل خسر كل أمواله في أسهم إحدى شركات المرافق في سان فرانسيسكو. أصيب الرجل بالجنون وقام بذبح كل أفراد عائلته ماعدا ابنتيه الصغيرتين. ثم ذهب إلى المدينة وهو يحمل فروة رأس زوجته التي كانت لا تزال تنزف، ثم انهار وسقط ميتاً أمام إحدى الحانات. بالطبع أدت الرواية إلى حالة من الإثارة. تمت إعادة طبع الرواية على نطاق واسع وأخذ منها المعنى الظاهري. لم يكن العهد بين الناشر والقارئ بعدم استخدام أسلوب التضليل أو إعادة طباعة الرواية أو عدم نسبها لمؤلف أقل في ذلك الحين مما هو عليه الآن، لكن ما يدعو للارتياب أن تمر مثل تلك الرواية الرهيبة من بين يدي نائب رئيس

التحرير دون التأكد من الأحداث الحقيقية. بالطبع كان لدى تـوين دافـع أخلاقـي أو عـبرة، فقـد كان يرغب غي تصحيح مسار صحف سـان فرانسيـسكو التـي كانـت تـروج لبيـع أسـهم شركـات المرافق على صفحاتها.

تزوير رسائل بيجوت

إذاً هل ثمة مبرر أخلاقي لارتكاب خطأ ما ولكـن مـع وجـود أسـباب حقيقيـة؟ لقـد كانـت صـحيفة التايمز تؤمن بمثل هذا الدفاع المبرر تعاملاتهما مع ريتشارد بيجوت **Richard Pigott** الرجـل الـذي أفلس الصحيفة تقريباً. خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر كانت تشتهر صحيفة التـايمز بـين القراء والنقاد على حد سواء بالصحيفة "الراعدة" **The Thunderer** الـلـهجة الصريحة التـي تتـسم بها مقالاتها الكبرى. ومع ذلك فإن استعدادها للتعامـل مـع جوانـب القـضايا الـسياسية أثنـاء فـترة الثورة الأيرلندنية التي كانت تطالب بالحكم الذاتي قرب نهاية القرن كـاد أن يـضع نهايـة لهـا. كـان جورج باكل رئيس تحرير صـحيفة التـايمز في عـام **1886** عنـدما اتخـذ القـرار المـصيري لـشراء ونـشر مجموعة من **10** رسائل التي كان – في حالة كونها رسائل أصلية – من الممكن أن تعزز موقف هيئـة تحرير الصحيفة من معارضة الحكم الذاتي الأيرلنـدي ونـصيرها الـرئيس تـشارلز سـتيوارت باريـل. لم تضع الأحداث التي تلت ذلك نزاهة صحيفة التايمز موضع مساءلة فقـط بـل أنهـا أيـضاً تـسببت في إيجاد صعوبات مالية كبيرة كان لها تأثير على الصحيفة لعدة عقود.

منح باكل فرصة شراء الرسائل من الصحفي الأيرلندي إدوارد كولفيلد هوستونز كان هوسـتون قـد تعرف من قبل على باكل لأنه كان يعمل صحفياً حراً لها في الماضي. ومع ذلك رفض باكـل أن يعطيـه أية أموال ليتخذ جانب الحذر. لكنـه أخـبر هوسـتون أنـه لـو اسـتطاع فعـلاً الحـصول عـلى الوثـائق الحقيقية فسيختلف الأمـر. عـاد هوسـتون إلى رئيـسه – رج وغـد سـيئ الـسمعة يـسمى ريتـشارد

"الكاتب المشاكس الذي أصبح صرحاً عملياً في بوسطن على مدى سني عمله - 25 عاماً - في صحيفة الجلوب؛ أخبر محطة التليفزيون WCBV أن استقالته كانت أفضل شيء للصحيفة". كما ذكر رئيس تحرير صحيفة جلوب ماثيو ستورين قام بارنكل بفبركة الشخصيات في عمود في عام 1995 كما رفع أجزاء منه للصحفي "ليبلنج" في عمود له عام 1986. كان رئيس التحرير ستورين في بداية الشهر قد طلب من بارنكل الاستقالة لأنه سرق بعض النكات من كتاب لجورج كارلن دون أن ينسب هذه النكات لمؤلف الكتاب. أدى غضب الجمهور إلى تعليق راتب بارنكل لمدة شهرين. اعترف بارنكل فقط بأنه "مهمل". ثمة سؤال لابد من طرحه حور تلك الاستقالات وهو: ما مدى كون إدراج الإسناد أو ذكر ملاحظة بأن تلك الشخصية خيالية مقبولاً من الناحية الصحفية أو من الناحية الأخلاقية؟

ملف حقائق

إنه مزيف

<u>عام 1998:</u> اضطرت القناة الرابعة للتليفزيون البريطاني إلى إيقاف البث في آخر دقيقة من تقريرها "الحصاد" عن "ابنة الأب" حول علاقة الأب بابنته عندما تبين أن أحد الآباء وابنته ليسا سوى العاشقين فيكتوريا جريثام وستيوارت سميث. اعترفت لسيدة جريثام - وعمرها 19 عاماً - أن قد خدعت شركة التلفزيون والصحفيين العاملين بها لأنها أرادت أن تظهر على شاشة التليفزيون وتصبح مشهورة.

<u>عام 1983:</u> أعلنت صحيفة الصنداي تايمز - الصحيفة الأكثر شهرة بين صحف الأحد في بريطانيا - عن اكتشاف 62 مجلداً لمذكرات هتلر. وقد حصلت على حقوق النشر من مجلة ستيرن التي قيل عن الصحفي العامل بها

جيرد هيلدمان إنه تسلم تلك المذكرات بعد أن تم تهريبها إلى خارج ألمانيا الشرقية. وقد سافر المؤرخ الشهير ومدير التايمز اللورد داكري إلى سويسرا لاختبارها ووجدها أصلية. ومع ذلك فقد تبدت حالات من الشكوك ولم يمر وقت طويل حتى اتضح أن المذكرات مزيفة. قدم بيتركوخ وفيليكس سكيمتس المحرران بصحيفة ستيرن استقالتهما وعين فرانك جايلز رئيساً لتحرير صحيفة الصنداي تايمز. استغلت الصحف المنافسة الفرصة وظلت تسخر من الصحيفة ولم يسترد تريفور روبر سمعته أبداً.

<u>عام 1972:</u> أزاح ستيوارت ستيفن رئيس التحرير الأجنبي لندن ديلي إكسبرس الستار عن أن مارتن بورمان - نائب هتلر سيئ السمعة - لا يزال حياً وبصحة جيدة ويعيش في أمريكا الجنوبية. ادعى أيضاً سيمون فيسينتال الصياد النازي أن ثمة دليلاً قوياً على أن بورمان لا يزال يعيش في أمريكا الجنوبية. ومع ذلك فبعد ستة أيام من ظهور الرواية اكتشفت صحيفة الإكسبرس أن صورة بورمان كانت في حقيقة الأمر صورة لمعلم من الأرجنتين ارتكب هذه الخدعة المؤرخ والصحفي المجري لاديسلاس فاراجو. ترك ستيفن الصحيفة بعد ذلك ولكن في نهاية الأمر تولى رئاسة تحرير صحيفة لندن إيفننج ستاندارد.

<u>عام 1920:</u> عانى الرئيس وودرو ويلسون من جلطة مؤلمة بالمخ في أكتوبر عام 1919 عندما كان يدلي بحديث في إحدى رحلاته. أخفت السيدة الأولى ومعها الطبيب المعالج للرئيس الأوميرال كاري جريسون حقيقة حالته التي كانت في غاية الخطورة. فقد أصيب بالشلل في النصف الأيسر، كما تأثرت قدراته العقلية. بحلول عام 1920 استرد ويلسون صحته نسبياً ولكنه لم يكن بحالة جيدة. دعت السيدة الأولى لويس سيبولد الذي كان يقوم بالتغطية الإعلامية للبيت الأبيض لحساب صحيفة النيويورك وورلد

أكثر.

بعد أن تم إجراء تحقيق داخلي بصحيفة التايمز، تمت مواجهة بلير بالأدلة على أنه قد قام بفبركة تصريحات وتفاصيل أخرى لحوالي 36 رواية. قدم بلير استقالته وأفردت النيويورك تايمز مساحة بالصفحة الأولى – في سابقة هي الأولى من نوعها – تتسع لحوالي 7000 كلمة للاعتذار مشيرة إلى أن هذا الأمر يمثل "منحنى انحدار في تاريخ الصحيفة الذي استمر على مدى 152 عاماً". وقدم كل من المدير المسئول هويل رينز ومدير التحرير جيرالد بويد استقالتهما في خضم الفضيحة.

ثمة جدل حول نزاهة الصحافة بالولايات المتحدة نال قشطاً أوفر مما نالته الصحافة في بريطانيا. الأدلة مختلطة ولكن العجز السائد في ثقافة "الصحيفة الشعبية" **Tabloid** في أمريكا، ونظرة سريعة على الصحف الأمريكية – كما يبدو ذلك في العمل الصحفي مثل الاعتذار الذي نشرته النيويورك تايمز في صحيفتها الأولى – تظهر أنها أقل إثارة وأكثر مللاً من الصحف البريطانية.

معالجة البرامج الوثائقية

في حين أنه يمكن للصحف أن "تكون حزبية" بمعنى أنها يمكن أن تؤيد وجهة نظر سياسية معينة، لكن يحظر صراحة على الإذاعة ذلك في المملكة المتحدة. فهيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي كإذاعة تابعة للقطاع العام يملي عليها مثياق العمل بها بأن تظل محايدة، وتلك هي الحال أيضاً مع الشبكات التجارية. أما التليفزيون الأمريكي فيخضع لضوابط أقل تشدداً، ومن الواضح أن مؤسسات مثل فوكس نيوز مثلاً – رغم أسلوبها "نحن ننشر التقارير، وأنت تقرر" – دائماً ما تؤيد وجهة نظر الحزب الجمهوري.

لكن رغم هذا التفاني من أجل الخدمة العامة (الحكومية) عمل تليفزيون

كارلتون البريطاني في إنتاج برنامجين وثائقيين للفوز بجوائز في عـامي 1994 و1996 وقـد اكتـشف فيما بعد أنهما مليئان بالمواد الوهمية. وفي أكتوبر 1996 كشف "ذا كونيكشن" عن طريق جديـد لتهريب الهيروين من كولومبيا إلى المملكة المتحدة. ومع ذلـك ذكـر رئـيس مفوضـية التليفزيـون المستقل السير روبين بيجام أن الكثير "مما عرض كدليل تـم اسـتخدامه لتعزيـز هـذا القـول كـان مجرد وهم"، واتهم كارلتون "بخيانة الثقة وبيعها للمشاهدين".

ثمة وضع نسبي مفاده أن ما لا تعرفه لا يضرك، فمثلاً عدم معرفتـك بـأن مـشهداً مـا عبـارة عـن إعادة بناء وليس هو "الشيء الحقيقي" لا يعني بالضرورة عدم صـدق الهـدف الـذي يـسعى إلى تحقيقه فنتج البرنامج الوثائقي. مـن المؤكـد أن الأمـر "الـضروري" يعـد جوهريـاً ومعظـم صـناع البرامج الوثائقية يعتقدون أنهم هم أنفسهم عليهم أن يعمدوا إلى إيجاد مبررات لقـراراتهم بـدلاً من أن يخضعوا لما يـسمى بالـضوابط غـير المرنـة **inflexible code**. لـذلك فقـد ارتـأوا أن القيـد الوحيد المفروض على العمل الوثائقي لابد أن ينص عليه القـانون العـام ولا يكـون مجـرد ضـابط أخلاقي تحدده الجهات المنظمة. ومع ذلك فإن القـانون العـام – في بريطانيـا عـلى الأقـل – مـرن بدرجة مسيئة ودائماً ما يكون تحت رحمة قاض يتبع نزواته، ولذا فربما يكون عـاجزاً عـن حمايـة الضوابط والمعايير الأخلاقية.

لذلك كشف مفوضية التليفزيون المستقل عن أن صانعي البرنامج مذنبون حيـث قـاموا بارتكـاب انتهاك قواعد الضبط كما يلي:

1. لا يوجد دليل على وجود طريق جديد لتهريب الهيروين إلى المملكة المتحدة.
2. لم يخاطر صناع البرنامج بحياتهم كما ادعوا.
3. زعيم الجماعة ليس هـو الـشخص الـذي تمـت المقابلـة معـه في البرنـامج و"المكان السري" الذي تمت فيه المقابلة لم يكـن سـوى غرفـة نـوم منـتج

البرنامج في الفندق.

4. قام ممثلون بتمثيل دور مهربي المخدرات، كما كان الهيروين المعروض على الشاشة مجرد حلوى.

5. لم تغادر "شحنة" المخدرات التي ظهرت داخل لطائرة المتجهة إلى لندن مولومبيا على الإطلاق.

رغم ذلك ففي عام 1994 قام تليفزيون كارلتون ببث برنامج وثائقي آخر عن طريق نفس المنتج مارك دو بوفور ضمن سلسلة فيرست نتورك. "داخل كوبا التي يحكمها كاسترو" برنامج حائز على جائزتين دوليتين تضمن مقابلة مع فيدلكاستر. كانت صحيفة الجارديان قد زعمت في يونيو عام 1998 أن هذه المقابلة وهمية لأن لقطات الفيلم التي ظهر فيها كاسترو يتحدث إلى الكاميرا وأذيعت وكأنها مقابلة وجهاً لوجه ما هي إلا لقطات أرشيفية لدى الحكومة الكوبية. وأما روبيرتو شيلي المصدر الشخصي لفيدل كاسترو والذي أعطى اللقطات الأرشيفية لكارلتون نقل عنه قوله إن تلك المقابلة "مزيفة". ورغم ذلك، اكتشفت هيئة الرقابة البريطانية على التليفزيون ITC إن مثل تلك الادعاءات لم تكن موجودة في البرنامج.

الثقافة الإعلامية

في عالم معقد من ساحات إعلامية متعددة لابد من وجود أناس مثقفين إعلامياً من أجل ديمقراطية فعالة وكاملةز لقد عرفت شركة أوفكوم الثقافة الإعلامية media literary – وهي هيئة التنظيم والمنافسة الإعلامية المستقلة لصناعات الاتصالات بالمملكة المتحدة – بأنها "القدرة على الوصول إلى المعلومات وفهمها وابتكارها في مجموعة من السياقات المختلفة". في الولايات المتحدة اعتمد مؤتمر القيادة القومي عن الثقافة الإعلامية في عام 1992 نفس

التعريف حيث عرفها بأنها القدرة على "الوصول على الرسائل وتحليلها ونقلها بأشكال مختلفة". ويبدو أن مصطلحات "تقويم" و"فهم" هي الكلمات الرئيسية هنا، والفهم هو الاصطلاح الذي يعمل الصحفيون ووسائل الإعلام على تقويضه عمداً - أو بالأحرى عن غير عمد - فيقومون بعرض الأوهام والخدع والزيف كحقيقة لم تعرض من قبل. إذاً فإن أحد العناصر الهامة للثقافة الإعلامية لابد أن يتمثل في القدرة على تمييز أمر عن الآخر. وهذا الأمر من الأهمية حتى يمكن محاسبة أجهزة الإعلام وحتى يمكن للجمهور أن يحدد استجابته للمخرجات الإعلامية وما إذا كان صدقاً أو ديبة أو سخرية أو توبيخاً أو مرحاً. يذكر ديفيد بري أن مخاطر الفشل هي أولاً الاستعداد "للشك في صدق التصريحات" وثانياً زرع ثقافة الاختلاف. "فثقافة الاختلاف تنبع عن الاعتقاد بأن المبادئ الأخلاقية يمكن أن تعلق صورة مؤقتة نظراً لانتشار وشيوع قبول الممارسات الإخبارية - في هذه الحالة - المشكوك في صدقها من جانب قطاعات من القراء أو المشاهدين.

تواجه الجماهير اليوم وفرة هائلة من وسائل الإعلام، كما أن نماذج الاستهلاك دائمة التغير والتحول. وغالباً ما تعمل وسيلة إعلامية على إعاقة عمل الوسيلة الأخرى. على سبيل المثل، تعرض أفلام عديدة مثل "الصحيفة" عام 1994 و"شذى النجاح الجميل" عام 1957 Sweet Smell of Success وجهة نظر ساخرة عن الصحفيين وتصف الصحافة "بالسفاح"، كما تصف الصحفيين بأنهم "بلا ضمير ولا يرحمون". وثمة برامج تليفزيونية مثل برنامج نيوز راديو(1995 - 1999) أو البرنامج الهزلي "اترك الحمار الميت" (1990 - 1998) كانت تقدم إعلام الأخبار بصورة فكاهية أو كإعلام عاجز من خلال تصوير أحداث تاريخية ساخرة. ومع ذلك فإن الجماهير الحديثة - رغم أنها تشيع أجواء من السخرية - إلا أنها تعرض لمحات تاريخية يصعب فهمها يمكن بكل سهولة أن تلبس السخرية لباس "الحقيقة". وفي غياب الضوابط الأخلاقية، فإن الحاجة

إلى وجود جمهور مثقف إعلامياً أصبحت أكثر إلحاحاً من ذي قبل.

يعتبر تاريخ الصحافة على وجه الخصوص تحل فيه الضوابط السرية محل الضوابط العلنية بصورة تدريجية، لكن مما لا شك فيه أن الصحافة كان دائماً ما يراها الساسة حليفاً قوياً وعدواً لدوداً. لقد تم إعداد ووضع الضوابط بهدف تشجيع الصحافة الجيدة ولوضع الحدود التي يجب مزاولة المهنة في إطارها. واليوم تتعامل تلك الضوابط مع مسائل مثل العرقية والعنصر والجنس والعجز وتغطية حالات الانتحار بالإضافة إلى المسائل الحساسة الأخرى، وأيضاً ينبغي على الصحفيين أن يتعرفوا سواء في العمل أو لحسابهم الخاص. في حين تعتبر مدونة قواعد سلوك الصحفيين الخاصة بالاتحاد القومي في المملكة المتحدة مثالاً على قواعد ضبط "من أسفل لأعلى" وهي مدونة أعدها الصحفيون العاملون، إلا أن معظم قواعد السلوك الخاصة بأجهزة البث بالمملكة المتحدة تعتبر "من أعلى لأسفل" **top-down** وقد ابتكرها وفرضها المالكون والمحررون وكل من يسيطر على أجهزة الإعلام: وقواعد الضبط للصحف الأمريكية تبدو هجيناً، حيثما يتم إنتاجها من جاني الإدارة من ناحية حيث تقوم الإدارة بوضع قواعد الإرشاد لبعض المسائل الهامة مثل نفقات العاملين بالعلاقات بين هيئة العاملين والمؤسسة الإعلامية، ثم يتم إنتاجها بالتعاون مع هيئة العاملين من ناحية أخرى. في نهاية الأمر، تعتبر جميع تلك القواعد والمدونات تطوعية. وفي غياب التوجيه القانوني – خاصة في بريطانيا – هناك دعوات على فترات منتظمة لكي تصبح تلك الضوابط قانونية. ومع ذلك فتلك الدعوة التي تنادي بضوابط قانونية تعد نوعاً ما استجابة لسلوكيات الصحفيين أنفسهم، وشئنا أم أبينا، دائماً ما توضع المعايير الأخلاقية بالكامل في أيدي أولئك الصحفيين الذين يؤدون عملهم يومياً. إن حساسيتهم واندماجهم والتزامهم بأداء الشيء الصحيح هو الذي يحدد كيف يتم الحكم على الصحفيين وعلى الصناعة التي يعملون بها.

الباب الرابع

الجمهور :

هل هو مستهلك مواطن أم مواطن مستهلك ؟

إذا لم تكن تقرأ الصحف .. فلن تكون مطلعًا ... وإذا قرأت الصحف بالفعل ... فسيتم تضليلك ...

(مارك توين)

الفصل الحادي عشر

البحث عن الجمهور

تم تصويره لأول مرة في لقطة طويلة ويسير في اتجاه الكاميرا ويمسك بيد زوجته وهو يرتدي بذلة أنيقة. وكانت العدسات المقربة مركبة على حوامل ثلاثية فوق أسطح السيارات. كما كانت الكاميرات التليفزيونية الخاصة بأجهزة البث العالمية تركز عليه وهو يسير أمامها. في وقت متأخر من العصر كانت الشمس تسطع على كل فرد. وكانت هناك أصوات تتعالى بين الحشود. فشرع يصافح الناس ويبتسم طوال الوقت ثم ولج في سيارة كانت تنتظره. وسار الموكب ببطء شديد وسط الحشود حيث شرع العديد منهم القفز والعدو في محاولة لرؤيته أو لمس سيارته. كان الحشد يقدر بحوالي نصف مليون فرد. كانت الساعة الرابعة عصر يوم **1** فبراير عام **1990**. كان يسير أشهر سجين في العالم ينلرسون مانديلا حراً طليقاً خارج بوابة سجن فيكتور فيستر في بارك، بجنوب أفريقيا بعد أن قضى عقوبة السجن لمدة 27 عاماً. وصلت التغطية الإعلامية لحدث إلى جمهور في كل أنحاء العالم يقدر بحوالي مليار مشاهد. وقد وصفت اللحظة بأنها لحظة تاريخها، وجزء من تاريخها فعلاً كان عدد من شاهدوا الحدث في كل أنحاء العالم. لا تجتمع مثل تلك الجماهير الهائلة عادة إلا مع ما يطلق عليه الأحداث "المنظمة" **staged** مثل الإفراج عن مانديلا. على سبيل المثال، كان أضخم جمهور من مشاهدي التليفزيون عدداً حتى الآن 2,5 مليار فرد شاهدوا جنازة الأميرة ديانا.

إن مفهوم "الجمهور" إن كان من القراء أو المستمعين أو المشاهدين قد تغير كثيراً وبصورة مثيرة منذ أن تابع القراء الأوائل للكتب الإخبارية الإطلاع على

الصفحات العليلة إما في مكاتبهم أو على المقاهي. ومع ذلك فالأمر الحقيقي دون أدنى شك هو أن الجمهور قد تم التلاعب به بطريقة أو بأخرى، ومدى ما يعي الجمهور مثل هذا التلاعب يرتبط بمدى ماله من تواطؤ في هذا الأمر. ففي التغطية الإخبارية التليفزيونية لإطلاق سراح نيلسون مانديلا من السجن، كان هناك عدد من اللقطات لاضطرابات بين بعض الحشود من الشباب السود وهم يقومون بعمليات النهب والسلب. هذا الحدث يطرح بعض التساؤلات عن سبب بث تلك اللقطات، وما هو الهدف الأساسي الذي يمكن أن تحققه مثل تلك التغطية في يوم من المفترض أن يشع فيه السد على وجه الخصوص بالسعادة؟ رغم ذلك فمن الواضح أن ثمة إحساساً "بالجمهور" قد لعب دوراً في قرارات هيئة التحرير ما أدى إلى تغطية تغلب عليها الحساسيات أو أساليب الظلم أو الإجحاف التي تتمتع بها المؤسسات الإعلامية نفسها.

مقابلة الجمهور مع وسائل الإعلام

في الأوقات المحمومة نوعاً ما؛ عندما تكون الصحف إحدى الوسائل القليلة لنقل المعلومات بصورة منتظمة، اعتمد المالكون في دلهم المالي على سعر التغطية – الذي لم يكن يضم الفقراء أو الطبقة العامة – أو على الإعانات التي تقدم من الأحزاب السياسية أو التكتلات الدينية أو من الأثرياء. على سبيل المثال، أنفق روبرت والبول أول رئيس لمجلس وزراء بريطانيا (1721 – 1742) 50 الف جنيه استرليني على المنح السرية التي كان يمنحها للصحافة في العشر سنوات الأخيرة من إدارته. والرئيس أندرو جاكسون (1829 – 1837) كان لديه سبعة وخمسون صحفياً مقيداً بقائمة الرواتب الرسمية. ومن عام 1789 إلى عام 1799 "كان جون والتر أثناء تلك السنوات يتلقى علاوة من وزارة الخزانة قدرها 300 جنيه كل عام مكافأة له عن سياسة صحيفة التايمز". إذا أشرنا إلى أن هذا الدعم كان نوعاً من الإيثار فسيكون الأمر ليس سوى سذاجة منا. لذلك،

كانت الجماهير مسألة عرضية إلى حد ما بالنسبة المساعي الصحفية المبكرة. وعادة ما كـان لـدى مالكي الصحف فكرة واضحة عن "بمن يكتبون". كانت أولى الصحف الأمريكية - الحوادث العامة **Public Occurrences** - أولى ضحايا فـشل المالـك في فهـم جمهـوره بالكامـل. كانـت الـصحيفة تصدر في بوسطن على يد بائع الكتب الراديكالي بنيامين هاريس عام **1690** بدون تصريح بالتعبير من التاج المالكي. ثم إيقاف الصحيفة بعد صدور عدد واحد فقـط بـأمر ملـكي كـان يمثلـه حـاكم ولاية ماساشو ستس الذي كان يعرف مسبقاً السلطة المرعبة التي يمكن أن تتحلى بها الصحيفة.

فرضت الضرائب لأول مرة على الصحف البريطانية عام **1712** وازدادت تدريجياً عن قرش واحد (بنس) حتى عام **1815** عندما رفعها قانون الطوابع على أربعة قروش للنسخة، لذلك فقد تحدت الضرائب بفئة من القراء هم فئة الأغنياء أو ذوي الدخل المرتفع نوعاً ما. وهذا أيضاً ما رفـع مـن تكلفة سعر تغطية الصحف نتيجة لفرض الحكومة رسوم الطوابع. وبذلك تحـتم عـلى مثـل هـذه الصحف أن تتجه إلى أن تعكس آراء ووجهات نظر جماهير الطبقة المتوسطة المهنية ومـن يتـوفر لديهم المال. طرح رئـيس تحريـر مانشـستر جارديـان "وادرسـوورث" في إحـدى الـصحف لمكتـب الإحصاء في مانشستر عام **1855** أن الكثير مـن تـاريخ الـصحافة البريطانيـة في النـصف الأول مـن القرن التاسع عشر مشتق من قناعة تامة بأن "المستويات الأقل لا يمكـن الوثـوق بهـا، بـل يجـب حماية الصحف منها", وعلى عكس ذلك، أثنـاء الثلاثينيـات مـن القـرن التاسـع عـشر، اسـتطاعت صحافة القرش الأمريكيـة بيـع منتجاتهـا للجماهـير مـن عامـة القـراء، بـل وباعـت القـراء لـشركات الإعلانات. فتسليع الصحف أجبر المحررين على التعامل مع كم أكبر من الجماهير وهـذا الكـم كـان محتماً أن يضم المستويات الأقل، كما أُجبر المحررون أيضاً على فهـم القـوة الاقتـصادية الهائلـة لعـدم التحيز للأحزاب. فلماذا تتحدث الصحف مع نصف المجتمع مستخدمة شعارات حزبية، في حين يمكنها

الوصول إلى كل الجماهير بالإثارة والتقارير الصحفية المتوازنة؟

تحديد مكان الجمهور

إحدى المحاولات الأولى "لتحديد مكان" الجمهور، لإعطائه نوعاً من الشكل أو الحجم، ولتقييم وسيلة "الوصول إليه" قامت بها صحيفة التايمز اللندنية في عام 1792. رغم أن تلك المعلومات لا تستهدف شركات الإعلانات مباشرة إلا أنها تعتبر ضرورية لسلامة الصحيفة ودوامها. ذلك كما ذكر تاريخ الصحف: "إذاً كان طموح مالكي الصحف - كما هو الآن - أن تملأ الصحف عن آخرها بالإعلانات".

ومع ذلك، فمن الخطأ أن نفترض أن قياس الجمهور لم يكن سوى أمر عشوائي على مدى فترات طويلة من القرن التاسع عشر. فهو يبدو وكأنه مكان لبائعي "دهن الأفاعي" Snake oil الذين يرفعون دعوات مبالغ غيها للطالبة بتوزيع للصحيفة التي لا يمكن أن يعمل المالك على تعزيزها ولا يثبت صحتها القراء. في التسعينيات من القرن التاسع عشر - كما ذكرنا في الفصل الخامس - أن هارولد هارمسوورث (الذي عرف أخيراً باسم اللورد روذرمير وهو شقيق اللورد نورثكليف) كان أول مالك يدرك أهمية فئة قراء الصحف. عندما قام هارمسوورث بتدقيق أرقام المبيعات بشكل مستقل "حول قراءه إلى عملة" وباعهم لشركات الإعلانات رغم أنه في تلك المرحلة لم يكن باستطاعته أن يزيد من عوائد الإعلانات لحماية صحيفته.

رغم ذلك فإن أهمية الجمهور قد ازدادت مع ازدياد أهمية أجهزة الإعلام والصحافة. وفي تلك العملية ازداد فهمنا للجمهور. لقد كانت الجماهير في المراحل المبكرة ذات أهمية نظر لحجمها أساساً، لكن عندما أصبحت الدراسات المسحية أكثر تطوراً، أصبح نوع الجمهور - مثل التكتلات

الاجتماعية الاقتصادية والجنس والسن والقدرة الشرائية وغير ذلك - ذات أهمية بنفس الدرجة أيضاً. يذكر التاريخ الرسمي لصحيفة التايمز أن "اكتشاف الإعلانات ارتبط بإحداث ثورة في الصحافة بتغيير توازن القوى من القوة السياسية المباشرة إلى القوة التجارية المباشرة". إحدى ضحايا هذا التغيير كانت صحيفة الديلي هيرالد. فرغم توزيعها الكبير نسبياً إلا أنها فشلت على مستوى كبير لأنها استمرت في جذب النوع الخاطئ من القراء أو من الجمهور.

يطرح ذلك عدداً من القضايا الرئيسية التي تكمن في تصميم العلاقة بين أجهزة الإعلام الإخبارية والجمهور الذي تهدف إلى خدمته. على سبيل المثال، هل نوع الجمهور أو محطة البث وأساليبها في الجذب أصبح أكثر أهمية من جودة المنتج الإخباري؟ أحد الأمثلة - من بين قائمة طويلة من الأمثلة - وهو طريقة صحيفة الصن في بريطانيا في تغطية الروايات التي لا تظهر في الصحف المنافسة. على سبيل المثال، في الثامن من أبريل عام 2009 نشرت الصحيفة عن "مسابقة أفضل سوالف، وهي فكرة مأخوذة من "إكس من أوريجينز" **X-Men Orifins** بطولة هوف جاكمان، وكان عرض المسابقة 5000 جنيه جائزة لأفضل سوالف يختارها جاكمان. وهنا تتساءل صحيفة "برايفت آي" **Private Eye** سؤالاً: لماذا الاهتمام بهذا الفيلم السيئ؟ وتجيب علي السؤال: لآن الذي أنتجته مؤسسة فوكس القرن العشرين للحفار القذر "روبرت موردوخ". وبالطبع موردوخ مالك صحيفة الصن والافتراض هنا هو أن هذه الرواية تمت صناعتها لنقل نتج شركة أخرى من شركات موردوخ. في هذه العملية، يمكن القول إن كلاً من القيم الإخبارية لصحيفة الصن وأجندتها الإخبارية تم السطو عليهما لمجرد تحقيق أغراض تجارية.

هل تجلس بارتياح ؟

إن التوترات التي تتضمنها خدمة مثل ذلك الجمهور، وطريقة تفاعل الجماهير مع

النواتج الإخبارية ظلت موضوعاً للكثير من عمليات التنظير. رغم أنه ليس من المناسب أن ندرس مثل تلك النظريات من منظور مقارن، فإن فهم كيف يتفاعل الجمهور والإعلام الذي يستهلكه ذلك الجمهور على مستوى فسلفي أو ميتافيزيقي يعتبر أمراً ضرورياً لمزيد من التحليل البراجماتي للجمهور الذي يشتمل عليه هذا الفصل.

إن أبحاث الجمهور فرع معقد وغامض من المعرفة تمت دراسته من مختلف وجهات النظر ومن مناظير متباينة. وفي محاولة لإخفاء نوع من النظام والترتيب على النظرة العامة الموجزة التالية، يمكن عرض أربعة خيارات كأسلوب لدراسة وفحص بعض تراكيبها المعقدة:

1. دراسة التأثيرات effects studies
2. الاستخدام والإرضاء use and gratification
3. الترميز (التشفير) / التفسير (الترجمة) encoding \ decoding
4. الدراسات العرقية ethnographic studies

يستعرض ديفيد مورلي نظرة عامة موجزة ديفيد عن أبحاث الجمهور: "يمكن النظر إلى تاريخ دراسات الجمهور كسلسلة التقلبات ين مناظير تؤكد على قوة النص (أو الرسالة) التي تفوق جمهورها من التأثيرات هي مثال رئيس لتلك المواقف الأولى. القضية هنا – التي غالباً ما توصف بأنها حقنة تحت الجلد – تتمثل في أن الجمهور يتم "حقنه" برسالة معينة عن طريق وسائل الإعلام فتجعله يتفاعل بطريقة معينة. وهذا وصف مبسط لمدخل "تحمل أجهزة الإعلام فيه بسلطة معقولة لتشكيل الرأي والعقيدة، ولتغيير العادات الحياتية ولتشكيل (قولبة) السلوك".

أفرزت مدرسة فرانكفورت للبحوث الاجتماعية أقوى الدراسات حول العلاقة

بين وسائل الإعلام الجماهيرية والجماهير العريضة mass audiences من منظور يميل إلى اليسار. لأن أطروحة المدرسة تأثرت كثيراً بأعمال ثيودور أدورنو وماكس هورخايمر فهي غالباً ما تتسم بنظرة تشاؤميه عن الإعلام الجماهيري وتأثيراته. ولأن أعضاء تلك المدرسة قد تأثروا بلا شك بظهور النازية في وطنهم الأصلي ألمانيا، فقد وصفوا المجتمع بأنه قد أصبح "مصغراً" alomized بسبب تفكك الأسرة التقليدية والروابط الاجتماعية. وخلال تلك العملية يصبح الناس أكثر عرضة للمؤثرات الخارجية مثل وسائل الإعلام الجماهيرية ودعايتها وتلاعبها.

عندما تولى هتلر الحكم في ألمانيا في الثلاثينيات من القرن العشرين، هاجر العديد من أعضاء مدرسة فرانكفورت إلى الولايات المتحدة الأمريكية. أدى تأثيرهم على الدراسات الإعلامية بطريقة غير مباشرة إلى ظهور مدرسة أمريكية متميزة في الأبحاث الإعلامية، زهي مدرسة ثارت على النماذج النظرية التشاؤمية التي تعود أساساً إلى أدورنو وهوخايمر وآخرين لأنها فشلت في أن تعكس تعددية المجتمع الأمريكي, وشرع الباحثون الأمريكيون - مثل هيرتا هيرزوج، وروبرت ميرتون، وبول لازرسفيلد، ثم إليهو كاتس - في إعداد طريقة كمية وموضوعية لأبحاث الجمهور التجريبية عن "علم اجتماع الإقناع الإعلامي Sociology of Mass Persuasion. أثبتت تلك الأبحاث أن مستهلكي الإعلام ليسوا مجرد ضحايا سلبيين للثقافات الإعلامية. من هذه الابتكارات نشأ منظور جديد في الاستهلاك الإعلامي وهو مدخل "الاستخدام والإرضاء" الذي ارتبط في الولايات المتحدة بأعمال إليهو كاتس، وفي بريكانيا بأعمال جاي بلوملر وجيمس هالوران في الستينيات من القرن التاسع عشر.

من ناحية يبحث مدخل الاستخدام والإرضاء في طريقة الجمهور في استخدام الإعلام ومن ناحية أخرى يدرس ما هي درجات الرضا التي يوفرها الإعلام لهمز

يستطيع الباحث أن يحلل أحد النصوص - رواية إخبارية مثلاً - ويذكر أمثلة لكل استخدام وإرضاء يركز النص عليهما. والأمثلة على الاستخدام والإرضاء هي أن تتسلى أو تشبع إحدى حاجاتك أو ترضى عن معلومات حصلت عليها أو تفهم العالم. أما القيود الخطيرة التي واجهت مدخل الاستخدام والإرضاء فقد أدت في النهاية إلى بروز نموذج "الترميز والتفسير" على يد عالم الاجتماع ستيوارت هول في مركز الدراسات الثقافية العامرة بجامعة بيرمنجهام في بريطانيا. كان نموذج هول يمثل النص الإعلامي عندما يوضع المنتجين الذين يؤطرون المعني بطريقة معينة وبين الجمهور الذي يفسر المعنى حسب مواقف أفراده المتباينة وحسب أطر التفسير. لكن معظم الدراسات الحديثة سواءً كانت تجريبية أو نظرية تؤكد على أن الجمهور لا يمكن أن يعامل بأية طريقة من تلك الطرق. يحدد اختلاف تلك الأساليب بأنه "تناقض الرؤية والعزلة حيث يرى الفرد أكثر ويتفاءل بصورة أقل".

يصف ريتشارد سينيت كيث يتمتع منطق الاستلام والسلبية الذي تتضمنه وسائل الإعلام الإلكترونية وتناقض الرؤية والعزلة في عملية الاتصال بآثار خطيرة لعملية السياسة. فعندما يشاهد هشرون مليون فرد رجل سياسة وهو يدلي بحديث في التليفزيون، فعليه عادة أن يعاملهم جميعاً وكأنهم ينتمون إلى فئة واحدة؛ أي أنهم مواطنون. بمعنى آخر عليه أن يعامل جمهوره "بشروط غريبة للمساواة". وهذا ما أدى إلى ميل أجهزة البث الإذاعي نحو التركيز على الفرد لا على الرسالة ذاتها. والعالم الحديث متنوع من حيث العرقية والعنصر والطبقة والدخل لدرجة أنه يمثل حجر عثرة أمام وسائل إعلام عامة ترغب في التحدث مع المجتمع ككل. فلا عجب إذاً في أن القدرة على إيجاد طرق لتحديد تنوع أي جمهور أصبحت الكأس المقدسة لأبحاث الجمهور. إن "المشكلة" التقليدية للجمهور زلت دائماً تتجسد في القدرة على فهم أو تحديد تنوعه. والآن فإن المشكلة التقليدية التي تواجه وسائل الإعلام الإخبارية هي محاولة اكتشاف

كيف يكون – فعلاً – ممثل كل هذا التنوع الذي يمثله المتصل بالتليفون أو كاتب الرسالة ومرسل البريد الإلكتروني أو مرسل النصوص أو المتعامل مع تويتر؟ هذه المشكلة غالباً ما تعرف بمشكلة تفكك الجمهور **audience atomization**.

الوليمة المتنقلة

إحدى الطرق التي كان فيها رد الجماعات غير الممثلة أو التي تم تمثيلها بصورة ناقصة داخل المجتمع بصورة تقليدية على الإحساس بالإقصاء هي بتأسيس الصحف أو المطبوعات الخاصة بها في محاولة لتحسين الوعي العام بوجهة النظر الخاصة بها. في بدايات تاريخ الصحافة كانت تكاليف تأسيس الصحيفة منخفضة بما يكفي لذلك. ومع ذلك، فإن التكنولوجيا بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر وما تلاه كانت تعني ضرورة وجود صحافة ومطابع متطورة باهظة الثمن بالإضافة إلى زيادة الاستثمارات. فصيحة "أخبار العالم" ذكرت في أول طبعة لها في الأول من أكتوبر عام 1843: "لن يتم تعويض أصحاب الصحيفة عن الأموال الكثيرة المدفوعة في هذا العمل الجديد إلا من خلال زيادة كبيرة في التوزيع". في الفترة الأخيرة فقط أصبحت عملية النشر الذاتي عبر شبكة الإنترنت مفيدة من الناحية الاقتصادية للمؤسسات الصغيرة والجماعات من الناس مرة أخرى. لكن حتى لو كانت مثل تلك الجماعات قادرة على خلق مساحة لنفسها، فإنها دائماً تخضع لشروط أجهزة الإعلام الإخبارية الرسمية. وأجهزة الإعلام الإخبارية الرسمية دائماً ما تفرض وتحظر.

في كتابه عن وسائل الإعلام وفيتنام "الحرب دون رقابة" الصادر عام 1986، افترض دانييل سي هالين أنه عند محاولة فهم الصعوبة التي يتضمنها الفرض والخطر **prescribe and proscribe** فمن المفيد "أن نتخيل عالم الصحفي وكأنه منقسم إلا ثلاثة أقسام، كل قسم منها تحكمه معايير صحفية

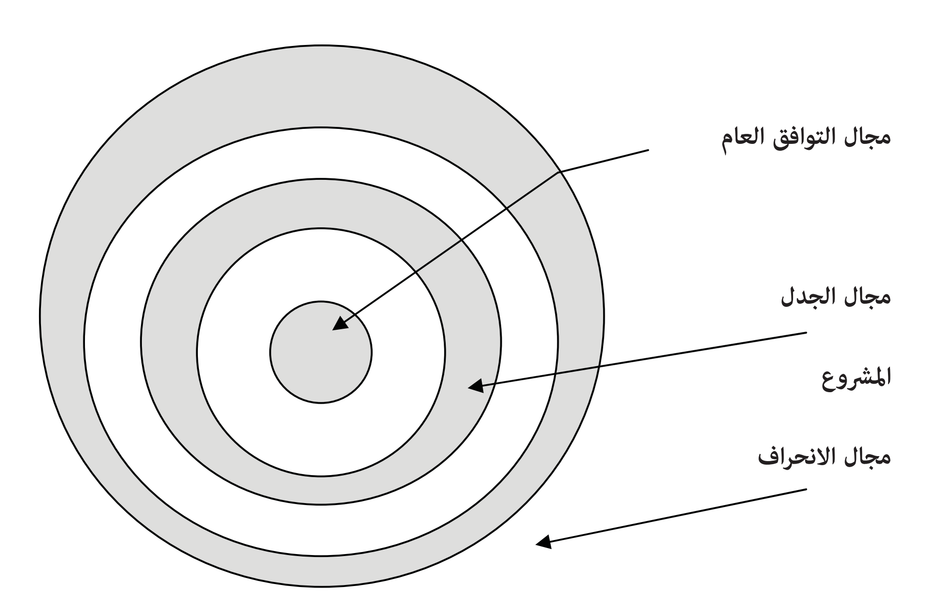
مختلفة". وأوضح فكرته باستخدام الرسم التخطيطي "للعلكة" كما يوضح في شكل 11 – 1. مجال التوافق (الإجماع) sphere of consensus يمثل قسم "الأمومة وفطيرة التفاح". وفي هذا القسم تجتمع كل "الكيانات" objects الاجتماعية التي تتفق بوجه عام على ألا يكون هناك خلاف عليها؛ مثلاً: لنكولن رئيس عظيم، وأي فرد يعمل بجدية يمكن أن ينجح في أمريكا. وعن هذا القسم يقول هالين: "لا يشعر الصحفيون بالاضطرار إلى تقديم الآراء المعارضة أو أن يظلوا مراقبين سلبيين"..

قسم الجدال المشروع legitimate controversy هو المساحة التي يعمل فيها معظم الصحفيين. وفي هذا المكان يقع جدال حول القضايا اليومية الهامة؛ مثلاً: شئون الحزب السياسية وأجندات الأخبار السياسية كما حددها كل من واشنطن وواتيهول. في بريطانيا يمكن أن نجد مثالاً لها في البرنامج الإخباري الصباحي "اليوم Today" في القناة الرابعة بهيئة الإذاعة البريطانية. أما مجال الانحراف sphere of deviance هو "عالم الجهات السياسية الفاعلة والآراء التي يرفضها الصحفيون والتيار السياسي السائد في المجتمع كآراء لا تستحق الاستماع إليها.

الحدود بين تلك المجالات الثلاثة ضبابية ومتقلبة، لكن في كل حالة حسب قول جاي روزن "الصحفيون هم الذين يؤكدون ويضطرون مجال التوافق، ويرسلون الأفكار والجهات الفاعلة إلى مجال الانحراف، ثم يحددون متى يتم التحول من مجال لآخر". في تلك العملية تظهر الجماهير كجزء من التوافق العام عندما يكون الحال في أغلب الأحيان ليس هو الحل.

رغم ذلك، يمكن أن نرى الافتقار إلى الفهم والرؤية العامة لأناس أو جماعات معينة لا يزال يمثل صعوبة مستمرة: "فالمشكلة السياسية الأكثر أهمية التي تواجهنا في القرن الحادي والعشرين يمكن أن تتمثل في أن الجماعات الكبرى

من المحررين من الحقوق - كالمهاجرين والمستوطنين وذوي الدخول المحدودة والمنخفضة مثلاً - لا يشعرون باندماجهم في المجتمع، كما لا يشعرون بأن قضاياهم وهمومهم لا تعالج من جانب المؤسسات السياسية التقليدية أو من جانب الوسائل الإخبارية ذات الشهرة الكبيرة أو منافذ الإعلام". في واقع الأمر أن حرمان مثل تلك المجموعات من حقوقها يمكن أن يقال إنه يشتمل على عدم القدرة على الدخول إلى شبكة الإنترنت عبر وصلات شاسعة ومناسبة.



(شكل 1 - 11: مجالات التوافق والجدل المشروع والانحراف)

إذا رغبت في جمهور فاستعد للعراك

كان العديد يفترضون أن المشهد الإعلامي الحالي يتكون من اتجاه عام يتميز بوجود مجال خاص تهيمن عليه مصادر مؤسسية تتراوح ما بين مؤسسات سياسية

إلى إدارات شركات ومندوبين لمؤسسات غير حكومية. ثمة استجابة أكثر قدماً لتلك الهيمنة الخاصة بالاتجاه العام يمكن أن نطلق عليها إفراز "عدد من المجالات البديلة كالمنتديات التي من خلالها تطرح الجماعات المهمشة عدداً مختلفاً من القضايا للنقاش بطرق مختلفة، وتسعى إلى الوصول إلى مدخل إلى الاتجاه العام، وتتمثل فيه أيضاً. إننا نعيش في عصر لم تعد فيه الجماعات المهمشة والثقافات الثانوية – من أي نوع كانت – على استعداد لأن يتم تجاهلها من ظل هيمنة أجهزة الإعلام الرسمية.

تحدث كل من أورنبرينج وجونسون عن التحليل الرباعي **four-point analysis** للمجالات العامة البديلة، والنقاط الأربع لها أمثلة تاريخية سابقة:

1. المكان **location**: الأحاديث التي تتم في وسائل الإعلام البديلة مثل الصحف المتخصصة وشبكة الإنترنت.
2. الناس **people**: يمكن التعرف على مشاركين آخرين غيرا أولئك الذين يهيمنون على الأحاديث الإعلامية بصورة معتادة.
3. المحتوى **content**: يتركز الجدل حول مسائل وقضايا تختلف عن تلك القضايا التي تطرح للجدل باستمرار.
4. الطريقة **methodology**: طرق النقاش تختلف عن الطرق التي اعتادت وسائل الإعلام الرسمية على استخدامها، مثل مشاركة المواطن.

هذه المجالات العامة والبديلة – ككيانات منفصلة – يمكن أن تفهم على أنها تمثل مشكلة على عدد من المستويات. فهي تفرض بيئة وسائل إعلام رسمية ثابتة، تفتقر إلى السلالة، غير قابلة للتغيير، ومستقرة نسبياً. وتلك لم تكن هي الحال في الماضي. فالصحف المتخصصة مثلاً غالباً ما تستهل جدلاً حول مسائل

كانت حينئذٍ تتغير كما توجهها وسائل الإعلام الرسمية؛ فصحيفة مثل صحيفة "الطبيعة" و"أمريكا العلمية" خير مثال على ذلك.

رسائل للمحرر

لم يكن للصحف الأولى رسائل للقراء ولا محررون. فكان مجال الجدل المشروع يحوز على اهتمام خاص من المحرر ومن القلة من القراء الذين يشاركون المحرر الرأي أو الذين تقوم الصحيفة على خدمة مصالحهم التجارية أو غير التجارية. ومع ذلك فقد لعبت الرسائل (الخطابات) دوراً هاماً في الحياة العامة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما كانت هامة أيضاً في مجال العلاقات العامة. تؤكد رسائل البريد المرسلة بلندن – كما ذكر ويليام دوكورا عام 1680 – أن الرسائل كانت ترسل لتوصيلها المكاتب بالمحاكم أو أماكن الأعمال التجارية والشركات عشر أو اثنتي عشرة مرة في اليوم، ولأماكن أخرى حسب المسافة من أربع إلى ثماني مرات. كان الأدباء – وغالباً ما كانوا هم أصحاب الأحكام الثقافية والاجتماعية في عصرهم – يمثلون شخصيات في غاية الأهمية في المجتمع حيث كانت الغالبية العظمى من الناس لا يجيدون القراءة أو الكتابة. هؤلاء الرجال كانوا يكتبون الرسائل للصحف، ولكنهم كانوا أيضاً ينشرون كتيبات ورسائل توجه للقارئ مباشرة وتدور حول المسائل اليومية.

أحد الأمثلة المبكرة على مثل تلك الرسائل هي رسائل كتبها جون ترينشارد وتوماس جوردون. وقد نشرت باسم مستعار (كاتو) في صحيفة لندن جورنال وبريتيش جورنال فيما بين عام 1720 وعام 1723. كان موضوعها حرية الكلمة والتحرر من الطغيان. كانت إحدى خصائص الكتابة الأولى للرسائل تتمثل في طبيعتها المجهولة. فحق توجيه اللوم أو الثناء أو الهجاء بصورة خفية، الذي يعد جوهرياً للصحافة الحرة وحرية الكلمة كان – مثلاً – يمثل جوهر

محاكمة عام 1735 لجون بيتر زنجر، فقد بدأ الحدث بنشر مقالة مجهولة المصدر. هذه السرية (عدم الكشف عن الهوية) كانت جزءاً من التقاليد المتفق عليها، وهي تقاليد ترى الصحافة المطبوعة بوجه خاص تكتب دون الاستفادة مما بين السطور. إن كتابة الرسائل بالتحديد كانت دائماً ما تخص المثقفين. وفي مجتمع يفتقر إلى وسيلة النقل والتوصيل (فالشكل الرسمي للبريد مدفوع الأجر بدأ في بريطانيا عام 1840 وصدرت أول مجموعة لطوابع البريد في الولايات المتحدة عام 1847)، ابتكر ملاك الصحف استراتيجيات تسويق أخرى لجذب الجمهور والحفاظ عليه.

بالنسبة للصحف، بدأت الصحيفة التقليدية - كما تطورت ببطء على قدر الأمان المالي لها - في توسيع دائرة العاملين بها، وهذا أدى بدوره إلى بروز المراحل الأولى من التخصص في الوظيفة. لقد قام آدم سميث بنشر "ثروة الأمم" في عام 1776 وبدأ "تقسيم العمل" كوسيلة لزيادة القدرة على الإنتاج يتأصل في كل وسيلة من رسائل الصناعة. وهكذا، فقد بدأ ظهور المحرر كمنظم لكل هذه الأيدي العاملة وليس كصحفي. لقد تطور عمل المحرر خلال القرن التاسع عشر إذ أنه تولى تدريجياً مسئولية ملكيته الاقتصادية لصحيفته وتوجيهها تجارياً وسياسياً. كما زادت أيضاً نسبة التوزيع أثناء تلك الفترة رغم عدم وجود عناوين بارزة، ولا تصميم حقيقي للصفحة، لكن يوجد القليل جداً من الطباعة ذات الصور المائية.

سيرة ذاتية

سي بي سكوت ومانشستر جارديان

ولد تشارلز بريستيوش سكوت Charles Prestwich في عام 1846 في بات بولاية سمرسيت. وهو ابن شقيق مؤسس صحيفة "مانشستر جارديان"

جـون إدوارد نيلـور. في عـان 1870 ذهـب إلى إدنـبره ليتـدرب عـلى دورة "الاسـكتلندي" Scotsman، ثم انضم إلى صحيفة مانشستر جارديان عام 1871 وأصبح رئيساً للتحرير عـام 1872. تم انتخابه عضواً في البرلمان عن دائرة "لاي" شمال شرقي مانشستر في عام 1895 ثم أصبح رئيساً للاتحاد الفيدرالي لمانشستر. ورغـم أنـه كـان يقـيم في مانشـستر إلا أنـه أصـبح شخصية عامة ذات نفوذ في الدوائر الليبرالية حيـث كـان يؤيـد التـصويت مـن أجـل المـرأة وإصلاح مجلس اللوردات. وغادر البرلمان عـام 1906 ليركـز عـلى إدارة الـصحيفة التـي قـام بشرائها بعد وفاة مالكها.

في إحدى المقالات الشهيرة التي ألفها للاحتفال بالعيد المئـوي للـصحيفة عـام 1921، طبـق سكوت المبادئ الإرشادية الخاصة به على دور الصحيفة. فكتابة التقارير الإخبارية الدقيقـة كانت من أوائل واجباته، كما قام بصياغة العبارة التي نعرفها الآن: "لنا حرية التعليـق، أمـا الحقائق فهي شيء مقدس". ظل سكوت يعمل محرراً حتى عام 1919 وتوفي في عام 1932. ثم خلفه ابنه الأصغر تيد. أما ابنه الأوسط "جون" فقد تولى الوظيفة بعد موت تيد المبكر، وقام بتأسـيس "صـندوق سـكوت" الـذي يمتلـك الآن صـحيفة الجارديـان نيـوز ومجموعـة شركات ميديا جروب. في عام 1959 أسقطت الصحيفة اسم مانشستر من عنوانها.

الفصل الثاني عشر

كيف أعاد الجمهور كتابة السيناريو

في نـصه المـؤثر "الديمقراطيـة في أمريكـا" عـام 1831زعـم أليكـسس دي كـوكفي Alexis de Tocqueville أن "سكان الولايـات المتحـدة لـيس لـديهم الآن (حينئـذٍ) أدب قـومي. فـالمؤلفون الذين اعرفهم كأمريكيين هم الصحفيون فقط. إنهم في الواقع ليسوا كتاباً كباراً, لكنهم يتحـدثون بلغة مواطنيهم, ويجعلون مـنهم آذانـاً صـاغية". مـن القـراءة الأولى لهـذا الـنص ربمـا نعتقـد أن توكفي يصب جام غضبه - مع شيء من الثناء - لكن إذا تأملنا النص سيتضح لنا أنه يبدى امتنانه للعطاء الصحفي العظيم، ذلك لأن الصحفيين استطاعوا أن يتحدثوا "بصوت" مواطنيهم.

لكن فكرة "المواطنين" كجمهور لا يوجد غيره أصبح مـسألة متنـازع عليهـا.لقـد شـهد القـرن التاسع عشر نشأة مجموعات المصالح الخاصـة بالإضـافة إلى التوجـه المتزايـد للجماهـير نحـو الالتفاف حول مثل لكل الأفكار الغامضة كالعرقية المشتركة والجنس و الطبقـة. وشرع النـاس في أن يروا أنفسهم وكأنهم يقطنون عـدداً مـن "المحـالات" المختلفـة. يفهمـون الآن مـثلاً أن السحاقيات والمديرين التنفيذيين من السود والسياسيين البروليتاريين، وحتى "ربات البيـوت" اللائي يفيض بهن العالم، كل أولئك عليهم أن يقطنوا عوالم متعددة، وربمـا تفـي فكـرة وجـود صحافة عامة متجانسة بالغرض لهم جميعاً، أو ربما في واقع الأمر أصبحت حاجـاتهم لا يمكـن الوفاء بها بصورة تدريجية.

أصوات أخرى ... مساحات أخرى

في الرابع من مايو عام 1884 قبل أن تحث روزا باركس **Rosa Parks** حركة الحقوق المدنية بما يربو على 70 عاماً عندما رفضت أن تتخلى عن مقعدها في الأتوبيس للرجل الأبيض (في منتجمري بولاية ألاباما) آيد بي (12 عاماً). رفضت "ويلز" تخصيص عربة منفصلة في القطار للجلوس في مقاعد السيدات. وبعد أن تم إجبارها على ترك العربة، خرجت من القطار واستأجرت محامياً ورفعت دعوى قضائية ضد شركة تشيسابيك وأوهايو للسكك الحديدية على أساس أن السود قد تم "نفيهم" إلى العربات التي يسمح بالتدخين بها في حين يدعو القانون إلى المساواة في وسائل المواصلات العامة. وحكمت لها المحكمة بالتعويض 500 دولار.

في 25 ديسمبر عام 1884 كتبت صحيفة ممفيس ديلي أبيل: "فتاة سوداء تحصل على تعويض". في حين ألغت المحكمة العليا للولاية حكم محكمة الدائرة في عام 1887، هذه التجربة روجت لسمعة صحيفة جسورة حيث وضعت رزقها وحياتها على المحك دون رهبة أو تردد في مواجهة الظلم العنصري. وبعد أن كتب عن معركتها القانونية في الصحيفة الدينية الأسبوعية "ليفنج واي"، استغلت ويلز الصحافة لمدة ما يقرب من أربعة عقود كسلاح ضد التعصب العنصري الخبيث الذي كان يكتسح الجنوب.

في عام 1889 انتشر عمودها "ليفنج واي" في جميع صحف السود تحت اسم مستعار "آيولا".

هذه الرواية التي نقلتها لنا باميلا نيوكريك توضح الإنقسام في التمثيل أو العرض العرقي في الصحافة الرسمية. ازدادت فاعلية العنوان الرئيسي لصحيفة

ممفيس ديلي أبيل بسرعة كبيرة وعملت على نشر أفكار العرقية (ممثلة في "سوداء") والأنوثة (ممثلة في "رامسيل") من أجل التقليل من شأن الجوانب الموضوعية في الرواية. تلك الردود – التي كانت تشتهر بمثلها تلك الفترة – كانت تمثل عاملاً مهماً للظهور المستمر للصحافة العرقية في الولايات المتحدة.

صدرت أول صحيفة أمريكية سوداء (صحيفة فريدومز جورنال) في عام 1827 حين كان هناك جدال على المستوى القومي ترحيل الأمريكيين الأفارقة على أفريقيا. كانت الصحيفة تعارض العبودية بشدة، كما تعارض الاستعمار وتهدف إلى مواجهة الصور السلبية التي تنشرها الصحف الأخرى عن السود وكأنهم أقل شأناً. وهي بذلك كانت أول صحيفة تخطو نحو "أول غزوة" في النقد الإعلامي. هدف مؤسسي الصحيفة الثاني – حيث أسسها كل من الموقر صامويل كورنيش وجون براون راسوورم – تغطية القضايا التي يتم تجاهلها والتي تجعل السود بعيدين عن الرؤية العامة. لذلك أخفقت غالبية صحف نيويورك اليومية – باستثناء ألباني آجروس – في حتى أن تذكر تحرير السود في ولاية نيويورك في الرابع من يوليو عام 1827.

في ولايات الجنوب كان الكفاح من أجل الاتصال محفوفاً بالمخاطر: فصحيفة سانت لويس أوبزيرفور كانت دائماً ما تتوقف عن العمل بسبب العصابات الموالية للرق، وهي صحيفة كانت دائماً ما تغلق في كل أسبوع. وفي المحاولة الثالثة لتأسيس صحافة خاصة به، قام صاحب الصحيفة إيليجا لوفجوي Elijiah Lovejoy قتله أحد الغوغاء. في بدايات القرن العشرين – عندما شرع الأمريكيون الأفارقة في الحراك من المناطق الريفية إلى المناطق الحفرية بأعداد كبيرة – أفرزت معظم المدن التي ازداد فيها تعديد السكان السود صحافة أمريكية أفريقية نابضة بالحياة. كان من بين الصحف الكبرى صحيفة شيكاغو ديفيندر وصحيفة ديترويت تريبيون وصحيفة نيويورك أمستردام نيوز.

في الولايات المتحدة اليوم ليس مستغرباً أن تقوم المدن الكبرى بدعم العديد من الصحف المختلفة التي تستهدف الجماعات الدينية والعنصرية والعرقية. كما يتضح لنا أن الصحافة العامة السائدة - رغم انتشارها الواسع - لا تستطيع معالجة قضايا الأقليات بطريقة ترخي جماهير تلك الأقليات. ففي نيويورك مثلاً طرحت إحدى الدراسات الحديثة بعنوان "العرقية" والتي أجراها مشروع التميز في الصحافة عام 2008 السؤال التالي: "ما الذي يتعلمه أو لا يتعلمه قارئ أو مشاهد وسائل الإعلام العرقية الريسية (اللغة الأسبانية) عن حدث معين بالمقارنة مع ما يعرض باللغة الإنجليزية؟ القضية المطروحة كانت عبارة عن الجدل الذي دار في عام 2007 حول إصلاح قانون الهجرة الذي أخفق في التقدم داخل مجلس الشيوخ. وقد توصلت الدراسة إلى أن الجماهير الأسبانية التي تلجأ إلى الأخبار الناطقة بلغتهم الأصلية - وخاصة برامج البث - يستمعون إلى جانب مختلف تماماً من فشل مشروع القانون.

مقارنة مع ذلك، تفتقر الصحافة العرقية في بريطانيا إلى اللمحة القومية العالية, كما تتركز أساساً في العاصمة لندن. كانت صحيفة بلاك فويس (1970 - 1999) - لسان حال حزب وحدة وحرية السود Black Unity وهو تكتل يساري مراديكالي - هي الصحيفة التي قامت بتوثيق العديد من الانتهاكات التي كان يعاني منها السود بما فيها "وحشية الشرطة". تم حل الحزب عام 1998، كما توقفت صحيفته بناءً على حل. أما الصحيفة الأكثر أهمية وسط صحف المملكة المتحدة العرقية فهي صحيفة "فويس" Voice التي كانت تصدر أساساً في بريكستون جنوبي لندن. وهي صحيفة شعبية قومية أسبوعية تستهدف الجالية البريطانية الأفروكاريبيان، وأسسها فال ماكيلا - المولود في جامايكا - بمنحة من مجلس لندن الأعلى Greater London Council في أغقاب أعمال الشغب العنصرية في بريكستون عام 1981. وكانت تشن حملاتها لصالح السود والقضايا التي تتعلق بالأقليات في كل أنحاء الدولة.

اليقين المتسارع

يعتبر ظهور الصحافة الرياضية أحد الأمثلة الهامة لمصالح واهتمامات الأقليات التي تتسلل إلى الصحافة السائدة. وأولى الصحف المخصصة لكل أنواع النشاط الرياضي كانت الصحيفة الشهرية "سبورتنج مجازين" التي صدرت في لندن من عام 1772 وحتى عام 1792. على غير العادة، تم تشجيع القراء على المشاركة بالمادة، وأصر مالك الصحيفة جون ويبل على الدقة الكاملة. وكانت الصحيفة تغطي المجالات الرياضية مثل الصيد والسباق ومعارك الديوك والكريكيت وغيرها. وفي عام 1822 أسس روبرت بيل "بليز لايف" وهي صحيفة أسبوعية أصبحت الصحيفة الرياضية الرائدة في فترة وجيزة. في الولايات المتحدة، كانت الصحف تقوم بتغطية الأحداث الرياضية بصورة متقطعة منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. ومع ذلك كانت صحف البيسبول لا تعمر لفترة طويلةز كانت صحيفة بولبلايرز كرونيكل أول صحيفة أسبوعية تكرست بالكامل للعبة البيسبول ومع ذلك فقد استمرت لمدة عام فقط (1867). وكان أول مراسل رياضي يعمل كمتفرغ لصحيفة يومية هو هنري تشادويك "أبا البيسبول" الذي استأجره جيمس جوردن بينيت في عام 1863 ليقوم بتغطية البيسبول لصحيفة نيويورك هيرالد.

على عكس ذلك، يلفت مايكل أوريارد في كتابه "قراءة كرة القدم" انتباهنا إلى التغطية الواسعة لكرة القدم (الأمريكية) في الصحف اليومية في نهايات القرن التاسع عشر. عندما اشترى جوزيف بوليتسر صحيفة النيويورك وورلد عام 1883، كان أول ما قام به كناشر تأسيس أول قسم منفصل للرياضة، ويرأس القسم المحرر الرياضي بنفسه. هذا على وجه الخصوص – بالإضافة إلى الصحافة اليومية في نيويورك بوجه عام – كان له أثر كبير في كرة القدم بالكامل ... وهو أثر أكبر مما تركه التليفزيون على كرة القدم الاحترافية في

الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

دراسة الإتقان

أول صحيفة تم تخصيصها للمرأة كانت صحيفة "ليـديز ماجـازين" Lady's Magazine اللندنيـة في عام 1770. ثم تبعتها صحيفة "ليديز مونثلي ميوزيـوم" عـام 1798 التـي أصـدرتها "الجمعيـة النسائية". وفي القرن الجديد استهل جون بيل صحيفة لابيل آسـيمبل عـام 1806. هـذه الـصحف الثلاث التي اندمجت عام 1832 كانت صحفاً أرستقراطية أكثر منها شـعبية ولكنهـا "قـد أسـست مجلة المرأة من النوع الذي نعرفه اليوم. وأول مثال أمريكي لمجلة المـرأة الـشعبية كانـت جـوديز ليديز بوك Godey's Ladies Book (1830 – 1898). حسب رأي تراسي سـينيكا: "في حـين كـان هناك مطبوعات للمرأة، كانت مجلة جوديز أفضل مجلة ناجحة، كما كانت أول مجلة تقترب من الشكل القياسي الذي نعرفه الآن". فقد كانت تشتمل على قصص قـصيرة وأشـعار، وكانـت تعـالج القضايا الشخصية، كما كانت تشتمل على إعلانات للوظائف. والأمر الأكـثر أهميـة هـو أن القـراء كانوا في مسار وطبيعة المجلة.

رغم ذلك، فمجلات المرأة مهما كانت من الأهمية ومهما كانت مألوفـة ومعروفـة إلا أنهـا كانـت عبارة عن مساحة بديلة أدت إلى دعم وتعزيز حيـاة المـرأة العائليـة في إطـار بيئـة متطـورة ذات منحنى استهلاكي. فثمة صحف مثـل الـصحيفة البريطانيـة "ويمينـز بينـي بيـبر" (1888 – 1890) كانت تستغل النساء للكتابـة عـن المـرأة ولكنهـا كانـت تتمتـع بالقليـل مـن النجـاح، وهـي الآن معروفة بأنها كانت تدعم وتساند حركة التـصويت حيـث وجـدت جمهورهـا الـذي يـؤمن بتلـك القضية.

لقـد كانـت أجهـزة الإعـلام الرسـمية الـسائدة – التـي تـأثرت بالـصحافة الجديـدة

لنهاية القرن - هي التي أظهرت قدرة لا على أن تروق للقارئات من النساء فقط، بل أيضاً على تسليعهم ثم تحويلهم إلى مستهلكات لأنهن يتعرضن لنفاق ورياء الحملات الإعلانية كما يتعرض بها الرجال تماما" أصبحت المقالات الرائدة وصفحات المرأة منتشرة على نطاق واسع، كما ازدادت الإعلانات التي تستهدف المستهلكات أهمية. ففي بريطانيا، كانت صحيفة الديلي بيل أكثر الصحف شهرة، فكانت تشتمل على عناصر تروق للمرأة بصورة مباشرة. أما مجلة الديلي مجازين فقد طهرت لأول مرة بعنوان فرعي يتضمن "فكرة جديدة تماماً في صحافة الصباح". والخط الذي وكأنه يتبختر جذب الانتباه إلى الطبيعة المرحة التي تسيطر على الصحيفة. علاوة على ذلك، يعتبر أسلوب المجلة مختلفاً تماماً عن أسلوب الصحف الأخرى. لقد تألم ألفريد هارمسوورث عندما أشار إلى أن "الحركات في عالم المرأة ... بدأت تجذب الاهتمام بنسبة تسعة من عشرة مقابل القضايا والأمور التي تتعامل معها الصحف اليومية العادية. لذلك، فقد تم تخصيص عمودين للمرأة بوجه خاص.

التزمت الصحافة الحديثة بمفاهيم تأنيث الصحافةز وقد أتاح ذلك معجماً جديداً من خلاله يمكن استخدام تلك السمات التي كانت تستخدم للتمييز بين ما هو مؤنث وما هو مذكر للتمييز أيضاً بين الصحافة الجديدة والصحافة القديمة. فالصحافة الجديدة كانت حميمية وليست متسلطة؛ فكانت تؤكد على الملاحظات الشخصية في كتابة التقارير الصحفية، وعلاوة على ذلك، كانت تركز بصورة أكبر بكثير على حياة "العاديين" من البشر ولا تركز على الشخصيات العامة "البطولية". أتاحت الصحافة الجديدة اللهجة العامية التي لم تتظاهر بأنها ترعى قراءها أو تختلق لذرائع الفكرية، وهذا قد أدى إلى تغيير من الطبيعة التعليمية والفكرية.

خلال تلك العملية، غالباً ما كان يتم تصوير الصحافة النسائية بنغمات سخيفة

بدءاً من "اكتبي يا جاني" Jannie Jot-it-down مع الغياب الكامل لكل الموضوعات التي تخص الكبار مثل القواعد والإحساس العام وأسلوب المعيشة، لتسير نحو المرأة "المسترجلة" التي تبدو كأنها تسير نحو القيام بسلوك شائن. لو أن ثمة شيئاً يكرهه "الرجل الإنجليزي" ويسخر منه - كما كتب مراسل صحيفة جيرلز أون - فلن يكون سوى المرأة المذكرة اللاأنوثية.

ملف حقائق

مجلة لو بيتي

مجلة لو بيتي Le Petit Journal هي صحيفة شعبية بنظام التابلويد كانت تصدر في باريس ما بين عام 1863 وعام 1944. وقد أسسها مواس بوليدور ميلو، وفي ظل ذروة شعبيتها وشهرتها كان توزيعها يبلغ مليون نسخة في اليوم. كان ميلو يفهم أن المحلة تحتاج إلى أن تكون جذابة للانتباه ويسهل قراءتها. كانت صحيفة غير سياسية بمعنى أنها كانت غير منحازة ولذلك فقد كانت معفاة من رسوم التأمين القانوني والغرامة التي تدفع في حال شمولها على محتوى عدائي في زمن الرقابة.

في الوقت الذي كانت فيه الصحف السياسية على جانبي الأطلنطي تنخفض معدلاتها، يمكن أن نرى صحيفة لو بيتي - التي تخص بالمصلحة البشرية والأمور المنزلية وكل أنواع الروايات والمسلسلات التي تهدف إلى توسيع دائرة القراء من الإناث - كصحيفة تسير في عكس اتجاه الصحف الأخرى مثل ومانز بيني بير في بريطانيا وصحيفة تروث في أمريكا، وهي صحف كانت مهمشة كصحف نسائية لأنها كانت تسعى فقط إلى توسيع دائرة القراء.

في واقع الأمر لقد اتخذت الصحيفة شكلاً من أشكال التأنيث المحافظ.

يصف أحد التقارير المعاصرة أسلوب مجلة لو بيني بالأسلوب الذي يجسد ويظهر كل ما يفكر فيه الفرد، حتى لو كان هذا التفكير يتصف بالجرأة. لقد تـأثر ألفريد هارمسوورث (الذي عرف بعد ذلك باسم اللورد نورثكليف في عام **1905**) بالتوزيع الكبير للصحيفة الفرنسية ونموذجها التجاري الناجح، فقام بانتقاء أفكار ملاك الصحف الفرنسيين أثناء زياراته لمكاتبهم ومؤسساتهم قبل إصداره لصحيفته الديلي ميل مباشرة. وثمة دليل على أن كل أعمال نورثكليف المتميزة تدين كثيراً لأفكار صحيفة لو بيتي. ففي عام **1891** مثلاً اقمت لو بيتي سباقاً للدراجات، وفي عام **1894** قامت بافتتاح أول سباق للسيارات.

العميل المحرض

ثمة فرق كبير بين شكل الصحف في بداية القرن التاسع عشر وبين شكلها قرب نهايته. فقد أبرمت الاتفاقات حول التخطيط والأسلوب فقط بصورة تدريجية، وكانت الصحافة الأسبوعية - وليست الصحافة اليومية - التي كانت تشكل بؤرة الإبداع. على سبيل المثال، كانت صحيفة أخبار لندن المصورة التي صدرت عام 1842 أو صحيفة عالمية أسبوعية مصورة. لأن ثمنها كان ستة قروش (ستة بنسات) كانت الصحيفة تتكون من 16 صفحة و12 وودكتس (نقوش خشبية). كما شهد منتصف القرن ازدياد الصحافة الشعبية الخاصة بأيام الأحد في بريطانيا مع صحيفة لويدز ويكلي (1843) ورينولدز ويكلي (1850).

في نهاية القرن زاد التلغراف وانتشار شبكة السكك الحديدية من سرعة انتشار توزيع ونقل المعلومات في وقت كانت فيه مساحة الصفحة واقعة تحت ضغط المطالب المتزايدة من قبل شركات الإعلان. وقد تطورت تكنولوجيا الطباعة

بصورة مؤثرة، ولكن ليس للمدى الذي يمكن فيه أن تطبع الصحيفة اليومية أي عدد من الصفحات وتظل توزع حتى الصباح التالي. وبما أن أساليب الأخبار قد تطورت، فقد تطورت كذلك طرق التعامل مع الجمهور. فالقرارات التي تركز على ما يجب التضحية به، وما يجب أن ينشر، بالإضافة إلى القرارات بشأن الأحداث التي تناسب أذواق الجمهور، كل ذلك شكل جزءاً من فلسفة بدأت تبرز، وتمت صياغتها لتتمركز حول مفاهيم مثل الأجندات الإخبارية والقيم الإخبارية. فقد بدأت "تصميم الجمهور" للصحيفة يعكس آمال وتوقعات القراء بالإضافة إلى توجهات الصحيفة الثقافية والسياسية.

في بداية الصحافة (قبل التجارية)، كان شكل الصحيفة يبدو كعريضة الدعوى والقائمة والقائمة التي يصدرها القراء الموالون للصحيفة ترسل إلى المطبعة. فكلمة "المشترك" **subscriber** توحي بالالتزام المتبادل بين الصحفيين والناشر والقراء بالأفكار التي يحتوي عليها دليل العمل المطبوع. في الولايات المتحدة - الدولة التي يوجد بها كثافة سكانية منفصلة في ساحات واسعة ويصعب الوصول إليها - كانت مبيعات الاشتراكات (الاكتتاب)، وخاصة مبيعات المعاداة للرق، وحقوق المرأة، والمطبوعات الاجتماعية، أمراً ضرورياً لبقاء الصحيفة. كانت تلك المبيعات تعتمد على الجهود الهائلة للعملاء الذين يسافرون آلاف الأميال عبر الدولة ليدلوا بأحاديث أمام الجماهير وأثناء الاجتماعات واللقاءات، ويقدمون أفكاراً جديدة، وينشرون الدعاية للصحف التي حملت أفكارهم.

رغم ذلك، في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر - حسب قول جين شلبي **Jean Chalaby** - اختفى الحوار العام بسرعة، وحل محله الحوار الصحفي التجاري. وكانت الصحف - كل على حدة - تعمل على تطوير "صورة عدستها" الخاصة "التي من خلالها تهشمت وتكسرت الحقيقة؛ الصورة التي

حولت كل ادعاء للصحف إلى سلطة وأصالة". بالنسبة للعديد من الصحف، هناك ما هو أكثر موثوقية وأصالة قليلاً من قصة "المصلحة الإنسانية"، ومثل هذه الصحافة لابد أنها تجد جمهوراً عاماً على استعداد - بل وبتحمس - لقراءتها.

هل يمكن أن أبرهن لك على ذلك ؟

يتطلب جمع الأخبار من الصحفي أن يتحدث إلى الناس - غالباً باسلوب غير رسمي - والمقابلة من المؤكد أنها تعد في نفس قدم الصحافة نفسها. لكن حتى منتصف القرن التاسع عشر كان صوت "الضيف" غالباً بصورة كبيرة. تتكون الصحيفة من النثر الوصفي والنسخ الحرفية من الأحاديث والإجراءات الأخرى مع بعض المحتوى التفسيري المشتت. المعنى الضمني واضح؛ كان الصحفيون يعرفون جيداً ما يعرضونه على القراء وخلال العملية يفرضون نوعاً من الاستبداد وفي باطنه الرحمة. يصف عالم الاجتماع مايكل سكودسون كيف بدأ الصحفيون السياسيون في أمريكا أنهم يروا دورهم كما يلي: "انه دور يتضمن بعض التفسير والترجمة الأساسية للأفعال السياسية لجمهور سيئ الإعداد والتجهيز ليختار لنفسه معنى الأحداث".

إن المرشحين لتمثيل من قاموا بإجراء أول اللقاءات "الحقيقية" كثيرون. فإدموند ياكس كان يقدم "مشاهير في المنزل" لدوريته "العالم" في عام 1874 عبارة عن إبداع سرعان ما قامت الصحف المنافسة بنسخة وتداوله (وكان هذا أول سياق يستخدم فيه لفظ "مشهور" Celebrity). ومع ذلك فقبل ذلك بعقد من الزمان، في عام 1865 كان جورج أوجستس سالا من صحيفة الديلي تليجراف البريطانية قد عقد مقابلة مع نابليون الثالث، وبعد ذلك بعام عقد لقاء مع جاريبالدي أثناء حولة النمسا عام 1866. كما عقد ألفريد أوستين من صحيفة

ستاندارد اللندنية لقاءً مع بسمارك في سبتمبر عام 1870. هذه الأمثلة تتبع نظاماً يتضمن عـدداً من الأفكار المنفصلة: يقوم الصحفي بالاتصال الشخصي مع الرجل الذي تمتـع بالشـهرة، يناقشـان سوياً بعض الأمور العامة السائدة، ثم يقوم الصحفي بإيضاح الحقيقة التي تناولتها المقابلـة عنـد نشر تقريره.

لا شك أن دبليو ستيد – عندما كان رئيساً لتحرير بول مول جازيـت – كـان يجعـل المقابلـة ذات شهرة كبيرة. كما كان يضفي عليها نوعاً من الديمقراطية؟ تذكر لوس براون أن: "حيثما كـان سـتيد ... في أية مقابلة كان يضفي أسلوباً منهجياً كمبدع على المقابلة. كانت مقابلات سـتيد عـادة هـي القصة. فنوع المعلومات التي كانت تضمنها المقابلـة لم تكـن اسـتبدادية سـواءً في محتواهـا أو في نبرتها، ولكنها كانت غالبة ذاتية؛ فكان ستيد يستخدم كلمات الضيف كما هي بدلاً مـن اسـتخدام الصيغة التقديرية (المباشرة) لها. كان ضـيوفه مـن النـاس العـاديين (الموجـودين في كـل مكـان في الشارع) ولم يتم انتقاؤهم أو اختيارهم وسط أحداث هامة.

يذكر المؤرخ جيمس ستارت أنه "في عهـد الصـحافة الجديـدة، ظلـت الصـحافة الجديـدة باقيـة". وهذا يعني أن كلاً من "النخبة" و"الفئة الشعبية" كانا موجـودين معـاً بثقـافتهما المطبوعـة، وأن الصحافة الجديدة كانت تسير في مسار تجاري28 صحيح رغم أنها لم تكن – من المحتمـل بـالطبع – صحافة جيدة. ومع ذلك، لها تأثير واضح على جانبي الأطلنطي. فوجود بيئة متطـورة ومطـردة تضم المخاوف من الجمهور وعنه كان جديداً في ذلك الوقت، كما كان له آثـار قويـة عـلى ابتكـار وتطوير الاستراتيجيات الإعلانية خلال القرن العشرين في كلاً من الطباعة وأجهزة البـث الإخباريـة الوليدة.

الفصل الثالث عشر

المشاهدة والاستماع

كان هناك طبعة وهمية لصحيفة الديلي ميل بتاريخ 22 فبراير عام 1896 كانت تحمل عنوان الصفحة الرئيسي " رجل اللسعة" The Man of the Moment أعلى صورة مرسومة للينـدر ستار جيمسون. كان التعليق على الصورة يقول:" ليباركك الرب يا د. جيمسون ! هذه أحب البلاد إليك ! كان جيمسون يشتهر بدكتور جيمسون أو بالدكتور واكتسب سمعة سيئة بعد فشل "مداهمة جيمسون" في ديسمبر عام 1895 التي كانت إحدى بوادر حرب البوير (من عام 1899 وحتى عام 1902). كان جيمسون قد أجتمع قوة من 600 رجل عبروا إلى ترانسنال جنوبي أفريقيا في محاولة للإطاحة بحكومة البوب. كانت خطته تحقيق طفرة مكانية في خلال أيام نحو جوهانسبرج والتحريض على انتفاضة من جانب العمال البريطانيين الوافدين الذين يشكلون أغلبية نسبة 1:2 في مقابل عمال البوب ذوي الأصل الألماني. اضطر جيمسون وجيشه الخاص الإبحار عائدين إلى إنجلترا ليواجهوا المحاكمة.

أثار اعتقال جيمسون ضجة في لندن. تسرب خبر برقية مرسلة من قيصر ألمانيا إلى يهنئ فيها الرئيس كروجر وحكومة البوير على نجاحهم إلى الصحافة فأثار ذلك عاصفة من الشعور بمعاداة الألمان كان جيمسون محتفي به من قبل الصحافة والمجتمع في لندن. فشرت إحدى طبعات الديلي ميل في 26 فبراير عام 1896 عنواناً رئيسياً من أربعة أجزاء: د. جيم/ مشاهد غير عادية في محكمة باوستريت/فرحة فوق فرحة/ تقارير وصفية خاصة للجلسة الافتتاحية للمحاكة

الكبرى هذه التغطية كانت أقل ما يقال عنها إنها غير عادية. كانت هذه أحد الأمثلة المبكرة لاستجابة أجهزة الإعلام للرأي العام وتغذيته أيضاً. فقد تم تقديم جيمسون كعلاج للخطر الألماني المحدق ورغم فشل هجومه أصبح بطلاً أصيلاً في غياب أي منافس له. هذه النجومية التي حققها رغم كل ذلك كانت ترتكز على أعماله عموماً وعلى شخصية لا من وحى حياته الخاصة. فانتهك الخصوصية كانت لا تزال خطوة بعيدة المنال لدى معظم المؤسسات الإخبارية. في الماضي كانت تلك النجومية تمنح لأفراد معينين طبقاً لما فعلوه أو لم يفعلوه، ولكن دون مساعدة صحافة عالمية تجعلهم في مستوى فهم العامة، وهذه الحالة كانت مؤقتة.

لكل شخص الحق في رأيي

كان لا بد للقراء الموقرين والنقاد الثقافيين من بعض هذه الصحافة" الجديدة" إذا أنها رغم ذلك كانت تمثل انتهاكاً لتقاليدهم المقدسة. لقد كانت الاستخدام المتزايد للصور ووصول إعلانات العروض يغير صفحات الصحف مثل الديلي ميرور في بريطانيا ونيويورك وورلد. فهذه الصحف بالإضافة إلى عنصر المصلحة الإنسانية الجديد شرعوا جميعاً في ضغط المساحة المتاحة، والخاسر في هذه الحرب -حرب المساحة- هو الأمور السياسية والاقتصادية ؛ الموضوعات التي يسيطر عليها التوجه الذكوري، والتي تعتبر حجر أساس الصحافة المهنية يذكر كيفين ويليامز أن تحليل المحتوى توصل إلى أن الديلي ميل والديلي ميرور... خفضتا تغطية الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية أثناء فترة الحرب.

هذا التطور رغم أنه تطور بطيء، كان في بداية القرن العشرين، وكان أيضاً يعكس الوعي المتزايد بالحاجة إلى توسيع دائرة الجمهور – حتى لو كان ذلك

الأسباب اقتصادية - لتصل إلى أناس يمكن أن تواجه مهاراتهم القرائية وأوقاتهم المتاحة ومدى استيعابهم صعوبة وتحدياً على طريقة التايمز للندئية. ولذلك كان لا بد أن تبدو الصحافة كانعكاس للطبقة لا للمصالح الثقافية أو الاجتماعية فقط. إن الاهتمام بالمقابلات interviews يمكن أن ينظر إليه كجزء من "كفاح" الطبقة هذا. فقد أدى إلى توسيع عملية جمع الأخبار.

كانت النتيجة الحتمية للتشهير - نظراً للتوسع الأفقي في عملية جمع الأخبار - هي الشهرة أو السمعة السيئة، وبمجرد أن تكشف المقابلة عن المشاعر والآراء، تبدأ أنواع معينة من الضيوف في تحقيق ما يوصف الآن بالنجومية. ومع ذلك فالمشاهير ليسوا كثيرين،ولكن بصفتهم أقلية مكشوفة فإنهم يستفيدون من الظهور المتميز عن طريق أجهزة الإعلام أمام المجال العام لذلك فعندما يصبح "النجم" على علاقة بمشروعات أو أدوار معينو تصبح وسائل الإعلام شريكاً في استغلال الإمكانات التجارية المتحملة. هذه الشراكة بين أخبار المشاهير والأهداف المالية يعود تاريخها إلى الأيام الأولى لإنشاء استوديوهات هوليود ونظام نجومها. فالفيلم كان يسهل بيعه إذا كان متعلقاً بأحد المشاهير، والشخصية الشهيرة يسهل بيعها إذا كان لها" وسيلة لنقل" الفيلم تستتر خلفها أية جوانب غير طبيعة في حياتها الخاصة. على سبيل المثال، كان روك هودسون عبارة عن "شباك تذاكر" هائل في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين حيث تم اختياره "نجم العام" و"الشخصية المفضلة". وكان دائماً تلتقط له الصور في صحبة الفتيات الجميلات. ومع ذلك فقد كان هودسون لواطياً في وقت كان فيه هذا النوع من الشذوذ يعتبر "سم" سباك التذاكر.

يستفيد الرأسماليون استفادة كبيرة من وراء هؤلاء المشاهير بأسلوب يطلق علية عالم الاجتماع إدجار مورين "غذاء ملكات نحل" المشاهير. فالمشاهير - مثل النحل - ينتجون غذاء الملكات، لكن في هذا الحالة يتجسد غذاء الملكات في

الملابس وأدوات الزينة(الإكسسوار) ومنتجات العروض الأخرى وأساليب الناقة التي يمكن أيضاً أن يحتاج إليها أناس عاديون طالما لديهم القدرة على شرائها. هذه الأفكار الجديدة التي أنتجت ما هو شخص" كاختبار عباد الشمس" للثقافة الشعبية فرها إدجار مورين بصورة أكثر إيجابية بأنها خرب روائي يغمر ثقافة الجماهير بأفكاره التي تتضمن الحب والمغامرة والحياة الخاصة مثلاً. فثقافة الجماهير تتمتع بميل تاريخي نحو التركيز على البحث عن سعادة الفرد وجوانب إخفاقاتها، لذلك فإن الروايات الشعبية (التابلون) على وجه الخصوص شرعت في إتباع الأفراد (في الغالب من المشاهير) الذين يمتلكون روايات خاصة بالمصلحة الإنسانية تدور أحداثها الحقيقية حول السعادة والندم وغيرهما.

الثقافة التشاركية

في الماضي، خلفت الصحافة أثراً بنائياً علي أشكال ومدى مشاركة العامة في التواصل الاجتماعي. فالإذاعة – ثم بعد ذلك التليفزيون – كان كل منهما ينافس الصحف، لكن الصحافة كانت غالباً تستغل صفحاتها للإقلال من شأن أجهزة البث الحديثة في كل من مخرجاتها الأخبارية أو خططها العاملة للبرامج. أحد الأمثلة المبكرة علي ذلك هو الكفاح الذي قامت به صحيفة "بيتسبيرج كوريار" لخلق احترام جديد للأمريكيين الأفارقة من جانب المجتمع ككل، واحترام جديد للذات من جانب مجتمع الأمريكيين الأفارقة في حد ذاته. في عام 1931 شنت الصحيفة حملة ضد العرض الإذاعي "آموس وآندي". كان العرض عبارة عن كوميديا موقفية شعبية تحدث داخل مجتمع الأمريكيين الأفارقة، وتقع الأحداث ليلاً في محطة WMAQ في شيكاغو من عام 1928 وحتى عام 1943. رغم ذلك، شعر قادة مجتمع السود بأن العرض كان "مفتقراً للباقة" و"متخلفاً"، وعلاوة على ذلكن كان يقوم رجال من البيض بتمثيل دور الشخصيتين الرئيسيتين! اضطر رجال الدين إلى عمل قداسي "احترام

الذات" وقام أكثر من 750 ألف فرد بالتوقيع على التماس يطلبون فيه إنهاء العرض، ولكن كل ذلك كان دون جدوى.

في الولايات المتحدة فيما بين السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، كانت شهرة وشعبية إذاعات البث بنظام [' عالي الجودة ووضوحها الذي تيميز على وضوح موسيقى البث بنظام AM التقليدي، كان ذلك يعني أن العديد من المستمعين انتقلوا إلى موجه FM، ثم بدأت الأحاديث الإذاعية تلحق بالركب خاصة في المدن الكبرى. قبل ذلك كانت برامج التليفزيون الحوارية والبرامج الإخبارية التي تركز على المشاهد أصبحت مألوفة. في بريطانيا كانت هيئة الإذاعة البريطانية تبث برامج هي الأولى من نوعها مثل "الخط لك" وهو برنامج يستخدم التليفون للاتصال بالمشاهد لأول مرة وقد أذيع على الهواء بدءاً من عام 1970. لقد جذب أول ضيف في الأستوديو وهو زعيم العمل هوف سكانلون ما يزيد على 8000 مكالمة. وقد علقت الديلي تيليجراف على صدمتها من "الظلم الواقع على المتصلين".

إن الطريقة الملموسة التي توفر فيها البرامج الإذاعية الهاتفية فرصة الاشتراك المباشر للجمهور بالإضافة إلى الصدمات التي غالباً ما تترتب بها. تتعارض مع طريقة اختيار رؤساء تحرير الصحف للعمل بالفرضيات لا بالمعلومات الملموسة عن قرائهم. ثمة عدد من الدراسات التي تعالج تلك الفكرة. ومعظم تلك الدراسات استطاعت تحديد اعتماد محرري الصحيفة على وجهة الخصوص على الأشكال الفطرية من اتخاذ القرارات لا على الأشكال التجريبية. في أمريكا، كانت قيم الصحافة الإخبارية ذات أثر كبير في التكنولوجيا الحديثة لإذاعة والتليفزيون بصورة كبيرة لأن وكالات الأنباء التي كانت تستخدم التكنولوجيا السلكية بصورة ناجحة كانت لا تزال جزءاً من مجال نفوذ الصحافة. ففي الأيام الأولى لل ثمة عدد من الدراسات التي تعالج تلك الفكرة.

ومعظم تلك الدراسات استطاعت تحديد اعتماد محرري الصحيفة على وجهة الخصوص على الأشكال الفطيرة من اتخاذ القرارات لا على الأشكال التجريبية. في أمريكا، كانت قيم الصحافة الإخبارية ذات أثر كبير في التكنولوجيا الحديثة لإذاعة والتليفزيون بصورة كبيرة لأن وكالات الأنباء التي كانت تستخدم التكنولوجيا السلكية بصورة ناجحة كانت لا تزال جزءاً من مجال نفوذ الصحافة. ففي الأيام الأولى للإذاعة كانت برامجه الإخبارية محدودة ومقيدة من الوكالة ومن الخدمات السلكية لأنها جميعاً كانت ترغب في مواصلة السيطرة على معلومات النشرات الإخبارية. في بريطانيا كان يسمح ببث نشرات الأخبار بالإذاعة بعد الساعة السابعة مساءً حيث اشتمل ترخيص البي بي سي – الذي صدر في 18 يناير عام 1923 – على فقرة تقر بأنه على إذاعة البي بي سي ألا تثبت أي أشياء أو معلومات عدا التي يدفع ثمنها من قبل وكالات الأنباء. في النهاية، وافقت وكالات الأنباء على تزويد البي بي سي بموجز يومي للأخبار العالمية بين الساعة السادسة مساءً والساعة الحادية عشرة. تلك الندرة البالغة في أخبار الإذاعة دفعت بإذاعة البي بي سي على وجه الخصوص إلا أن تعتقد بأن جاذبيتها في الشارع قد ازدادت.

قياس حجم الجمهور

إن أي اختيار يتم إجراءه على وسائل الإعلام الإخبارية سيصل إلى نتيجة مؤداها أن الجمهور قد انتقل مكان الصدارة. فالمحاولات المبكرة التي تمت بهدف تحديده كانت يكتنفها الغموض بالضرورة. لكن في السنوات الماضية انتقل فهمنا للجمهور من مجرد لعبة إعداد بسيطة إلى تحليل شديد التعقيد يرتكز على أرقام حسابية من جانب مؤسسات مستقلة مثل مكتب مراجعة التوزيع **Audit Bureau of circulations** للصحف والمجلات في كل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة. ومجلس المذيعين لأبحاث الجمهور **'Broadcasters**

Audience Research Board للتليفزيون بالمملكة المتحدة وهيئة نيلسن للتقييم Neilsen Ratings للإذاعة والتليفزيون بالولايات المتحدة الأميركية.

تشعبت أرقام توزيع الصحيفة حسب كل عنصر من عناصرها، مثل قسم السفريات وقسم العلوم وما إلى ذلك، كما تشعبت أيضاً إلى اللمحات الخاصة بالحياة مثل الجنس والسن والحالة الاجتماعية والاقتصادية حتى إن هناك أرقاماً خاصة "بالمتسوقات الريسيات" وهذا الرقم يحدد عدد النساء اللائي يقرأن الصحيفة يتسوقن كل أسبوع من أجل أسرهن. فصحيفة الجارديان مثلاً أنفقت ما يزيد على 423,5 مليون جنيه على شراء الأثاث في السنة الماضية. بالنسبة للصحف، لا يعد ذلك مجرد مسألة توزيع أو مسألة فئة من القراء. ورغم أن الواقع يؤكد على أن القراء ضرورة لازمة لبيع الصحيفة غلا أن الصحيفة الحديثة الآن تبيع قراءها مرتين. في المرة الأولى تستغل أرقام التوزيع بهدف إغراء شركات الإعلانات، ولكن في المرة الثانية تؤسس قادة بيانات كبيرة من القراء ومبيعات الاشتراكات، كما تقوم بالرد على العروض الخاصة وعلى رسائل القراء ثم تقوم بتسويق تلك المعلومات لأية مؤسسة على استعداد لشرائها.

ملف حقائق

قياس حجم الجمهور

مكتب مراجعة التوزيع

Audit Bureau of Circulations

كانت ممارسة "تضخيم" التوزيع مألوفة في نهاية القرن العشرين كوسيلة لزيادة عوائد الإعلانات. وفي محاولة لوضع حد لمثل تلك الممارسات تجمع عدد من المعلنين ووكالات الإعلان والناشرين المسئولين بالولايات المتحدة وقاموا بتشكيل وكالة مستقلة لجمع وتدقيق بيانات توزيع الصحف

والمجلات المشتركة في الوكالةز لذا فقد تم تشكيل مكتب مراجعة التوزيع في عام 1914. وفي بريطانيا تم تشكيل مؤسسة مثلها في عام 1931.

مركز الدراسات المسحية القومية للقراء

National Readership Survey

توفر الدراسات المسحية القومية للقراء تقديرات قراء الصحف والمجلات البريطانية الرئيسية لعرض الحجم وطبيعة الجماهير التي استطاعت أن تضمها من حيث الجنس والسن والإقامة بالإضافة إلى أية خصائص سكانية أو حياتية أخرى. وللوصول إلى توجهات وميول فئة القراء يقوم مركز الدراسات المسحية القومية للقراء بعقد مقابلات مع عينات كبيرة تتكون من 36 ألف شخص بالغ (15 سنة فما فوق) كل عام.

تتم المقابلات وجهاً لوجه في منازل المشتركين. وتغطى الدراسة المسحية حوالي 300 صحيفة وملحق ومجلة. والطرق المنهجية للدراسات متفق عليها من جانب الناشرين والمعلنين ووكالات الإعلان.

مجلس المذيعين لأبحاث الجمهور

Audience Research Board'Broadcasters

مجلس المذيعين لأبحاث الجمهور هو مؤسسة مسئولة عن توفير القياس الرسمي لحجم جمهور التليفزيون في المملكة المتحدة. يقوم المجلس بتكليف شركات متخصصة لتقديم خدمة قياس حجم جمهور التليفزيون بالنيابة عنه. وتستخلص تقديراته من لجنة للتقارير تتشكل من 5100 من الأسر المالكة للتليفزيون كشريحة تمثل مشاهدة 25 مليون أسرة من

مشاهدي التليفزيون داخل المملكة المتحدة. في الوسط، يمثل كل عضو من أعضاء اللجنة حوالي 5000 فرد من سكان المملكة المتحدة. والخدمة تغطي المشاهدين الذين يمتلكون المنازل فقط.

رغم ذلك يميل المذيعون إلى تقديم افتراضات تشاؤمية حول ما قد يهتم به الجمهور وحول مدى اهتمامهم وانتباههم، ومن منظور صحفي بحت، حول شهيتهم للروايات الوثائقية والاستقصائية. لكن منذ الحرب العالمية الثانية، عندما اتجه اهتمام المذيعين بعمليات التقييم والتقدير تتجاوز المخاوف من الجود أو "طريقة العرض"، قام المحللون والعلماء والمتخصصون بالإيحاء بنوع جديد من الخوف من المحتوى. ففي بدايات عام 1958 كتب المؤلف الياباني المعروف سوشي أوهايا سلسلة من المقالات عن تأثيرات وزعم أن الوسيلة الإعلامية الجديدة التي أفرزت "1000 مليون من البلهاء"، والمشكلة حدثت كما يلي: بالقراء الأقل، والمشاهدة الأكثر، يصبح الناس مدللين كالأطفال. وقد ظهر فعلاً اهتمام كبير بالمحتوى وخاصة عن عادات المشاهدة لدى الأطفال. قبل عام 1975، كان الأطفال اليابانيون الذين تتراوح أعمارهم بين 10 إلى 15 عاماً يشاهدون التليفزيون بمتوسط أربع ساعات يومياً. وفي المملكة المتحدة يشاهد الأطفال في سن الثانية إلى الحادية عشرة التليفزيون حوالي ثلاث ساعات ونصف كل يوم. وهذه الأرقام تنعكس أيضاً في إحصائيات المملكة المتحدة. لكن بدأ الاهتمام بأخبار التليفزيون يقل بالنسبة لكل الأعمار، والدراسات الإحصائية الصادرة عن مركز أبحاث بيو تؤكد على أن هذا الانخفاض في أعداد المشاهدة يعود على عام 1993 حيث كان 60% من سكان الولايات المتحدة يحصلون على الأخبار من التليفزيون. وفي عام 1996 انخفض هذا الرقم إلى 42% فقط.

إن المسائل الكبرى الخاصة بالطريقة التي تبني بها الوسيلة الإعلامية المعنى في "القرية العالمية" والأخطار الكامنة في التضليل الثقافي أشار إليها مارشال

ماكلوهـان في "فهـم أجهـزة الإعـلام" عـام 1964. في الفـصل الـذي كتبـه عـن التليفزيـون يعـرض "الملاحظة المزعومة لنيجيري قال وهو في سعادة غامرة بعد أن شاهد مسلسلاً تليفزيونيـاً غريبـاً: "لم اكن أعرف أنكم لا تعطون لحياة الإنسان قيمة في الغـرب". يـذهب عـالم الأعـراض الإيطـالي أمبرتـو إيكو إلى ما هو أبعد مـن لـك حيـث يـذكر أن التفـسير المـضلل ... هـو القاعـدة في وسـائل الإعـلام الجماهيريـة لأن النـاس يـضيفون ضـوابط أو قواعـد مختلفـة إلى الرسـالة فـإنهم يفـسرونها بطـرق مختلفة. وفي تحليله أيضاً يذكر إيكو أن هناك فرقاً هاماً وواضحاً ليس بين النـاس في مختلـف الـدول أو من مختلف الثقافات في طريقة فهمهم لرسائل أجهزة الإعلام بل أيضاً بـين المنتجـين والمـستهلكين لمثل تلك الرسائل من الذين يـشتركون في نفـس الثقافـة. لـذلك فـإن تلـك الخـصوصية المتـضمنة في الثقافة المشتركة لا تزال تعمل كضمان ضد التفسير المضلل لرسالة وسائل الإعلام.

سيرة ذاتية

مارشال ماكلوهان

ولد هربرت مارشال ماكلوهان Herbert Marshall Mcluhan في إدمونتـون بألبيرتـا عـام 1911. حصل على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة مانيتوبـا وحـصل على دكتوراه من جامعة كمبريدج ببريطانيا عام 1942. شرع في تدريس الاتصالات والثقافة في جامعة تورنتو عام 1952. وظل يعمل في هذه الجامعة - باستثناء بعض فترات الانقطاع - حتى وفاته.

وقـد اشـتهر بثلاثـة كتـب رائـدة: العـروس الميكانيكيـة The Mechanical Bride عـام 1951 الـذي درس آثـار الإعلانـات عـلى المجتمـع، ومجـرة جـوتنبيرج The Gulenberg Galaxy عـام 1962

وتحليل لوسائل الإعلام الجماهيري في الثقافة الأوروبية حيث صاغ عبارة "القرية العالمية" global village، وفهم أجهزة الإعلام Understanding Media عام 1964 وفيه تكهن بالعلاقة بين الثقافات المحلية والقيم العالمية. أصيب في عام 1979 بجلطة في المخ وتوفي في تورنتو عام 1980.

الجميع متصلون في شبكة واحدة

قدمت لنا نظم التليفزيون السلكي والأقمار الصناعية تقنيات وقدرات على البث التليفزيوني. فكل من الأجهزة السلكية والأقمار الصناعية تستطيع أن تعمل منفصلة عبر الألياف البصرية وأطباق الاستقبال wall-mounted dishes، ولكن الجمع بينهما هو ما يمثل أمراً بالغ الأهمية. فالجمع بين نظام التليفزيون السلكي ونظام البث الفضائي مثل تليفزيون سكاي Sky وتليفزيون السي إن إن CNN ويوفر شبكة قومية أو جولية متزامنة. هذه القنوات السلكية التي تبث عن طريق القمر الصناعي أصبحت واقعاً ملموساً في السبعينيات من القرن العشرين عندما كان هناك أيضاً تجريباً محدوداً للتليفزيون التفاعلي. وقبل وجود الإنترنت، كان يطلق على الوسائل السلكية. وأجهزة البث الفضائي وسائل الإعلام الجديدة، وقد أتاحت شكلاً معيناً من الاتصالات أدى إلى تعزيز المصالح الاجتماعية بتحول الجماعات غير المتجانسة إلى جماعات قومية لكن الجماهير المتخصصة التفت حول الانتماءات العرقية والمهنية والطبقية والدينية والعنصرية والانتماءات والمصالح الأخرى ... وعملت كآليات مباشرة تربط الأوساط والبيئات المحلية والجزئية بالمجتمع القومي الأكثر اتساعاً.

هذه "الجماهير المتخصصة" كانت تعتبر جزءاً من الطليعة التي فتتت احتكار الجمهور الكبير المتآلف الذي يعمل التليفزيون على خدمته حتى اليوم. كان من

المنتظر وجود مستقبل أكثر تطوراً تجد فيه الأقليات مدخلاً أكبر مع وجود احتمالات تطور تجاري أفضل توفره الساحات متعددة القنوات. لكن اليوم ربما لا تصل طريقة الصحف التي تستخدم بها الوسائط التفاعلية للإنترنت إلى شيء أكثر من إعادة تشكيل الشكل القديم لإغراء الجماهير. في الواقع، ثمة عدد من الدراسات الحديثة لتحليل المحتوى التي تم تصميمها لحساب مدى "ثورة" استهداف الجمهور تبدو أنها تؤكد على ذلكز رأى ثورستن كواندت في تقريره عن مواقع أجهزة الإعلام الرسمية في الولايات المتحدة وأوروبا لم تحدث ثورة. لكن ما يعمل على توحيد المواقع التي يتم تحليلها هنا هو بنية شكلية متشابهة، والافتقار إلى محتوى الوسائل المتعددة، ومرجع موحد نوعاً ما لأنواع المقالات، عدم وجود خيارات للتفاعلات المباشرة مع الصحفيين، عدم وجود عزو المصدر/ المؤلف أو ذكرهما، والتوجه العام نحو تغطية الأحداث القومية، ثم النطاق المحدود للأخبار. لكن بالرغم من تلك النظرة التشاؤمية فإن نطاق التقارب بين المنتجين والمستهلكين والآثار الاجتماعية المترتبة على "نحن أجهزة الإعلام" **we media** و"الصحافة العامة" **public journalism** لا تزال يتعين تقييمها على المدى البعيد. ومع ذلك فقد استمرت البحوث بلا هوادة تغذيها إمكانيات الويكيز والمدونات و"الشبكة الدلالية" **semantic web** لإشراك الجمهور واستغلاله.

صحفيون هواة ومعايير هاوية

تعمل أجهزة الإعلام الجديدة على زيادة احتمالات المساهمات المستقلة في المجال العام، ولذا فإن البحوث ربما تثبت أن الحدود بين الجمهور والصحفي سلسة للغاية بطريقة كانت تسمى "المهنية". ربما يضطر المؤرخون إلى إعادة النظر في بعض الافتراضات التي تتعلق "بالمهنة", على سبيل المثال، أثناء القرن الثامن عشر، والنصف الأول من القرن التاسع عشر معظم الصحف لم تستعن بمراسلين

أجانب مهنيين. ومعظم "استخباراتها" غير مدفوعة الأجر أو الأخبار الأجنبية كانت تأتي من قبل هواة يعيشون في الدولة التي ينقل منها الخبر أو حتى يزورونها؛ وفي كل الأحوال كان ذلك يشبه ما يحدث الآن بالنسبة لأصحاب المدونات. ثمة دليل أيضاً على أن هناك جيشاً بشعاً من النساء مجهولاً وبدون معالم واضحة أو حدود يتيح نسخة اعتيادية – عادة بسعر زهيد – لتغذية النمو المتزايد للدوريات الخاصة بالمرأة في أثناء فترة أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر في فرنسا.

اليوم نرى أن الصحفيين معتادين على التعامل بالعقود قصيرة الأجل والعمل الحر في عالم نقل فيه نسبة هيئات التحرير في كل من الإعلام المطبوع أو إعلام البث. فقوة الإنترنت تكمن في فوريتها، ووصولها وقدرتها على إيصال صوت من لا يستطيعون نقل صوتهم إلى القنوات العادية الخاصة بالنشر والتوزيع. إن الحكمة الموروثة نقول إن ألئك الذين يعملون من خلال نقاط ضعفهم وقوتهم سيجدون أنفسهم من أفضل الصحفيين. الأساس المنطقي لذلك هو أن الصحفيين "المهنيين" لابد لهم مرة أخرى من تقبل العمل مع الهواة بنفس الطريقة التي تقبل بها رؤساء تحرير الصحف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الروايات التي كان يوفرها الصحفيون الهواة والذين كانوا مجرد أفراد من جماعات متنقلة خارج البلاد.

إن معرفة ما إذا كان الجمهور سلبياً أم نشطاً ظلت دائماً نكرة بسيطة (لو كانت هذه الفكرة موجودة فعلاً). وبالمثل، أن نصف الجمهور بأنه متجانس أو أن نحاول أن نفهم كل فرد من أعضائه أمر يتسم بالغرابة والغموض. لكن من المعقول القول بأن أي اختبار أو فحص لأجهزة الإعلام الجديدة اليوم سيصل إلى نتيجة وهي أن الجمهور قد نقل بؤرة الاهتمام. ولا شك أن هذا النقل قد كان حثيثاً بسبب وجود الكمبيوتر والإنترنت ومشاركة المعلومات من خلال الشبكة

التفاعلية، الجيل الثاني، وفي المستقبل سيكون البحث عن المعلومات المتكاملة من خلال شبكة

الجيل الثالث أسرع.

الباب الخامس

خـــاتمة

تاريخ في المستقبل

قد نصبح صناع مصيرنا عندما نكف عن التظاهر بأننا أنبياؤه.

(كارل كوبر)

الفصل الرابع عشر

نمور من ورق

في الفصول السابقة حاولنا تحديد سوابق تاريخية للعديد من القضايا التي تهم الصحفيين والصحافة وأجهزة الإعلام اليوم. ومع ذلك فإن تلك السوابق - كما هي الحال دائماً - غالباً ما تطرح عدة تساؤلات وتطرح الإجابات عليها أيضاً. لذلك، ففي هذا الفصل الأخير من الكتاب سنقوم بدراسة المشهد الإعلامي الحالي بإيجاز شديد - حالة الأداء the state of play - من خلال علاقة مثل تلك السوابق التاريخية بالهدف من السعي وراء اكتشاف ما هو الدور الذي لا تزال تلعبه - إن كان لا يزال هناك دور - في التركيب الوراثي للصحافة الحديثة. وفي نفس الوقت سنترك السؤال "إلى أين نحن ذاهبون؟" والأمثلة المشابهة للعرافين والحكماء وضاربي الودع والنقاد وغيرهم ممن يكسبون لقمة العيش من السلوكيات الخاطئة!

لكي نضفي شيئاً من الوضوح للصورة التي تحتم عليها أن تبدو متشابكة ومعقدة فقد قمنا بتحديد أربع أفكار رئيسية تبدو - أكثر من أية أفكار أخرى غيرها - مفيدة في تعريف الصحافة الحديثة. تلك الأفكار الأربع توفر فرصاً كما توفر تهديدات، لكن مدى ما يمكن أن تكون نموراً من ورق بعد أمراً ستقرره الأجيال القادمة:

1. إضفاء طابع الشخصية (الشخصنة) personalization
2. العولمة globalization
3. التوطين (تحديد المكان) localization

4. الفقر المدقع pauperization

شخصي وعن قرب

في الأسبوع الذي يبدأ بالسادس والعشرين م نوفمبر عام 1703 قتل أكثر من 8000 فرد في بريطانيا العظمى بما فيهم "طاقم من خمسة بحارة يعملون في البحرية البريطانية". في بلدة كانت بمفردها تم اقتلاع 17 ألف شجرة من جذورها. فقد ضربت الرياح والأمطار جميع أنحاء جنوب إنجلترا واكتسحت الفيضانات كل مكان. كانت العاصفة الكبرى - كما سميت بعد ذلك - عبارة عن عاصفة قوية لم تشهد الجزر البريطانية مثلها من قبل. كتب دانييل ديفو - الروائي الشهير الآن والذي كتب روايات ذات شهرة واسعة مثل روبنسو كروزو ومول فلاندرز - تقريراً مطولاً عن الحدث أطلق عليه "العاصفة". وبذلك أصبح الحدث أول حدث طقسي يتم تسجيله كرواية إخبارية تصل إلى مسامع وأعين الجمهور الوطني.

قد يشعر العديد من الصحفيين اليوم بالصعوبة الشديدة إذا ما حاولوا مسايرة الأسلوب النقدي المثير والقوى الذي يميز "العاصفة". فتقرير ديفو إنما هو تقرير تميز من الطبقة الأولى بين كل الأساليب الصحيفة التي تعتبر أساليب بديهية في هذه الأيام؛استخدام اقتباسات وتصريحات من أجل الصدق أو الأصالة، التحقق والتثبت من المصدر، الحكايات لإضفاء عنصر التشويق الإنساني، والإحصائيات لعرض طبيعة ومدى الحدث، لقاءات مع شهود عيان يعقدها الصحفي بنفسه، والكتابة البسيطة الواضحة التي تظهر الإيجاز والدقة.

تعتبر رواية ديفو نصاً مؤسساً لكل من الصحافة والرواية، كما أن جزءاً من الجاذبية التي يتسم بها يمثله "المزاج" الصحفي journalistic temperament الذي يضفي عليه السلاسة والآنية التي غالباً ما كان يفتقر إليها الأدب في تلك الفترة. في نفس الوقت كان "الصحفي" داخل ديفو بلا أدنى

شك يدرك أن الأهمية الكبرى لحدث تتجاوز الروايات العادية التي كانت تشكل معظم الإنتاج الصحفي في تلك الفترة ولذلك فمن المحتمل أن تصل أية تغطية الكم الأكبر من الجمهور. كل هذه العوامل مجتمعة أعطت الرواية سحرها الخاص، كما ضمنت لها استمراريتها، وهذا يفسر لماذا لا تزال الرواية تطبع بل ويتم التحدث عنها حتى اليوم. أما العامل الآخر الذي ميز كتابة ديفو كان استخدامه للأسلوب الروائي الذي أضفى طابع الشخصية على الرواية حيث أعطاها بعداً إنسانياً. المقتطف التالي مأخوذ من ديف إيجر زيتون عن رواية لعاصفة أخرى:

في السيارة التي تقترب من المدرسة، قامت نديمة بتعلية صوت الراديو. لقد سمعت شيئاً ما في الأخبار عن عاصفة قادمة. أما كاثي فلم تك تصغ جيداً لأنها - لثلاث أو أربع مرات خلال الموسم يبدو أنه كان هناك أحاديث مزعجة تدور حول أعاصير تتجه مباشرة نحو المدينة، ودائماً ما كان اتجاهها يتغير، أو تقل الرياح في فلوريدا أو فوق الخليج. ولو ضربت إحدى العواصف ولاية نيو أورلياز. فإنها ستنتهي في غضون يوم على الأكثر من الأمطار والرياح الخفيفة.

هذا المراسل كان يتحدث عن عاصفة تتجه نحو خليج يو مكسيكو كفئة أولى رقم (1). وكانت العاصفة تبعد حوالي 45 ميلاً شمال وشمال غربي كي وست وتتجه إلى الغرب. كاثي أطفأت الراديو؛ فهي لم تشأن أن يصاب الأطفال بالقلق.

— هل تعتقدين أنها ستضربنا؟ سألت نديمة.

لم تفكر كاثي في ذلك فمن سيقلق من الفئة الأولى أو الثانية؟ فأخبرت نديمة بأنه لا شيء يذكر .. لا شيء على الإطلاق، ثم قبلت الأطفال

لتلقي عليهم تحية الوداع.

إن الشكل الذي اختاره إيجر إنما هو شكل الصحافة الأدبية لكنـه يمثـل اتجـاه "التحديـد الكبـير" The great determining الذي يميـز الأخبـار الحديثـة ويميـز كتابتهـا؛ سرد الروايـة مـن خـلال الشخصية. وهنا يلمح إيجر إلى اقتراب إعصار كاترينا من خـلال شخصـية كـاثي زوجـة الشخصـية المحورية عبد الرحمن زيتون. وقد روى الكتاب بالكامل من خلال الشخصية والحوار دون اللجوء إلى أساليب الكتابة الصحفية التقليدية عن الحقائق والإحصائيات والاقتباسات وغيرها. خلال تلك العملية يمكن أن نرى أن الإنسانية الموجودة في كل رواية موجودة بقوة بطريقة غالبـاً مـا تفتقـر إليها الصحافة التقليدية.

إذاً يجب ألا ننسى أنه بالرغم من الحديث عـن الانتقـاد إلى الديمقراطيـة، والتكنولوجيـا الرقميـة، والمخاوف الأخلاقية/ وكيف يمكـن إشراك الجمهـور لرفـع حـدود العوائـد، إلا أن الصـافة بكاملهـا تدور حول الرواية. إن مادة الرواية وطريقة سردهـا تختلـف تمامـاً عـن زمـن ديفـو، لكـن روايـة "العاصفة" يجب أن تذكرنا بان هذه "الطريقة المختلفة" ليسـت بطريقـة جديـدة في حـد ذاتهـا؛ فمازلنا نتذكر "أسقف باث وويلز" وهو يصطدم بأرضية منزله فمات، إن الحجـم والكثافـة فقـط هما اللذان تعرضا للتغيـير. فـاليوم مـثلاً، لأن الصـحفيين لا يسـتطيعون مقابلـة الأسـقف، فـإنهم كصحفيين يعملون في الصحافة الشعبية لابد وأنهم يشعرون بأمر يغريهم ليصلوا على عقبة بيـت الأسقف لمقابلة أسرته، وحتى جيرانه لسؤالهم عـن سـلوكه كـرب أسرة، وكقـس، وكصـديق. هـذه المسائل الخاصة بإضفاء طابع الشخصـية قـد ظهـرت وتطـورت حـول الشخصـيات المشـهورة مـن ناحية ورواية التشويق والصالح الإنساني من ناحية أخرى.

العالم ... محارة

يعتبر كل من العولمة وهيمنة الملكية وجهين لعملة واحدة. فلكي تبقى المؤسسة الإعلامية وتظل نابضة بالحياة لابد بها من أن تشكل كتلة حرجة. ومن السهولة بوجه عام أن تحقق ذلك عن طريق الاستحواذ بدلاً من الابتكار؛ فاستهلال شركة جديدة بتقنيات لم يتم اختبارها وأسواق لم يتم اختبارها كذلك يعد أكثر بطئاً، وبذلك تكون عرضة للفشل. لهذه الأسباب في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر - مع بداية ظهور وكالات الأنباء - أصبح توزيع الأخبار خارج حدود الدولة واقعاً بيناً. في نفس الوقت كان تاثير التلغراف على نحو وكالات الأنباء الوليدة كبيراً. ورغم أن وكالات الأنباء بالولايات المتحدة ظلت حبيسة شمال قارة أمريكا حتى أواخر القرن فقد جعلت تلك الوكالات من العالم مكاناً أصغر/ ويمكن القول إن بذور العولمة زرعت في تلك الفترة.

إن مفهوم الوقت وخاصة توحيده يعد أمراً جوهرياً لتطوير نظم جديدة، وفي هذا الصدد كان أثر التلغراف كبيراً. في منتصف القرن التاسع عشر كانت مسألة الوقت تمثل أحد العناصر التي دفعت بعشرين دولة أوروبية نحو تأسيس وإنشاء الاتحاد الدولي للتلغراف عام 1865. كان الاتحاد يتعامل مع المسائل الفنية ثم بعد ذلك لعب دور الإدارة الدولية للطيف الكهرومغناطيسي. أثناء تلك الفترة، قبلت وكالات الأنباء الكبرى الثلاث - هافاس ورويتر ومكتب وولف الألماني للتلغراف - "اتفاقيات الوكالات" التي حددت "مجالات الاهتمام" لجمع ونقل الأخبار العالمية خارج الولايات المتحدة. حسب نسخة القرن التاسع عشر من اتفاقية التجارة العالمية، كتبت هافاس تقاريرها من الإمبراطورية الفرنسية وجنوب أمريكا، وكتبت رويتر حصرياً من إمبراطورية بريطانيا مع حقها في التطور للوصول إلى الشرق الأقصى، في حين قامت مؤسسة وولف بتغطية مساحة وسط أوروبا واسكندنافيا وروسيا.

رغم الاتجاه المتزايد نحو تضمين نسخة من وكالة الأنباء على صفحاتها، وظلت الصحف بوجه عام مملوكة قومياً أو محلياً. وكانت أدوارها التقليدية محددة بوضوح وببساطة كما ذكر الصحفي الأكاديمي وارن ج بوفي:

تبدأ مسئوليات وسائل الإعلام الصحفية المحلية من أماكنها المحلية ثم تتوسع للخارج إلى المدينة ثم إلى الدولة ثم إلى الأمة ثم إلى العالم بهذا الترتيب مع تناقض الحاجة الملحة حتى إلى التوقيت والمكان والمساحة وهيئة العاملين والمصادر المالية. وتبدأ مسئوليات وسائل الإعلام الصحفية القومية بالأمة ثم تتوسع في اتجاه المحليات أو في اتجاه المشهد الدولي مع تناقض الحاجة الملحة وصولاً إلى التوقيت والمكان وهيئة العاملين.

بدأت شركة تيليستار في تغيير جميع آليات جمع وتوزيع الأخبار, فأجندات الأخبار - خاصة فيما يخص الإذاعة والتليفزيون - كان عليها أن تستوعب الشعور المتزايد بالآنية (السرعة) الذي أفرزه البث الفضائي للأقمار الصناعية. وفي نفس الوقت عندما بدأت انطلاقة البث الفضائي الدولي مع إطلاق أول قمر صناعي ثابت ارضياً geostationary ومتزامن مع مدار الأرض geosynchronous عام 1964، عملت التكنولوجيا الجديدة كعامل حفز المخاوف الكامنة لبعض الدول من الهيمنة الدولية والاستعمار الثقافي العربي.

إن فكرة تخوف الثقافة من "استعمار" الأجهزة الإعلامية الخاصة بها لها لم يتم طرحها كثيراً للحوار، لكن كتاباً مثل إدوارد هيرمان وروبرت ماكشسني وبن باديكيان - الذين تتبعوا اثر احتكار وملكية أجهزة الإعلان - يتفقون علي أنه داخل الولايات المتحدة جاءت منظمة للاتصالات لتؤدي كل خطوة في عملية الاتصالات الجماهيرية بدءاً من إنتاج المحتوى وحتى توصيله إلي المنازل. والحجم الهائل لإنتاج تلك المنظمة يمكن فهمه بفحص واختبار نواتج التليفزيون في واشنطن في أي يوم من أيام عام 2000. كان يقدر عدد ساعات البث

الإخباري بحوالي 178 ساعة بالإضافة إلي البرامج التي تتعلق بالشئون العامة، كان من بينها 40 ساعة للبرامج الحوارية talk shows.

ملف حقائق

اختبار "صافي المنفعة لكندا"

في عام 1995 سعت الحكومة الكندية إلي التأكيد علي أولوية المحتوى المنتج محلياً. تتطلب البرامج الإرشادية للاستثمار الأجنبي اختباراً (لصافي المنفعة لكندا) بتحديد إنتاج غالبة المحتوى القومي. عندما أعلنت صحيفة سبوركس مجازين المصورة لصاحبها وارنر عن نيتها لنشر طبعة "منفصلة" ونشر إعلانات داخل المادة التحريرية المأخوذة من طبعة الولايات المتحدة فرضت الحكومة الكندية ضريبة 80% على عوائد الإعلانات.

كنتيجة لذلك استدعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ومنظمة التجارة العالمية التي وجدت أن إجراءات الضريبة الكندية غير متفقة مع اتفاقية الجات[!] (1994)، كما وجدت أيضاً أن طبعة ملحق صحيفة الرياضة المصورة في كندا كان منافساً لمجلة الأخبار الكندية ماكلينز رغم أن محتوى الصحيفتين يختلف كل منهما عن الآخر. بمعنى آخر، كان يمكن لأي ناتج ثقافي يصدر عن أنه أن يكون بديلاً لناتج آخر.

رقابة الجيران

عرفت الشركة المنظمة لأجهزة الإعلام في بريطانيا "أوفكوم" في عام 2006 الخدمات "المحلية" بأنها "أية مجتمعات جغرافية مستهدفة تتراوح من المناطق المجاورة التي تضم بضعة مئات أو آلاف من المنازل إلى العاصمة الرئيسية بحيث

[!] GATT: General Agreement on Tariffs and Trade

تضم مليوناً أو أكثر من السكان". في هذه المجتمعات الجغرافية لا تزال الصحف المحلية والإقليمية تتجه نحو الهيمنة، كما أنها تعتبر مصادر موثوق بها للأخبار المحلية. ومع ذلك، فإن الصورة دائمة التغير لأن الساحات الإعلامية الرقمية بدأت في تفتيت النماذج التقليدية لجمع الأخبار وعوائد الإعلانات والقراء.

يعلمنا التاريخ أن المجتمع المحلي النشيط ينعكس في صحافة محلية مزدهرة؛ فالثقافة السياسية النشطة في بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر كانت تقتضي تدفقاً مستمراً في المعلومات والوفاء بهذا المطلب عمل على تعزيز أحوال مكاتب الصحف المحلية. إن تزايد نمو الصحف كان سريعاً للغاية وفي أقصى صورة له داخل المحافظات بعد إلغاء الضرائب في عام 1855؛ خلال أعوام 1870 إلى 1878 تم تأسيس صحف يومية إقليمية جديدة، كان من بينها 13 صحيفة مسائية. كان لدى ليفربول ونيوكاسل (لكل منهما على حدة) خمس صحف يومية في حين اليوم تملك ليفربول صحيفتين فقط رغم ازدياد عدد السكان إلى خمسة أضعاف ما كان عليه. هذا الانخفاض – وهو يمثل عرضاً للقرن بأكمله – إنما هو انعكاس ليس فقط في تغيير التكنولوجيا وعادات القراءة ولكن أيضاً لتحول السلطة السياسية نحو مركزية الدولة. إن خصخصة الخدمات بالإضافة إلى توفير الحكومة المركزية الأموال اللازمة للعلاج للأغلبية، والخدمات الاجتماعية، والتعليم، كل ذلك يعني أن هناك أسساً قليلة لوجود مجتمع محلي، ما يؤدي إلى "تقييد" المصدر المحتمل للأخبار المحلية.

في الولايات المتحدة كان الحجم الشاسع للدولة والافتقار إلى وسائل المواصلات السريعة أن الصحف المحلية الضرورية كان لها دور كبير. فبعض الصحف الإقليمية كان يبلغ توزيعها 40 ألف عندما لم تكن بريطانيا تمتلك صحفاً يومية خارج لندن. فالطبيعة الزراعية المغتتة والمتناثرة التي كانت تميز الحياة

الأمريكية في القرن التاسع عشر كانت تظهر أيضاً في العديد من الصحف الصغرى واستمر ذلك أثناء بعض فترات من هذا القرن العشرين، ومع تطور في الملكية.

أحد الآثار المبكرة طويلة الأجل للمحلية هو أن محرري الصحف على وجه الخصوص اتبعوا طريقة متميزة لخدمة مجتمعاتهم. فالاتصال المكتوب كان مصحوباً بالشعور بوجود رسالة تفتقر إلى بيئة إخبارية كما يذكر العديد من المعلقين في القرن الحادي والعشرين. وقد تلخص الأمر على يد رئيس تحرير صحيفة سبرنجفيلد ريبوبليكان الأمريكية الذي رأى دوره وكأنه القس الأكبر في التاريخ، والمنشط للمجتمع، والمصدر العظيم للمعلومات في العالم، وأعلى مراقب في العالم، ووسيط الرأي العام والدورة الدموية لحياة العقل الإنساني في كل أنحاء العالم.

أخي .. هل تستطيع أن تدخر ملياً ؟

هل وصلت الصحافة إلى مفترق طرق؟ وهل ساعد كل من الشخصنة والعولمة وتحديد المكان وشجعت التكنولوجيا الجديدة للأقمار الصناعية والإنترنت على تقويض الطرق التقليدية لتوصيل ونقل المعلومات إلى الجماهير والحصول على الربح جراء ذلك؟ هل وصلنا بالفعل إلى عصر الإفقار، ولو كان الأمر كذلك، هل هذا هو الهدف النهائي؟ كما لاحظنا في الفصول السابقة ظلت نسبة توزيع الصحف في انحدار لعدة سنوات في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بالإضافة إلى العديد من الدول الأوروبي. ومع ذلك فطبقاً لإحصائيات الهيئة العالمية للصحافة تبدو الصورة العامة مختلطة. فالصحف التي تتمتع بنسبة 27,5% من السوق تعتبر ثاني أكبر وسيلة إعلانات في العالم بعد التليفزيون الذي يتمتع بنسبة 38%. ومع ذلك فلو أضفنا الصحف إلى المجلات فسيصبحان أكبر وسيلة للإعلان بنسبة 40% من المشاركة في السوق.

خلال السنوات القليلة الماضية كان الاتجاه يسير حيث تظهر الأسواق المتطورة أرباحاً كبيرة من التوزيع خاصة البرازيل وروسيا والهند والصين، في حين يشهد العديد من الأسواق الكبرى انخفاضاً في المبيعات (انظر جدول 14 – 1). بين أعوام 2003 و2007 كان دخل إعلانات الصحف العالمية حوالي 9,4% ومن الواضح أن ذلك نتيجة للزيادات الهائلة في الهند والصين وأمريكا اللاتينية، ثم روسيا بصورة أقل نسبياً.

(جدول 14 – 1: استطلاع لاتجاهات الصحافة العالمية 2003 – 2007)

الدولة / الإقليم	التوزيع	عوائد الإعلانات
أوروبا	أقل من 1,9%	أكثر من 10,1%
الولايات المتحدة	أقل من 8%	أكثر من 8%
المملكة المتحدة	أقل من 10,1%	أقل من 5,2%
الهند	أكثر من 35,5%	أكثر من 64%
الصين	أكثر من 20,7%	أكثر من 49,4%
البرازيل	أكثر من 24,9%	أكثر من 55,4% (أمريكا اللاتينية)
اليابان	أقل من 2,7%	أقل من 8,8%
روسيا	ــــ	أكثر من 17%

كما لاحظنا من قبل ظل توزيع الصحف المحلية في انخفاض حاد منذ نهايات

الثمانينيات من القرن العشرين، ومع ذلك فمثل تلك الصحف ظلت مربحة بسبب عوائد الإعلانات الكبيرة والمقاطعة المستمرة للعمل من قبل هيئات التحرير الذي كان يطالب بها المساهمون لحماية سعر الأسهم. ومع ذلك، لم يُخف ذلك الوعكة التي أصيبت بها الصحافة المطبوعة بكل أشكالها. ثمة مثالات حديثان يعتبران من أعراض تلك المشكلة الشاملة. ثم شراء صحيفة لندن ايفننج ستاندارد في عام 2009 من جانب الملياردير الروسي أليكساندر ليبيديف بمبلغ لا ينسى وهو (جنيه واحد)! رغم أن الصحيفة كان عمرها يزيد على 180 عاماً إلا أنها لم تحقق أية قيمة كشركة أو مؤسسة. قام ليبيديف بتحويلها إلى صحيفة مجانية فزاد توزيعها كنتيجة لذلك.

قد ولت الأيام التي كان فيها بارونات الصحافة يتمتعون بأساليب معيشة هنيئة على خلفية أرباح الصحف التي يمتلكونها. وأصبحت المعلومات زهيدة الثمن جداً، ولكن إنتاجها أصبح غالي الثمن جداً .. هذه المفارقة واحدة من عدد من المفارقات التي توحي بطريقة النماذج التقليدية لأجهزة الإعلام الإخبارية والصحافة بوجه خاص نحو الفقر المدقع. والمفارقة الثانية تتمثل فيما ذكره إيان هارجريفز؛ فقد ذكر أن: "لدينا أخبار كثيرة وصحافة أكثر تأثيراً على مدى غير مسبوق في أجهزة الإعلام أكثر من أي وقت مضى منذ ميلاد الصحافة المجانية في القرن الثامن عشر؛ ومع ذلك فإن الصحافة أيضاً تخضع لهجوم واسع النطاق من رجال السياسة والفلاسفة والجماهير من العامة وحتى من الصحفيين أنفسهم.

المفارقة الثالثة؛ يمكن الإشارة إلى نوع المعلومات. يذكر الاكاديمي الإعلامي ستيوارت آلان في صحيفة نيوز كالتشر: "في عصر العولمة هذا، تعتبر الأخبار أكثر محدودية كما كانت عليه عندما كانت المعلومات التي تأتي من الخارج تسير ببطء في كل أنحاء العالم عبر التلغراف. وهنا مفارقة أخرى وهي أنه في

عصر المعلومات هذا، تغص الصحف التي كانت معتادة على أن تمتلئ بالموضوعات السياسية والاقتصادية بأخبار النجوم والرياضة. في نهاية الأمر يفرز دور التكنولوجيا الرقمية وشبكة الإنترنت المفارقة الرابعة للصحافة الحديثة. حسب رأي نك كار رجل الأعمال الصحفي والمؤلف كانت الصحيفة التقليدية تتاجر في بيع مجموعات كبيرة من المعلومات للمشتركين. نتيجة لذلك، فإن الصحافة الاستقصائية (التحقيقات الصحفية) والأخبار الملموسة الأخرى كان يدعمها المواد الناعمة أو المواد الخاصة بالنجوم والرياضة.



هـــــذا الكتـــــــاب

في ظل التقدم الهائل الذي يشهده القرن الحادي والعشرون في تكنولوجيا العمل الإعلامي, وفي ظل العولمة وتعدد مصادر المعلومات, يطرح الإعلاميون والمتخصصون في المجال الصحفي عدة أسئلة هامة تمثل محور العمل الإعلامي في الوقت الحاضر : هل الصحافة عمل مهني أم مجرد وظيفة لا تحكمها قيود من أخلاقيات أو مبادئ عامة ؟ وهل تخضع الصحافة إلي عملية إعادة تشكيل فيما يتعلق بأدوارها الوظيفية وبشرعيتها؟ وهل أصبح وجود الصحافة – وخاصة الصحافة المطبوعة – عرضة للخطر بسبب ظهور التكنولوجيا المرتبطة بالإنترنت وشبكة المعلومات الدولية وما تتضمنه من وسائل إخبارية متعددة مثل البريد الإلكتروني والمدونات الخاصة والفيسبوك وتويتر وغيرها؟ وهل يبدو الوقت مناسبًا لفحص المشكلات التي تواجهها الصحافة؟ وكيف يمكن أن نستفيد في فهمنا لتلك المشكلات من خلال اختبار البعد التاريخي بدقة؟ كل هذه أسئلة يطرحها كل من جين تشابمان ونِك نوتول مع البحث والتمحيص العلمي للوصول إلي إجابات قد تذهل المتخصصين وغير المتخصصين في المجال.

والله ولي التوفيق ،،،

الناشـــر
عبد الحي أحمـــد فـؤاد

دار الفجـر للنشـر و التوزيـع

4 شارع هاشم الأشقر - النزهة الجديدة - القاهرة تليفون :26246252 فاكس : 26246265

www.daralfajr.com daralfajr@yahoo.com

I.S.B.N
978-977-358-271-8